موسوعة الاغتيالات
ومحاولات الاغتيال في العالم

الجزء الأول

د. سليم الياس

موسوعة
الاغتيالات ومحاولات الاغتيال
في العالم

سليم الياس

موسوعة

الاغتيالات ومحاولات الاغتيال

في العالم

الجزء الأول

مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

1427 هـ 2006 م

مركز الشرق الأوسط الثقافي
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

Middle East Culatural Center
For Printing, Publishing, Translation & Distribution

الإدارة العامة:
بيروت - الحدث، هاتف: ٤٦١٨٨٨ - ٥ - ٩٦١
فاكس: ٤٦١٧٧٧-٥-٩٦١- خليوي: ٦٤٠٤٩٠-٣-٩٦١
Web site: www.lccpublishers.tk

General Management:
Beirut - Hadath, Tel: 961 -5 -461888
Fax: 961 - 5 - 461777, Mobile: 961 - 3 - 640490
E-mail: lcc_pub@Yahoo.com

مقدمة

يحتار المرء في هذا المرض العجيب الذي يميز منطقة الشرق الأوسط عن بقية العالم، وهو الإصرار الغريب على أساليب الاغتيال والتفجيرات والخطف والذبح، إلى آخر هذه الممارسات التي ابتليت بها المنطقة بأشكال مختلفة منذ عقود، تحت شعارات وتبريرات مختلفة، تغيرت بتغير الزمان والإيديولوجيات والحكومات لكن الممارسات ظلت هي هي.

غطت أحكام وقواعد القوانين الدولية لحقوق الإنسان، جريمة الاغتيالات والتصفيات السياسية بكم من النصوص الواضحة الراسخة الحاسمة، التي تدين كل من يخالفها باقتراف جريمة حرب تستدعي جلبه وتقديمه لمحكمة جرائم الحرب الدولية. فقد جاء في نص المادة العاشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان «لكل إنسان على قدم المساواة التامة مع الآخرين الحق في أن تنظر بقضيته محكمة مستقلة ومحايدة، نظراً منصفاً وعلنياً للفصل في حقوقه والتزاماته وفي أية تهمة جزائية توجه إليه». وجاء في المادة 1/11 من الإعلان أيضاً «كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن يثبت ارتكابه لها قانوناً في محكمة علنية، تكون قد وفرت له فيها جميع الضمانات اللازمة للدفاع عن نفسه».

وتناولت أحكام إتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بحماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب المبرمة عام 1949 هذه المسائل في العديد من النصوص، فقد جاء في مضمون المادة 71 «لا يجوز للمحاكم المختصة التابعة لدولة الإحتلال إصدار أي حكم إلا إذا سبقته محاكمة عادلة، يتم دون إبطاء إبلاغ أي متهم تحاكمه دولة الإحتلال كتابة وبلغة يفهمها بتفاصيل الاتهامات الموجهة إليه، وينظر في الدعوى بأسرع ما يمكن»، وجاء في مضمون المادة 72 من ذات الإتفاقية أيضاً «أي متهم له الحق في تقديم الأدلة لدفاعه وعلى الأخص استدعاء الشهود وله حق الاستعانة بمحام مؤهل يختاره ويستطيع زيارته بحرية وتوفر له التسهيلات اللازمة لإعداد دفاعه، وإذا لم يقدم المتهم على اختيار محام لتمثيله والترافع عنه، تعين له الدولة الحامية محامياً، وفي حال مواجهة المتهم بتهمة خطيرة وعدم وجود دولة حامية، يتعين على دولة الإحتلال أن تنتدب له محامياً شريطة موافقة المتهم».

وبعيداً عن متاهات النظريات التي تذهب يميناً وشمالاً وتتحدث عن مؤامرات كونية إلى آخره، فإن المؤكد أن هناك من يعرف من الذي يقف وراء مسلسل التفجيرات والاغتيالات، أو على الأقل لديه خيوط تقود نحو القتلة.

في النهاية فإنه مهما كانت دموية الاغتيالات والتفجيرات لا يعتقد أنها ستغير شيئاً لأن الناس ملت هذه الأساليب التي تعود إلى عصر انتهى زمانه مهما حاولوا التشبث به.

الملك الآشوري سنحاريب
(705 - 681 ق.م)

ينحدر الآشوريون الذين استوطنوا بلاد الرافدين هم والأكديون والبابليون من السلالات التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية بعد موجات الجفاف المتلاحقة التي حلت بها على ما هو معروف في التاريخ.

وحتى القرن الثامن عشر الميلادي وقبل بروز الاكتشافات الأثرية الحديثة وحل لغز الكتابة المسمارية، كان المصدر الوحيد تقريباً لتاريخ هذه الجماعات هو العهد القديم أو ما يسمى بالتوراة.

التوراة هي الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى مرجع تاريخي غير موثق، لأنه لا يعرف على وجه التحديد أين ومتى وكيف تمت كتابته وبأية لغة، وهو يغطي مدة تاريخية طويلة امتدت لأكثر من 120 عاماً، ولو أن الرأي السائد والأكثر قبولاً أنها حررت من قبل اليهود المسبيين في القرن الخامس قبل الميلاد في بابل.

ففي سفر التكوين ترد أسماء أبناء نوح عليه السلام وهم سام وحام ويافث، وتقول التوراة أن بنو سام هم عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وأرام[1].

(1) (سفر التكوين 10 ـ 22).

وعلى هذا التقسيم نشأت خرافة السامية التي نادى بها العالم النمساوي شلوتسر في عام 1781م والتي تعلق بها الإسرائيليون تعلقاً خرافياً وصاروا ينعتون كل من يعاديهم بأنه (لا سامي)!. والآشوريون في العرف الغربي أقوام سامية، وعند المؤرخين الذين تخلصوا من هذه الخرافة كأحمد سوسة وطه باقر وعامر سليمان هم فرع من الأقوام الجزرية العربية التي هاجرت إلى بوادي الشام والعراق واستقرت في الجزء الشمالي من العراق.

يقول الدكتور عامر سليمان بأن مصطلح آشور قد ورد في المصادر الآرامية والعربية المتأخرة (آفور) أو (أثور) واتخذته بعض الأعراق القاطنة في بعض قرى القسم الشمالي من العراق. وإن المعلومات التاريخية المتوافرة والدلائل اللغوية تؤكد أن مصطلح (آثور) الحديث لا يرتبط بالآشوريين المعروفين في التاريخ إلا من حيث اقتباس الاسم، وهو رأي تناقضه آراء أخرى.

لقد احتل الآشوريون حيزاً كبيراً من التكوين النفسي اليهودي نظراً لما لحقهم من دمار وعار وسبي على أيديهم.

وينقسم التاريخ الآشوري إلى ثلاث حقب تاريخية هي:

1 ـ العهد الآشوري القديم (1595 ـ 911 ق.م.)

2 ـ العهد الآشوري الوسيط (911 ـ 612 ق.م.)

3 ـ العهد الآشوري الحديث (595 ـ 300 ق.م.)

في العهدين القديم والوسيط لم يحدث أي تماس مباشر مع بني إسرائيل لأمرين واضحين أولهما أن الآشوريين لم يتوسعوا غرباً

وثانيهما أنه لم يكن للإسرائيليين كيان سياسي ذو شأن حتى عام 1010 ق.م عندما استطاع النبي داود أن يؤسس مملكة صغيرة لم تشمل أراضي فلسطين كلها، ولم يتم ذلك إلا بعد مقتل غريمه الملك شاوول وأولاده الثلاثة على أيدي الفلسطينيين.

إن أول مواجهة عسكرية كانت بين الآشوريين والإسرائيليين في عام (853 ق.م) عندما كوّن الإسرائيليون والآراميون وبعض الدويلات الصغيرة حلفاً ضد الملك الآشوري شيلمنصر الثالث (859 ـ 824 ق.م) الذي هزمهم وأجبرهم على دفع الجزية، جاء ذلك في المسلة السوداء التي عثر عليها العالم البريطاني لايارد في النمرود عام 1846م والتي تعد من أهم مقتنيات المتحف البريطاني، ويرى بعض العلماء بأن الشخص الذي يظهر في المسلة وهو يقبل الأرض أمام قدمي شيلمنصر دليلاً على الخضوع والطاعة هو الملك (ياهو) ملك إسرائيل.

لقد كان الآشوريون قوماً أولي بأس شديد وربما قساة إلى حد ما مقارنة بالأقوام التي عاصروها، ولذلك فقد كانت سمعتهم تسبق المعارك التي يخوضونها مما يلقي الرعب في قلوب أعدائهم، فقد جاء في مسلة أخرى عن هذه المعركة ما نصه: «حاربت جيوشهم ودمرت أربعة عشر ألف محارب من جنودهم، سلطت عليهم فيضاناً غمرهم، وأدخلت الأوتاد في جثثهم التي غطت وجه الأرض، وبسيفي جعلت دماءهم تسيل في أخاديد الأرض، لقد ملأت نهر أورونيتس بجثثهم...»! وهذه المعركة ليس لها ذكر بالتوراة، ربما لسببين أحدهما أنها لم تكن حاسمة والثانية أن بني إسرائيل كوّنوا

حلفاً مع أقوام وثنية وهو ما تستنكره التوراة ولا تريد أن تقر به مطلقاً.

بقيت الدولة الإسرائيلية الشمالية تحت الوصاية الآشورية تدفع لها الجزية، حتى حرض المصريون الملك الإسرائيلي (هوشع) على التمرد ضد الآشوريين مما دفع الملك الآشوري شيلمنصر الخامس (727 ـ 722 ق.م) لتجهيز حملة عليه حاصرت السامرة لمدة ثلاث سنوات ولم يستطع فتحها والتي استعصت على سلفه تجلات بلاسر الثالث (745 ـ 727 ق.م) ثم سقطت على يد سرجون الثاني، وهنا لا بد من وقفة.

إن زوال دولة إسرائيل الشمالية على يد الآشوريين قد تناولته التوراة بالتفصيل وفي أسفار عديدة، لأن الضربة كانت موجعة وقاصمة وامتدت لعدة سنوات.

تقول التوراة «وفي أيام فقح ملك إسرائيل جاء تجلات بلاسر ملك آشور واحتل مدن عيون وآبل.. وسبى سكانها إلى آشور»، في الوقت نفسه وبعد انسحاب الجيش الآشوري حاول ملك المملكة الشمالية فقح بن رمليا ورصين ملك آرام مهاجمة مملكة يهوذا الجنوبية وكان ملكها آحاز قد حاد عن دين آبائه «حتى أنه أحرق ابنه في النار قرباناً للبعل.... وذبح للبعل وبخر له على المرتفعات والتلال وتحت كل شجرة خضراء».

وأرسل آحاز إلى تجلات بلاسر ملك آشور يقول: «أنا عبدك وابنك، تعال خلصني من ملك آرام ومن ملك إسرائيل» وأخذ آحاز ما وجده من الفضة والذهب في هيكل الرب وخزائن قصر الملك

وأرسله هدية إلى ملك آشور، فلبى ملك آشور طلبه وزحف على دمشق فاحتلها وسبى سكانها إلى قير وقتل الملك رصين.

لقد بلغ تذلل آحاز للآشوريين حداً لا مثيل له وقلع كل شيء من هيكل الرب وأهداه لهم و«أغلق مدخل الملك تذللاً لملك آشور».

خلف تجلات بلاسر على الحكم ابنه شيلمنصر الخامس (727 ـ 722 ق.م) وفي مدة حكمه على إسرائيل كان هوشع بن إيله ملكاً على إسرائيل فحاربه شيلمنصر فخضع له ودفع إليه الجزية.

ولكن بعد سنوات حاول أن يتحرر من سلطته فأرسل رسلاً إلى (سوا) ملك مصر يطلب وده وتوقف عن دفع الجزية السنوية كما في السابق فقبض عايه شيلمنصر وأرسله مقيداً إلى السجن ثم غزا أرض إسرائيل وحاصر السامرة ثلاث سنوات فاحتلها في السنة التاسعة لهوشع، وسبى شعب إسرائيل إلى آشور وأسكنهم في حلج وجوزان عبر نهر الخابور، وفي مدن.

إن المدونات الآشورية أثبتت أن السامرة سقطت على يد سرجون الثاني خلف شيلمنصر الخامس الذي عاجلته المنية عام 722 ق.م بينما تقول التوراة أنها سقطت على يد شيلمنصر والتوراة ترجع سبب الانهيار إلى أسباب دينية بحتة، ذلك أن بني إسرائيل تركوا وصايا الرب إلههم.. وسجدوا لنجوم السماء وعبدوا البعل وأحرقوا له بنيهم وبناتهم في النار وتعاطوا العرافة والسحر وباعوا أنفسهم لفعل الشر في نظر الرب فأغاظوه.

وزالت دولة إسرائيل وبقيت دولة يهوذا الجنوبية وعاصمتها أورشليم عقبة كأداء في طريق الآشوريين صوب مصر وإحتلالها.

خلف سرجون ابنه سنحاريب (705 ـ 681 ق.م) والذي شهدت الإمبراطورية الآشورية أوج مجدها في عهده، وكان على مملكة يهوذا الملك حزقيا الذي عاش في زمنه النبي أشعيا صاحب السفر الشهير بنبوءاته عن مجيء المسيح المخلص ﷺ تقول التوراة «وفي السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا، هجم سنحاريب ملك آشور على مدن يهوذا المحصنة واحتلها، فأرسل حزقيا إلى ملك آشور في كيش يقول له: أعترف بخطأي فانصرف عني ومهما تفرض علي أرسله إليك، ففرض عليه ملك آشور أربعين قنطار فضة وأربعة قناطير ذهب».

واستجاب حزقيا ولم يجد أمامه غير كنوز الهيكل للإيفاء بطلب سنحاريب، فأرسل إليه حزقيا الفضة التي وجدها في هيكل الرب وفي خزائن قصر الملك كلها، وهذا ما جعله ينزع الذهب عن أبواب هيكل الرب وعن الدعائم التي كان هو نفسه غشاها به.

واستلم الآشوريون الغنيمة ولكنهم استمروا في حصار أورشليم والتي دارت على أسوارها واحداً من أكثر الحوارات التي تحكيها التوراة بصراحة تامة بين معاون رئيس أركان سنحاريب وبعض رجال حاشية حزقيا، فقال لهم الآشوري «قولوا لحزقيا يقول لك الملك الكبير ملك آشور: على من اتكلت هذا الاتكال؟ أتظن أن الكلام الفارغ يكسبك حلة وقدرة على الحرب: فعلى من اتكلت حتى تمردت علي؟ أعلى مصر، هذه القصبة المرضوضة التي تنفذ في

كف من تعكز عليها وتثقبها؟ هكذا هو فرعونِ ملك مصر لجميع الذين يتكلون عليه. وإن قلت نحن اتكلنا على الرب إلهنا فما هو الإله الذي أزلت مذابحه على المرتفعات».

فرد عليه الإسرائيليون «كلمنا باللغة الآرامية فنحن نفهمها ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الذين على السور» فأجابهم: «أتحسبون أن سيدي ملك آشور أرسلني لأقولِ هذا الكلام لسيدكم أو لكم؟ كلا، بل لأقوله أيضاً للرجال الذين على السور وقريباً معكم يأكلون وسخهم ويشربون بولهم».

لقد كانت هذه المحادثة تمثل قمة الغطرسة الآشورية أمام التخاذل الإسرائيلي. وزاد الضغط الآشوري ولكنهم لم يذعنوا عملاً بنصيحة النبي أشعيا للملك حزقيا وعرفوا أن مصيرهم كمصير أبناء عمومتهم أبناء السامرة، عندها عاود الآشوريون على لسان معاون رئيس الأركان استخدام النداء الديني فقال لهم: «هل أنقذ أي إله من آلهة الأمم أرضه من يد ملك آشور؟».

وطال حصار أورشليم، وفي تلك الأثناء حدث تمرد في عيلام ضد سنحاريب مما اضطره لرفع الحصار وسحب الجيوش، وتعزو التوراة ذلك لاستجابة الرب لدعاء أشعيا فتقول: «جاء ملاك الرب وقتل من جيش آشور مئة وخمس وثمانين ألفاً فلما طلع الصباح كانوا جثثاً هامدة فانصرف سنحاريب ملك آشور راجعاً إلى عاصمته نينوى وفيما هو ساجد في معبد سروخ إلهه قتله أدر ملك وشر أصر ابناه بالسيف وهربا إلى أرض أراراط وملك أسرحدون ابنه مكانه.

لقد كان للغزو الآشوري أثره البالغ على العقلية الإسرائيلية التي

كتبت التوراة، فمع أن الغزو حدث بعد زمن النبي داود، فإن أحد المزامير للنبي داوود عليه السلام يقول: «يا إلهنا لا تكن ساكتاً، لا تصمت ولا تهنا يا الله. . . . على شعبك يأتمرون كيداً. . هم قبائل أدوم وبنو إسماعيل وأهل فلسطين مع أهل صور، آشور أيضاً انضمت إليهم»[1].

لقد انعكس الغزو الآشوري بصورة أخرى على عقلية كتبة التوراة إلى حد الإعجاب بالغزاة حتى إن أشعيا يصف قومه بالأمة الكافرة قائلاً: «ويل لآشور قضيب غضبي وعصا غيظي أرسلتهم على أمة كافرة وأطلقتهم في شعب أغاظني ليسلبوا ثروتهم وينهبوا أرزاقهم ويدوسوهم كوحل الأزقة»[2].

إن سفر أشعيا بكامله يمثل حالة من الانهيار النفسي الكامل والإحباط الذي شعر به الإسرائيليون أمام الجبروت الآشوري وقسوته وسخريته بأعدائه، وفي هذا السفر تبلورت فكرة المسيح المنتظر في الفكر الإسرائيلي والتي انتقلت منه بعد ذلك إلى بقية الأديان، وهذا المنتظر يصفه أشعيا بقوله: «يميت الأموات بنفخة من شفتيه، يكون العدل حزاماً لوسطه، فيسكن الذئب مع الخروف، ويبيت النمر بجانب الجدي، ويأكل الأسد التبن كالثور لا يسيء أحد ولا يفسد»[3].

إن نبوءات هذا السفر تمتد إلى ظهور كورش الذي يعده بطلاً

(1) (مزمور 83، 2 ـ 9).
(2) (أشعيا 9، 5 ـ 6).
(3) (أشعيا 11، 5 ـ 9).

لأنه سمح للإسرائيليين بالعودة إلى أورشليم علماً أن الفاصل الزمني بينهما يربو على القرنين!

لقد عزا الأنبياء المتأخرون كلهم خراب إسرائيل إلى فساد أهلها فها هو النبي عاموس يقول: «لأجل معاصي بيت إسرائيل المتكررة حكمت حكماً لا رجوع عنه لأنهم يبيعون الصديق بالفضة والبائس بنعلين، ويمرغون رؤوس الوضعاء في التراب ويزيحون المساكين عن طريقهم ويدخل الرجل وأبوه على صبية واحدة فيدنسان اسمي القدوس... ويشربون خمر المدينين لهم في بيت إلههم»[1].

لقد نالت نينوى نصيبها من نبوءات العهد القديم، بأنها ستصبح قفراً وخراباً لأنها مدينة شريرة وفاسقة.

ونحن اليوم نتساءل هل يقرأ اليهود الكتاب المقدس؟ وحبّذا لو يفعلوا علّهم يتعظون.

---

(1) (عاموس 2، 6 ـ 8).

يهوذا المكابي

(... ـ 160 ق.م)

وهو ابن قسيس يدعى ماتاثياس من مدينة مُدين. وينطق اسم يهوذا أيضاً يوداس مكابيوس، وتعرف عائلته في النصوص العبرية القديمة بالحشمونيين. وهو من زعماء اليهود في القرن الثاني قبل الميلاد، ووردت قصته في الإنجيل في سفر المكابيين، وذلك في الأبو كريفا (أربعة عشر سفراً)، وتُلحق أحياناً بالعهد القديم من الكتاب المقدس، ولكن البروتستانتيين لا يعترفون بصحتها.

قاد اليهود في عدة معارك تكللت بالنصر وكان ذلك بفضل حكمته واتكاله على الله، وكان يهوذا المكابي ومن معه يتسللون إلى القرى ويندبون ذوي قرابتهم ويستضمون الذين ثبتوا على دين اليهود حتى جمعوا ستة آلاف وكانوا يبتهلون إلى الرب أن ينظر إلى شعبه الذي أصبح يدوسه كل أحد ويعطف على الهيكل الذي دنسه أهل النفاق، ويرحم المدينة المتهدمة التي أشرفت على الانمحاء ويصغي إلى صوت الدماء الصارخة إليه. ويذكر إهلاك الأطفال الأبرياء ظلماً، والتجديف على اسمه ويجهر ببغضه للشر، ولما أصبح للمكابي جيش لم تعد الأمم تثبت أمامه إذ

كان سخط الرب قد استحال إلى رحمة، فجعل يفاجئ المدن والقرى ويحرقها حتى إذا استولى على مواضع توافقه تغلب على الأعداء في مواقع جمة. وكانت أكثر غاراته ليلاً فذاع خبر شجاعته في كل مكان، فلما رأى فيلبس أن الرجل أخذ في التقدم شيئاً فشيئاً وقد أوتي الفوز في أكثر أموره كتب إلى بطلماوس قائد بقاع سورية وفينيقية يسأله المساعدة لصيانة مصالح الملك. فاختار لساعته نكانور بن بتركلس من خواص أصدقاء الملك وجعل تحت يده لفيفاً من الأمم يبلغ عشرين ألفاً ليستأصل ذرية اليهود عن آخرهم وضم إليه جرجياس وهو من القواد المحنكين في أمر الحرب. فرسم نكانور أن يأخذ من مبيع سبي اليهود ألفا قنطار والتي كانت للرومانيين على الملك، وأرسل في الحال إلى مدن الساحل يدعو إلى مشتري رقاب اليهود مسعراً كل تسعين رقبة بقنطار ولم يخطر له ما سيحل به من نقمة. فاتصل بيهوذا خبر مقدم نكانور فأخبر الذين معه بمجيء الجيش، فبدأ الذين خافوا ولم يثقوا بعدل الله ينسابون كل واحد من مكانه، وباع آخرون كل ما كان باقياً لهم وكانوا يبتهلون إلى الرب أن ينقذهم من نكانور الكافر الذي باعهم قبل الملتقى. وذلك إن لم يكن من أجلهم فمن أجل عهده مع آبائهم وحرمة اسمه العظيم الذي هم مسمون به، فحشد المكابي أصحابه وهم ستة آلاف وحرضهم أن لا يرتاعوا من الأعداء ولا يخافوا من كثرة الأمم المجتمعة عليهم بغياً وأن يقاتلوا ببأس، جاعلين نصب عيونهم الإهانة التي ألحقوها بالموضع المقدس عدواناً وما أنزلوه بالمدينة من القهر والعار مع نقض سنن الآباء،

وقال إن هؤلاء إنما يتوكلون على سلاحهم وجسارتهم وأما نحن فنتوكل على الله القدير الذي يستطيع في لمحة أن يبيد الثائرين علينا بل العالم بأسره. ثم ذكر لهم النجدات التي أمد بها آباءهم وما كان من إبادة المئة والخمسة والثمانين ألفاً على عهد سنحاريب، والواقعة التي كانت لهم في بابل مع الغلاطيين كيف برزوا للقتال وهم ثمانية آلاف رجل ومعهم أربعة آلاف من المكدونيين وكيف حين وصل المكدونيون أهلك أولئك المئة وثمانية وعشرين ألفاً بالنجدة التي أوتوها من السماء وعادوا بخير جزيل، وبعدما شددهم بهذا الكلام حتى أضحوا مستعدين للموت في سبيل الشريعة والوطن وقسّمهم أربع فرق، وأقام كل واحد من إخوته سمعان ويوسف ويوناتان قائداً على فرقة وجعل تحت يده ألفاً وخمس مئة. ثم أمر ألعازار أن يتلو عليهم الكتاب المقدس وجعل لهم كلمة السر نصرة الله ثم اتخذ قيادة الكتيبة الأولى وحمل على نكانور. فأيدهم القدير ـ كما جاء في سفر المكابيين ـ فقتلوا من الأعداء ما يزيد على تسعة آلاف وتركوا أكثر جيش نكانور مجرحين مجدعي الأعضاء وألجأوا الجميع إلى الهزيمة، وغنموا الأموال التي جاؤوا بها لشرائهم ثم تعقبوهم مسافة غير قصيرة، إلى أن حضرت الساعة فأمسكوا وعادوا وقد أدركهم السبت ولذلك لم يطيلوا تعقبهم. وجمعوا أسلحة الأعداء واخذوا أسلابهم ثم حفظوا السبت وهم يباركون الرب كثيراً ويعترفون له إذ أنقذهم ليعيدوا ذلك اليوم ومن عليهم باستئناف رحمته.

لما انقضى السبت وزعوا على الضعفاء والأرامل واليتامى

نصيبهم من الغنائم واقتسموا الباقي بينهم وبين أولادهم، وبعدما فرغوا من ذلك أقاموا صلاة عامة سائلين الرب الرحيم أن يعود فيتوب على عبيده، وقتلوا ما يزيد على عشرين ألفاً من جيوش تيموتاوس وبكيديس واستولوا على حصون مشيدة واقتسموا كثيراً من الأسلاب جعلوها سهاماً متساوية لهم وللضعفاء واليتامى والأرامل والشيوخ.

لما جمعوا أسلحة العدو رتبوا كل شيء في موضعه اللائق به وحملوا ما بقي من الغنائم إلى أورشليم، وقتلوا رئيس جيش تيموتاوس وكان رجلاً شديد النفاق ألحق باليهود أضراراً كثيرة، وبينما هم يحتفلون بالظفر في وطنهم أحرقوا كلستانيس وقوماً معه في بيت كانوا قد فروا إليه وكانوا قد أحرقوا الأبواب المقدسة.

أما نكانور الذي كان قد استصحب معه ألف تاجر ليشتروا اليهود، فلما رأى الذين كان يحتقرهم قد أذلوه خلع ما عليه من الثياب الفاخرة وانساب في كبد البلاد منفرداً كالأبق حتى لحق بإنطاكية وهو متفجع غاية التفجع لانقراض جيشه. وبعدما كان قد وعد الرومانيين بأن يفيهم الخراج من سبي أورشليم عاد يذيع أن اليهود لهم الله نصير وأنهم لذلك لا يغلبون إذ هم متبعون ما رسم لهم من الشرائع.

كان أنتيوكاس الرابع ملك سلوقية ويدعى إيبيفانيس يريد أن تتبنى الشعوب الخاضعة له الثقافة والعادات الإغريقية واستجاب العديد من اليهود لذلك، ورفض بعضهم هذا المنهج، وكان اليهود في ذاك الوقت خاضعين لإمبراطورية السلوقيين وهي إحدى الدول

التي تشكّلت خارج إمبراطورية الإسكندر الأكبر. فمنع أنتيوكاس تطبيق القانون اليهودي، ودمرت نسخ من ذلك القانون، وقتل اليهود الذين لم يظهروا له الولاء والطاعة. حقق يهوذا إنتصارات عديدة على أنتيوكاس.

توفي في إحدى المعارك عام 160 ق.م، ويقال بأن أخواه جوناثان وسايمون دبرا الاغتيال ليستلما السلطة بعده.

امرؤ القيس بن حجر الكندي
(496 ـ 544م)

هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر من كندة، أمه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير أخت كليب ومهلهل ابني ربيعة وخاله كليب الذي تقول فيه العرب أعز من كليب، وهو رأس فحول شعراء الجاهلية أجاد في الوصف وامتاز بدقة التصوير أما عباراته فهي خشنة من خشونة البيئة التي عاش فيها، وهذه الديار التي وصفها كلها ديار بني أسد. ويقال له الملك الضليل وذو القروح، وهو من أهل نجد، من الطبقة الأولى، طرده أبوه لما صنع الشاعر بفاطمة ابنة عمه ما صنع ـ وكان لها عاشقاً ـ وأمر بقتله، ثم عفا عنه، ونهاه عن قول الشعر، ولكنه نظم بعدئذٍ فبلغ ذلك أباه فطرده، وبقي طريداً إلى أن وصله خبر مقتل أبيه الذي كان ملكاً على أسد وغطفان على أيدي بني أسد، وكان حينذاك بدُمون في حضرموت فقال: «ضيعني صغيراً، وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم، ولا سكر غداً، اليوم خمر، وغداً أمر». وأخذ يطلب ثأر أبيه، يستنجد القبائل، إلى أن وصل إلى السموأل، والحارث الغسان ـ في بلاد الشام ـ وقيصر الروم في القسطنطينية الذي ضم إليه جيشاً كثيفاً، فوشى رجل من بني أسد بامرئ القيس

إلى قيصر، فبعث إليه بثوب مسمومة منسوجة من الذهب. فلما وصلت إليه لبسها، فأسرع فيه السم، وسقط جلده، وكان حينذاك في أنقرة، التي مات فيها. وله أشعار كثيرة، يصف فيها رحلته هذه. ونورد هنا مقاطع قليلة من هذه الأشعار:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوَى بيْنَ الدَّخولِ فَحَوْمَلِ
فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُها
لِمَا نَسَجَتْها مِنْ جَنوبٍ وشَمْأَلِ
تَرَى بَعَرَ الأرْآمِ في عَرَصاتِها
وقِيعانِها كأنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ
كَأنِّي غَداةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلوا
لَدَى سَمُراتِ الحَيِّ ناقِفُ حَنْظَلِ
وُقوفاً بِها صَحْبِي عَلَّي مَطِيَّهُمْ
يَقولون لا تَهْلِكْ أَسىً وتَجَمَّلِ
وإنَّ شِفائِي عَبْرَةٌ مُهْراقَةٌ
فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ
كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَها
وجارَتِها أُمِّ الرَّبابِ بِمَأْسَلِ
إذا قامَتا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُما
نَسيمَ الصَّبا جاءَتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ
فَفَاضَتْ دُموعُ العَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً
عَلَى النَّحْرِ حتَّى بَلَّ دمْعِي مِحْمَلِي
ألاَ رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صالِحٍ
ولاَ سِيَّمَا يَوْمٍ بِدارَةِ جُلْجُلِ

وَيَــوْمَ عَــقَــرْتُ لــلــعَــذَارَى مَــطِــيَّــتــي
فَـيَـا عَـجَـبـاً مِـن كُـورِهـا الـمُـتَـحَـمَّـلِ
فَـظَـلَّ الـعَـذارَى يَـرْتَـمـيـنَ بِـلَـحْـمِـهـا
وشَـحْـمٍ كَـهُـدَّابِ الـدِّمَـقْـسِ الـمُـفَـتَّـلِ
وَيَــوْمَ دَخَــلْــتُ الــخِــدْرَ خِــدْرَ عُــنَـيْـزَةٍ
فَـقـالَـتْ لَـكَ الـويْـلاتُ إنَّـكَ مُـرْجِـلِـي
تَـقـولُ وقَـدْ مـالَ الـغَـبِـيـطُ بِـنـا مَـعًـا
عَـقَـرَتَ بَـعِـيـري يـا امْـرأَ الـقَـيْـسِ فـانْـزِلِ
فَـقُـلْـتُ لَـهـا سِـيـرِي وأَرْخِـي زِمـامَـهُ
ولا تُـبْـعِـديـنـي مِـنْ جَـنَـاكِ الـمُـعَـلَّـلِ
فَـمِـثْـلِـكِ حُـبْـلَـى قـد طَـرَقْـتُ ومُـرْضِـعٍ
فَـأَلْـهَـيْـتُـهـا عَـنْ ذي تَـمـائِـمَ مُـحْـوِلِ
إذا مـا بَـكَـى مِـن خَـلْـفِـهـا انْـصَـرفَـتْ لَـهُ
بِـشَـقٍّ وتَـحْـتـي شِـقُّـهـا لـم يُـحَـوَّلِ

كان لأمرؤ القيس العديد من القصائد الرائعة أهمها:

- قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل.
- ألا عِمْ صَبَاحاً أيّهَا الطّلَلُ البَالي.
- خليليّ مرّ بي على أم جندب.
- سما لكَ شوقٌ بعدما كان أقصر.
- أعِنّي عَلَى بَرْقٍ أراهُ وَمِيضِ.
- غشيتُ ديارَ الحي بالبكراتِ.
- ألا إنّ قَوْماً كُنتمُ أمسِ دُونَهُمْ.

ـ لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرتُهُ فَشَجَاني .

ـ قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان .

ـ دَعْ عَنكَ نَهباً صِيحَ في حَجَرَاتِهِ .

ـ أرانا موضعين لأمر غيب .

ـ أماويّ هل لي عندكم من معرّس .

ـ ألما على الربع القديم بعسعسا .

ـ لَعَمْرُكَ ما قَلْبي إلى أهْلِهِ بِحُرْ .

عنترة بن شداد

(22 ق.هـ ـ 601م)

هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي. أشهر شعراء العرب في فترة ما قبل الإسلام، اشتهر بشعر الفروسية.

ـ سيرة عنترة بن شداد:

هو عنترة بن شداد بن قراد العبسي. أمه زبيبة، حبشية سوداء سباها أبوه في إحدى غزواته. وكان لها أولاد من غير شداد.

نشأ عنترة في نجد عبداً يرعى الإبل محتقراً في عين والده وأعمامه، لكنه نشأ شديداً بطاشاً شجاعاً، كريم النفس كثير الوفاء.

كان عنترة أسود اللون، أخذ السواد من أمه، وكان يكنّى بأبي المغلس لسيره إلى الغارات في الغلس وهو ظلمة الليل. ويلقب بعنترة الفلحاء.

وعنترة من فرسان العرب المعدودين، ولم يلقب عن عبث بعنترة الفوارس، قال ابن قتيبة: كان عنترة من أشد أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده، وقد فرق بين الشجاعة والتهور.

لكن العرب بالرغم من شجاعته كانوا يستبعدونه وذلك لأنهم كانوا يستبعدون أبناء الإماء، ولا يعترفون بهم إلا إذا نجبوا. وهكذا كان شأن عنترة، فلم يعترف به أبوه إلا بعد أن ظهرت شجاعته وفروسيته.

وفي إدعاء أبيه إياه روايات منها: إن السبب في إدعاء أبيه إياه أن عبساً أغاروا على طيء، فأصابوا نعماً، فلما أرادوا القسمة قالوا لعنترة: لا نقتسم إلا نصيباً مثل أنصبائنا لأنك عبد. فلما طال الخطب بينهم كرت عليهم طيئ فاعتزلهم عنترة وقال: دونكم القوم، فإنكم عددهم، واستنقذت طيئ الإبل. فقال له أبوه: كرّ يا عنترة! فقال: أويحسن العبد الكرّ؟ فقال له أبوه: العبد غيرك، فاعترف به، فكر واستنقذ النعم.

وجاء في رواية ثانية: لقد بدأت قصة عنترة حينما أغار بعض العرب على عبس وساقوا إبلهم فقال له أبوه: كُرّ يا عنتر فقال: العبدُ لا يحسن الكَرّ إنّما يحسنُ الحِلاب والصّر، فقال كُرّ وأنت حُر، فقاتل قتالاً شديداً حتى هزم القوم واستنقذ الإبل.

ومنذ تلك اللحظة... دخل عنترة التاريخ من أوسع أبوابه... فمن الحلاب والصر إلى الكر والفر، ومن ذل العبودية إلى فضاء الحرية، ومن النوم في معاطن الإبل إلى الجلوس في منازل الشرفاء والرؤساء... ومن منادمة الرعيان إلى مسامرة الأعيان....

وكان عنترة صاحب المعارك البطولية والمعلقة المشهورة:

هل غادرَ الشعراءُ من متَردّمِ ... أم هل عرفتَ الدارَ بعدَ توهُّمِ
يا دارَ عبلةَ بالجواء تكلَّمي ... وعِمّي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي

وهنا نقف مع بعض اللفتات من قصة عنترة وإن كان جاهلياً فإن الحكمة ضالة المؤمن:

1 ـ لقد سلك عنترة من حيث علم أم لم يعلم طريقين يقودان المرء إلى التميز.

أولهما: القرار الشجاع، الذي ينقل الإنسان من الثرى إلى الثريا، ومن ملامسة التراب إلى معانقة السحاب.

ثانيهما: الحرية التي تقود إلى الإبداع.

كان عنترة كثيراً ما يذكر عبلة في قصائده من خلال إثبات صفة التفوق عنده وهي الشجاعة كقوله:

فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها لمعتْ كبارقِ ثغركِ المتبسِّمِ

مع أنه على جاهليته إلا أنه كان يملك صفات الرجال الأحرار كقوله:

وأغضُّ طرفي إن بدتْ لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

أحب عنترة عبلة بنت عمه مالك بن قراد العبسي، وكان عمه قد وعده بها ولكنه لم يف بوعده، وإنما كان يتنقل بها في قبائل العرب ليبعدها عنه. وحب عبلة كان له تأثير عظيم في نفس عنترة وشعره، وهي التي صيرته بحبها، ذلك البطل المغامر في طلب المعالي، وجعلته يزدان بأجمل الصفات وأرفعها، وهي التي رققت شعره كما رققت عاطفته، ونفحته بتلك العذوبة، وكان سبب تلك المرارة واللوعة اللتين ربما لم تكونا في شعره لولا حرمانه إياها.

لعنترة شخصية محبوبة لأن كل ما فيها من الصفات يجعل صاحبها قريباً من القلوب: فهو بطل شجاع جريء الفؤاد، حليم الطباع، رقيق القلب، يشكو في حظه العاثر في الحب ومن ظلم قومه له، وإنكارهم جميل فعله نحوهم. أما في موت عنترة فهناك روايات كثيرة أشهرها ما رواه صاحب الأغاني، قال: إن عنترة أغلى على بني نبهان فأطرد لهم طريدة، وهو شيخ كبير. وكان وزر بن جابر النبهاني الملقب بالأسد الرهيص في فتوه فرماه وقال: خذها، وأنا ابن سلمى، فقطع مطاه أي ظهره، فتحامل بالرمية حتى أتى أهله وهو مجروح. وبذلك تكون نهاية عنترة حسب هذه الرواية.

وفي النهاية نقول بأن عنترة كان من أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى. وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة.

كان مغرماً بابنة عمه عبلة فقل أن تخلو له قصيدة من ذكرها. اجتمع في شبابه بالشاعر امرئ القيس، وشهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلاً، وقتله الأسد الرهيص أو جبار بن عمرو الطائي.

الأسود العنسي[1]

(... ـ 632م)

كان الأسود العنسي واسمه عَبْهَلَةُ بن كعب ولقبه ذو الخِمارِ وكان كاهناً مُشَعوذاً يفعل الأعاجيب ويخلب بحلاوة منطقه وكانت داره كهف خيار بها ولد ونشأ وادعى النبوة وكانت مذحجاً عامَّة فأجابوه وأوعدوا نجران فوثبوا بها وأخرجوا عمرو بن حزام وخالد بن سعيد بن العاص وأقاموه في عملها.

ووثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك وهو على مراد فأجلوه. وسار الأسود في سبعمائة فارس إلى شهر بن باذان في صنعا، فلقيه شهر بن باذان فهزمه الأسود وقتله وغلب على ما بين صنعاء وحضرموت إلى أعمال الطائف إلى البحرين من قبل عدن وجعل يطير استطارة الحريق وعامله المسلمون بالتقية وارتد كثير من أهل اليمن. وكان عمرو بن معد يكرب مع خالد سعيد بن العاص فخالفه واستجاب للأسود فسار إليه خالد ولقيه فاختلفا فقطع خالد سيفه الصمصامة وأخذها ونزل عمرو عن فرسه وفتك في الخيل ولحق عمرو بن الأسود فولاه على مذحج وكان أمر جنده إلى

(1) «تاريخ ابن خلدون» ص 61 ـ 67.

قيس بن عبد يغوث المرادي وأمر الأبناء إلى فَيْروز وداذَوَيْهَ. وتزوَّج امرأة شهر بن باذان واستفحل أمره. وخرج معاذ بن جبل هارباً ومرّ بأبي موسى الأشعري في مأرب فخرج معه ولحقا بحضرموت ونزل معاذ في السكون وأبو موسى في السكاسك ولحق عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بالمدينة. وأقام الطاهر بن أبي هالة ببلاد عك: جبال صنعاء. فلما ملك الأسود اليمن واستفحل استخف بقيس بن عبد يغوث وبفيروز وداذويه وكانت ابنة عم فيروز هي زوجة شهر بن باذان التي تزوجها الأسود بعد مقتله واسمها أزاد. وبلغ إلى النبي ﷺ فكتب مع وَبْرِ بن عُنَيْسَ إلى الأبناء وأبى موسى ومعاذ والطاهر يأمرهم فيه أن يعملوا أمر الأسود بالغيلة أو المصادقة. ويبلغ عنه ما يروم عنده ديناً أو نجدة وأقام معاذ والأبناء في ذلك فدخلوا قيس بن عبد يغوث في أمره فأجاب ثم داخل فيروز بنت عمه زوجة الأسود فواعدته قتله. وكتب النبي ﷺ إلى عامر بن شمر الهمداني وبعث جرير عبد الله إلى ذي الكِلاع وذي أمران وذي ظَلِيم من أهل ناحيته وإلى أهل نجران من عربهم ونصاراهم واعترضوا الأسود ومشوا وتنحوا إلى مكان واحد وأخبر الأسود شيطانه بغدر قيس وفيروز وداذويه فعاتبهم وهمّ بهم ففرّوا إلى امرأته وواعدتهم أن ينقبوا البيت من ظهره ويدخلوا فَيُبَيتوه ففعلوا ذلك ودخل فَيْرُوز ومعه قيس ففتل عنقه ثم ذبحه فنادى بالأذان عند طلوع الفجر ونادى داذَوَيه بشعار الإسلام. وأقام وبر بن حُنَيْس الصلاة واهتاج الناس مسلمهم وكافرهم وماج بعضهم في بعض واختطف الكثير من أصحابه صبياناً من أبناء المسلمين وبرزوا وتركوا كثيراً من أبنائهم. ثم تراسلوا في ردّ كلِّ ما بيده وأقاموا يتردَّدون

فيما بين صنعاء ونجران وخلصت صنعاء والجنود. وتراجع أصحاب النبي ﷺ إلى أعمالهم وتنافسوا الإمارة في صنعاء. ثم اتفقوا على معاذ يصلي بهم وكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر وكان قد أتاه خبر الواقعة من السماء فقال في غداتها: قتل العنسي البارحة قتله رجل مبارك وهو فيروز. وكان ذلك عام 632م.

عمر بن الخطاب ﷺ

(581 ـ 644م)

عمر بن الخطاب هو ثاني الخلفاء الراشدين وأول من دُعي بلقب أمير المؤمنين، كان من أصحاب محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ، إسمه عمر بن الخطاب بن نوفل بن عبد العزى بن رباح بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي. وفي كعب يجتمع نسبه مع نسب محمد بن عبد الله ﷺ. أمه حنتمة بنت هشام المخزوميه أخت أبي جهل. هو أحد العشرة المبشّرين بالجنة، ومن علماء الصحابة وزهادهم. أول من عمل بالتقويم الهجري.

لقبه الفاروق. وكنيته أبو حفص، والحفص هو شبل الأسد، وقد لقب بالفاروق لأنه كان يفرّق بين الحق والباطل ولا يخاف في الله لومة لائم.

أنجب اثنا عشر ولداً، ستة من الذكور هم عبد الله وعبد الرحمن وزيد وعبيد الله وعاصم وعياض، وست من الإناث وهن حفصة ورقية وفاطمة وصفية وزينب وأم الوليد.

ـ ولادته:

ولد قبل بعثة رسول الله ﷺ بثلاثين سنة وكان عدد المسلمين يوم أسلم تسعة وثلاثين مسلماً. وامتدّت خلافة عمر 10 سنين و6 أشهر وأربعة أيام.

ـ إسلامه:

ظلَّ عمر ﷺ على حربه للمسلمين وعدائه للنبي حتى كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، وبدأ عمر ﷺ يشعر بشيء من الحزن والأسى لفراق بني قومه وطنهم بعد ما تحمّلوا من التعذيب والتنكيل، واستقرّ عزمه على الخلاص من محمد لتعود إلى قريش وحدتها التي مزّقها هذا الدين الجديد! فتوشّح سيفه، وانطلق إلى حيث يجتمع محمد ﷺ وأصحابه في دار الأرقم، وبينما هو في طريقه لقي رجلاً من بني زهرة فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً، فقال: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم! وأخبره بإسلام أخته فاطمة بنت الخطاب، وزوجها سعيد بن زيد بن عمر، فأسرع عمر إلى دارهما، وكان عندهما خبّاب بن الأرت يقرئهما سورة طه، فلما سمعوا صوته اختبأ خباب، وأخفت فاطمة الصحيفة، فدخل عمر ﷺ ثائراً، فوثب على سعيد فضربه، ولطم أخته فأدمى وجهها، فلما رأى الصحيفة تناولها فقرأ ما بها، فشرح الله صدره للإسلام، وسار إلى حيث النبي ﷺ وأصحابه، فلما دخل عليهم وجل القوم، فخرج إليه النبي ﷺ، فأخذ بمجامع ثوبه، وحمائل السيف، وقال له: أما أنت منتهياً يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال، ما نزل بالوليد بن المغيرة؟

فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله، فكبّر رسول الله والمسلمون، فقال عمر: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى، قال: ففيم الاختفاء؟ فخرج المسلمون في صفين حتى دخلوا المسجد، فلما رأتهم قريش أصابتها كآبة لم تصبها مثلها، وكان ذلك أول ظهور للمسلمين على المشركين، فسمّاه النبي ﷺ الفاروق منذ ذلك العهد.

ـ الهجرة إلى المدينة:

كان إسلام عمر بن الخطاب ﷺ في ذي الحجة من السنة السادسة للدعوة، وهو ابن ست وعشرين سنة، وقد أسلم بعد نحو أربعين رجلاً، ودخل عمر ﷺ في الإسلام بالحمية التي كان يحاربه بها من قبل، فكان حريصاً على أن يذيع نبأ إسلامه في قريش كلها، وزادت قريش في حربها وعدائها لمحمد وأصحابه، حتى بدأ المسلمون يهاجرون إلى المدينة فراراً بدينهم من أذى المشركين، وكانوا يهاجرون إليها خفية، فلما أراد عمر ﷺ الهجرة تقلد سيفه، ومضى إلى الكعبة فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى، ثم نادى في جموع المشركين: «من أراد أن يثكل أمه أو ييتم ولده أو يرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي».

وفي المدينة آخى النبي ﷺ بينه وبين عتبان بن مالك وقيل: معاذ بن عفراء، وكان لحياته فيها وجه آخر لم يألفه في مكة، وبدأت تظهر جوانب عديدة ونواح جديدة، من شخصية عمر، وأصبح له دور بارز في الحياة العامة في المدينة.

ـ موافقة القرآن لرأي عمر:

تميز عمر بن الخطاب بقدر كبير من الإيمان والتجريد والشفافية، وعرف بغيرته الشديدة على الإسلام وجرأته في الحق، كما اتصف بالعقل والحكمة وحسن الرأي، وقد جاء القرآن الكريم، موافقاً لرأيه في مواقف عديدة ـ كل ذلك حسب الروايات والمنظور السني ـ من أبرزها: قوله للنبي ﷺ يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى: فنزلت الآية **﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** [البقرة: ١٢٥]، وقوله يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب: **﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب﴾** [الاحزاب: ٥٣].

وقوله لنساء النبي ﷺ وقد اجتمعن عليه في الغيرة: **﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾** [التحريم: ٥] فنزلت ذلك.

ولعل نزول الوحي موافقاً لرأي عمر في هذه المواقف هو الذي جعل النبي ﷺ يقول:

جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه، كما رواه الترمذي.

وروي عن ابن عمر: «ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر بن الخطاب، إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر ض».

ـ خلافته:

بويع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين في اليوم التالي لوفاة أبي بكر الصديق في 22 جمادى الآخرة 13 هـ الموافق في 23 آب/ أغسطس 632م.

وبدأ الخليفة الجديد يواجه الصعاب والتحديات التي قابلته منذ اللحظة الأولى وبخاصة الموقف الحربي الدقيق لقوات المسلمين بالشام، فأرسل على الفور جيشاً إلى العراق بقيادة أبي عبيدة بن مسعود الثقفي الذي دخل في معركة متعجلة مع الفرس دون أن يرتب قواته، ولم يستمع إلى نصيحة قادة جيشه الذين نبهوه إلى خطورة عبور جسر نهر الفرات، وأشاروا عليه بأن يدع الفرس يعبرون إليه لأن موقف قوات المسلمين غربي النهر أفضل، حتى إذا ما تحقق للمسلمين النصر عبروا الجسر بسهولة، ولكن أبا عبيدة لم يستجب لهم، وهو ما أدى إلى هزيمة المسلمين في موقعة الجسر، واستشهاد أبي عبيدة وأربعة آلاف من جيش المسلمين.

ـ الفتوحات الإسلامية في عهد الفاروق:

بعد تلك الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في موقعة الجسر سعى المثنى بن حارثة إلى رفع الروح المعنوية لجيش المسلمين في محاولة لمحو آثار الهزيمة، ومن ثم فقد عمل على استدراج قوات الفرس للعبور غربي النهر، ونجح في دفعهم إلى العبور بعد أن غرهم ذلك النصر السريع الذي حققوه على المسلمين، ففاجأهم المثنى بقواته فألحق بهم هزيمة منكرة على حافة نهر البويب الذي سميت به تلك المعركة.

ووصلت أنباء ذلك النصر إلى الفاروق في المدينة، فأراد الخروج بنفسه على رأس جيش لقتال الفرس، ولكن الصحابة

أشاروا عليه أن يختار واحداً غيره من قادة المسلمين ليكون على رأس الجيش، ورشحوا له سعد بن أبي وقاص فأمره عمر على الجيش الذي اتجه إلى الشام حيث عسكر في القادسية.

وأرسل سعد وفداً من رجاله إلى بروجرد الثالث ملك الفرس ليعرض عليه الإسلام على أن يبقى في ملكه ويخيره بين ذلك أو الجزية أو الحرب، ولكن الملك قابل الوفد بصلف وغرور وأبى إلا الحرب، فدارت الحرب بين الفريقين، واستمرت المعركة أربعة أيام حتى أسفرت عن إنتصار المسلمين في القادسية، ومني جيش الفرس بهزيمة ساحقة، وقتل قائده رستم، وكانت هذه المعركة من أهم المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي، فقد أعادت العراق إلى العرب والمسلمين بعد أن خضع لسيطرة الفرس قروناً طويلة، وفتح ذلك النصر الطريق أمام المسلمين للمزيد من الفتوحات.

ـ الطريق من المدائن إلى نهاوند:

أصبح الطريق إلى المدائن عاصمة الفرس ممهداً أمام المسلمين، فأسرعوا بعبور نهر دجلة واقتحموا المدائن، بعد أن فر منها الملك الفارسي، ودخل سعد القصر الأبيض ـ مقر ملك الأكاسرة ـ فصلى في إيوان كسرى صلاة الشكر لله على ما أنعم عليهم من النصر العظيم، وأرسل سعد إلى عمر يبشره بالنصر، ويسوق إليه ما غنمه المسلمون من غنائم وأسلاب.

بعد فرار ملك الفرس من المدائن اتجه إلى نهاوند حيث احتشد

في جموع هائلة بلغت مائتي ألف جندي، فلما علم عمر بذلك استشار أصحابه، فأشاروا عليه بتجهيز جيش لردع الفرس والقضاء عليهم قبل أن ينقضوا على المسلمين، فأرسل عمر جيشاً كبيراً بقيادة النعمان بن مقرن على رأس أربعين ألف مقاتل فاتجه إلى نهاوند، ودارت معركة كبيرة انتهت بإنتصار المسلمين وإلحاق هزيمة ساحقة بالفرس، فتفرقوا وتشتت جمعهم بعد هذا النصر العظيم الذي أطلق عليه فتح الفتوح.

ـ فتح مصر:

اتسعت أركان الإمبراطورية الإسلامية في عهد الفاروق عمر، خاصة بعد القضاء نهائياً على الإمبراطورية الفارسية في القادسية ونهاوند. فاستطاع فتح الشام وفلسطين، واتجهت جيوش المسلمين غرباً نحو أفريقيا، حيث تمكن عمرو بن العاص من فتح مصر في أربعة آلاف مقاتل، فدخل العريش دون قتال، ثم فتح الفرما بعد معركة سريعة مع حاميتها، الرومية، واتجه إلى بلبيس فهزم جيش الرومان بقيادة أرطبون ثم حاصر حصن بابليون حتى فتحه، واتجه بعد ذلك إلى الإسكندرية ففتحها، وفي نحو عامين أصبحت مصر كلها جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية العظيمة.

وكان فتح مصر سهلاً ميسوراً، فإن أهل مصر ـ من القبط ـ لم يحاربوا المسلمين الفاتحين، وإنما ساعدوهم وقدموا لهم كل العون لأنهم وجدوا فيهم الخلاص والنجاة من حكم الرومان الطغاة الذين أذاقوهم ألوان الاضطهاد وصنوف الكبت والاستبداد، وأرهقوهم بالضرائب الكثيرة.

- **عمر أمير المؤمنين:**

كان عمر بن الخطاب نموذجاً فريداً للحاكم الذي يستشعر مسؤوليته أمام الله وأمام الأمة، فقد كان مثالا نادراً للزهد والورع، والتواضع والإحساس بثقل التبعة وخطورة مسؤولية الحكم، حتى إنه كان يخرج ليلاً يتفقد أحوال المسلمين، ويلتمس حاجات رعيته التي استودعه الله أمانتها، وله في ذلك قصص عجيبة وأخبار طريفة، من ذلك ما روي أنه بينما كان يعس بالمدينة إذا بخيمة يصدر منها أنين امرأة، فلما اقترب رأى رجلاً قاعداً فاقترب منه وسلم عليه، وسأله عن خبره، فعلم أنه جاء من البادية، وأن امرأته جاءها المخاض وليس عندها أحد، فانطلق عمر إلى بيته فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي: «هل لك في أجر ساقه الله إليك»؟ فقالت: وما هو؟ قال: امرأة غريبة تمخض وليس عندها أحد، قالت نعم إن شئت فانطلقت معه، وحملت إليها ما تحتاجه من سمن وحبوب وطعام، فدخلت على المرأة، وراح عمر يوقد النار حتى انبعث الدخان من لحيته، والرجل ينظر إليه متعجباً وهو لا يعرفه، فلما ولدت المرأة نادت أم كلثوم عمر يا أمير المؤمنين، بشر صاحبك بغلام، فلما سمع الرجل أخذ يتراجع وقد أخذته الهيبة والدهشة، فسكّن عمر من روعه وحمل الطعام إلى زوجته لتطعم امرأة الرجل، ثم قام ووضع شيئاً من الطعام بين يدي الرجل وهو يقول له: كل ويحك فإنك قد سهرت الليل!

وكان عمر عفيفاً مترفعاً عن أموال المسلمين، حتى إنه جعل

نفقته ونفقة عياله كل يوم درهمين، في الوقت الذي كان يأتيه الخراج لا يدري له عداً فيفرقه على المسلمين، ولا يبقي لنفسه منه شيئاً.

وكان يقول: أنزلت مال الله مني منزلة مال اليتيم، فإن استغنيت عففت عنه، وإن افتقرت أكلت بالمعروف.

وخرج يوماً حتى أتى المنبر، وكان قد اشتكى ألماً في بطنه فوصف له العسل، وكان في بيت المال آنية منه، فقال يستأذن الرعية: إن أذنتم لي فيها أخذتها، وإلا فإنها علي حرام، فأذنوا له فيها.

ـ عدل عمر وورعه:

كان عمر دائم الرقابة لله في نفسه وفي أعماله وفي رعيته، بل إنه ليشعر بوطأة المسؤولية عليه حتى تجاه البهائم العجماء فيقول: والله لو أن بغلة عثرت بشط الفرات لكنت مسؤولاً عنها أمام الله، لماذا لم أعبِّد لها الطريق.

وكان عمر إذا بعث عاملاً كتب ماله، حتى يحاسبه إذا ما استعفاه أو عزله عن ثروته وأمواله، وكان يدقق الاختيار لمن يتولون أمور الرعية، أو يتعرضون لحوائج المسلمين، ويعد نفسه شريكاً لهم في أفعالهم.

واستشعر عمر خطورة الحكم والمسؤولية، فكان إذا أتاه الخصمان برك على ركبته وقال: اللهم أعني عليهم، فإن كل واحد منهما يريدني على ديني.

ـ إنجازات عمر الإدارية والحضارية:

وقد اتسم عهد الفاروق عمر بالعديد من الإنجازات الإدارية والحضارية، لعل من أهمها أنه أول من اتخذ الهجرة مبدأ للتأريخ الإسلامي، كما أنه أول من دون الدواوين، وقد اقتبس هذا النظام من الفرس، وهو أول من اتخذ بيت المال، وأول من اهتم بإنشاء المدن الجديدة، وهو ما كان يطلق عليه تمصير الأمصار، وكانت أول توسعة لمسجد الرسول ﷺ في عهده، فأدخل فيه دار العباس بن عبد المطلب، وفرشه بالحجارة الصغيرة، كما أنه أول من قنن الجزية على أهل الذمة، فأعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال، وجعلها ثمانية وأربعين درهماً على الأغنياء، وأربعة وعشرين على متوسطي الحال، واثني عشر درهماً على الفقراء.

فتحت في عهده بلاد الشام والعراق وفارس ومصر وبرقة وطرابلس الغرب وأذربيجان ونهاوند وجرجان. وبنيت في عهده البصرة والكوفة. وكان عمر أوّل من أخرج اليهود من الجزيرة العربية إلى الشام.

ـ مماته:

كان عمر يتمنى الشهادة في سبيل الله ويدعو ربه لينال شرفها: «اللهم أرزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك». وفي ذات يوم وبينما كان يؤدي صلاة الفجر بالمسجد طعنه أبو لؤلؤة المجوسي ـ غلاماً للمغيرة بن شعبة ـ عدة طعنات في ظهره أدت

إلى مماته ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، ولما علم قبل وفاته أن الذي طعنه مجوسي حمد الله تعالى أنه لم يقتله مسلم وكان ذلك في العام 23 هـ الموافق 644م. ودفن إلى جوار رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق في الحجرة النبوية الشريفة الموجودة الآن في المسجد النبوي في المدينة المنورة.

الزبير بن العوّام

(593 ـ 656م)

ولد الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، أبو عبد الله في العام 593م، أمه صفية بنت عبد المطلب، وعمته خديجة بنت خويلد (ر٥)، يلتقي مع رسول الله ﷺ في الجد الخامس (قصي)، صحابي جليل، وهو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، أسلم وكان صغيراً، هاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة ومعه أمه صفية بنت عبد المطلب، شارك في الغزوات كلها، وكان من أحد الفوارس يوم بدر. وكان ممن ثبتوا يوم أحد، وشهد له رسول الله ﷺ يومها أنه شهيد، وكانت معه إحدى رايات المهاجرين يوم الفتح، كما قال ﷺ عنه «إن لكل نبي حوارياً وحواريّ الزبير»، وهو أحد الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأحد الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب (ر٥) للخلافة بعده وهم أهل الشورى، تزوج أسماء بنت الصديق (ر٥)، وولده منها عبد الله أول مولود للمسلمين بعد الهجرة. اخترق الزبير بن العوام (ر٥) صفوف الروم يوم اليرموك مرتين من أولهم إلى آخرهم، وكان ممن دافعوا عن عثمان بن عفان (ر٥)، فلما كان يوم الجمل خرج مطالباً بدم عثمان (ر٥)، فذكّره

عليّ بن أبي طالب عليه السلام بأن الرسول ﷺ «أخبره أنه يقاتل علياً وهو ظالم له»، فرجع عن القتال وكر راجعاً إلى المدينة، ومر بقوم الأحنف بن قيس وقد انعزلوا عن الفريقين، فاتبعه عمرو بن جرموز في طائفة من غواة بني تميم، فقتلوه غدراً، وهو نائم في وادي السباع، وعمره يومها سبع وستون سنة، وكان في صدره (ره) أمثال العيون من الطعن والرمي من أثار المعارك التي خاضها في سبيل الله، فرثته زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل:

غَدَرَ ابن جرموز بفارس بهمة ... يومَ اللقاءِ وكان غر معرد

كم غمرةٍ قد خاضها لم يثنه ... عنها طرادك يا ابن فقع اِلعردد

ولما قتله ابن جرموز احتز رأسه وذهب به إلى عليّ عليه السلام، ليحصل له به حظوة عنده فاستأذن فقال عليّ: لا تأذنوا له وبشروه بالنار، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشر قاتل ابن صفية بالنار»، ثم دخل ابن جرموز ومعه سيف الزبير (ره)، فقال عليّ: إن هذا السيف طالما فرّج الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، فيروى أن عمرو بن جرموز لما سمع ذلك قتل نفسه في الحال.

كان الزبير فقيراً لما تزوج أسماء (ره)، ولكنه بعد ذلك جمع مما أفاء الله عليه من الجهاد ومن خمس الخمس ما يخص أمه منه، فكان يضرب له بأربعة أسهم: سهم له، وسهمين للحصان، وسهم لذي القربى أي لأمه، كما جمع من التجارة المبرورة، وصار له مالاً كثيراً بلغ عند وفاته (ره) أكثر من ستين مليون درهم. وترك من الذرية واحداً وعشرين من الذكور والإناث، وكان له أربع زوجات ضم أجمعين. وما ولي إمارة قط، ولا جباية، ولا خراجاً. وكان

كثير الصدقات، وقد أوصى له سبعة من الصحابة منهم عثمان وعبد الرحمن وابن مسعود وأبو العاص بن الربيع ضم، فكان ينفق على أبنائهم من ماله ويحفظ عليهم أموالهم. وكان له ألف غلام يؤدون إليه الخراج، فلا يدخل إلى بيته شيئاً من ذلك، ويتصدق به كله. ولما قتل عمر بن الخطاب (ره)، محا نفسه من الديوان، ورفض أن يأخذ العطاء الذي كان مخصصاً له من بيت المال.

ـ قالو عنه:

ـ لكل نبي حواري وحواريي الزبير.

رسول الله ﷺ.

ـ طلحة والزبير جاراي بالجنة.

رسول الله ﷺ.

ـ أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثماني سنين وهاجر وهو ابن ثماني عشرة سنة، وكان عمه يعلقه في حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول ارجع إلى الكفر فيقول الزبير لا أكفر أبداً.

محمد بن عبد الرحمن بن نوفل.

ـ قاتل الزبير مع رسول الله ﷺ وهو ابن اثنتي عشرة سنة فكان يحمل على القوم.

عمرو بن مصعب.

ـ أخبرني من رأى الزبير إن في صدره مثل العيون من الطعن والرمي.

علي بن زيد

ـ لحظات من حياته:

وكانت فضيلته كمقاتل، تتمثل في الثبات، وقوة الأعصاب.. رأى مشهد خاله حمزة يوم أحد وقد مثّل المشركون بجثمانه القتيل في قسوة، فوقف أمامه كالطود ضاغطاً على أسنانه، وضاغطاً على قبضة سيفه، لا يفكر إلا في ثأر رهيب، وسرعان ما جاء الوحي ينهي الرسول والمسلمين عن مجرّد التفكير فيه..!!

وحين طال حصار بني قريظة دون أن يستسلموا أرسله الرسول ﷺ مع علي ابن أبي طالب عليه السلام، فوقف أمام الحصن المنيع يردد مع علي قوله:

«والله لنذوقنّ ما ذاق حمزة، أو لنفتحنّ عليهم حصنهم». ثم ألقيا بنفسيهما وحيدين داخل الحصن.

وبقوة أعصاب مذهلة، أحكما إنزال الرعب في أفئدة المتحصنين داخله وفتحا أبوابه للمسلمين.

ـ السيرة:

لا يجيء ذكر الزبير إلا ويذكر طلحة معه.. ولا يجيء ذكر طلحة إلا ويذكر الزبير معه..

فحين كان الرسول عليه الصلاة والسلام يؤاخي بين أصحابه في مكة قبل الهجرة، آخى بين طلحة والزبير.

وطالما كان عليه السلام يتحدث عنهما معاً.. مثل قوله:

«طلحة والزبير جاراي في الجنة». وكلاهما يجتمع مع الرسول في القرابة والنسب.

أما طلحة، فيجتمع في نسبه مع الرسول في مرة بن كعب. وأما الزبير، فيلتقي في نسبه مع الرسول ﷺ في قصّي بن كلاّب كما أن أمه صفية عمة الرسول ﷺ..

وكل منهما طلحة والزبير كان أكثر الناس شبهاً بالآخر في مقادير الحياة.. فالتماثل بينهما كبير، في النشأة، في الثراء، في السخاء، في قوة الدين، في روعة الشجاعة، وكلاهما من المسلمين المبكرين بإسلامهم...

ومن العشرة الذين بشّرهم الرسول بالجنة. ومن أصحاب الشورى الستة الذين وكّل إليهم أمر اختيار الخليفة من بعده.

وحتى مصيرهما كان كامل التماثل.. بل كان مصيراً واحداً؛

ولقد أسلم الزبير، إسلاماً مبكراً، إذ كان واحداً من السبعة الأوائل الذين سارعوا إلى الإسلام، وأسهموا في طليعته المباركة في دار الأرقم. وهكذا رزق الهدى والنور والخير صبياً..

ولقد كان فارساً ومقداماً منذ صباه. حتى إن المؤرخين ليذكرون أن أول سيف شهر في الإسلام كان سيف الزبير.

ففي الأيام الأولى للإسلام، والمسلمون يومئذ قلة يستخفون في دار الأرقم.. سرت إشاعة ذات يوم أن الرسول قتل.. فما كان من الزبير إلا أن استلّ سيفه وامتشقه، وسار في شوارع مكة، على حداثة سنه كالإعصار..!

ذهب أولاً يتبيّن الخبر، معتزماً أن ما ألفاه صحيحاً أن يعمل سيفه في رقاب قريش كلها حتى يظفر بهم أو يظفروا به..

وفي أعلى مكة لقيه رسول الله ﷺ، فسأله ماذا به. . . .؟ فأنهى إليه الزبير النبأ. . فصلى عليه الرسول، ودعا له بالخير، ولسيفه بالغلب.

وعلى الرغم من شرف الزبير في قومه فقد حمل حظه من اضطهاد قريش وعذابها.

وكان الذي تولى تعذيبه هو عمه. . كان يلفه في حصير، ويدخن عليه بالنار كي تزهق أنفاسه، ويناديه وهو تحت وطأة العذاب: «أكفر برب محمد، أدرأ عنك العذاب».

فيجيبه الزبير الذي لم يكن يوم ذاك أكثر من فتى ناشئ، غضّ العظام. . يجيب عمه في تحدّ رهب: «لا. . والله لا أعود للكفر أبداً».

ويهاجر الزبير إلى الحبشة، الهجرتين الأولى والثانية، ثم يعود ليشهد المشاهد كلها مع رسول الله. لا تفتقده غزوة ولا معركة.

وما أكثر الطعنات التي تلقاها جسده واحتفظ بها بعد اندمال جراحاتها، أوسمة تحكي بطولة الزبير وأمجاده. . !!

ولنصغ لواحد من الصحابة رأى تلك الأوسمة التي تزدحم على جسده، يحدثنا عنها فيقول:

«صحبت الزبير بن العوّام في بعض أسفاره ورأيت جسده، فرأيته مجذّعاً بالسيوف، وأن في صدره لأمثال العيون الغائرة من الطعن والرمي.

فقلت له: والله لقد شهدت بجسمك ما لم أره بأحد قط.

فقال لي: أما والله ما منها جراحة إلا مع رسول الله وفي سبيل الله.

وفي غزوة أحد بعد أن انقلب جيش قريش راجعاً إلى مكة وندبه الرسول هو وأبو بكر لتعقب جيش قريش ومطاردته حتى يروا أن المسلمين قوة فلا يفكروا في الرجوع إلى المدينة واستئناف القتال.

وقاد أبو بكر والزبير سبعين من المسلمين، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتعقبون جيشاً منتصراً فإن اللباقة الحربية التي استخدمها الصديق والزبير، جعلت قريشاً تظن أنها أساءت تقدير خسائر المسلمين، وجعلتها تحسب أن هذه الطليعة القوية التي أجاد الزبير مع الصديق إبراز قوتها، وما هي إلا مقدمة لجيش الرسول الذي يبدو أنه قادم ليشن مطاردة رهيبة فأغذّت قريش سيرها، وأسرعت خطاها إلى مكة..!!

ويوم اليرموك كان الزبير جيشاً وحده.. فحين رأى أكثر المقاتلين الذين كان على رأسهم يتقهقرون أمام جبال الروم الزاحفة، صاح هو «الله أكبر».. واخترق تلك الجبال الزاحفة وحده، ضارباً بسيفه.. ثم قفل راجعاً وسط الصفوف الرهيبة ذاتها، وسيف يتوهج في يمينه لا يكبو، ولا يحبو..!!

وكان ض شديد الولع بالشهادة، عظيم الغرام بالموت في سبيل الله. وكان يقول:

«إن طلحة بن عبيد الله يسمي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم ألا نبي بعد محمد...

وإني لأسمي بنيّ بأسماء الشهداء لعلهم يستشهدون».

وهكذا سمى ولده، عبد الله بن الزبير تيمناً بالصحابي الشهيد عبد الله بن جحش.

وسمى ولده المنذر، تيمناً بالشهيد المنذر بن عمرو.

وسمى عروة تيمناً بالشهيد عروة بن عمرو.

وسمى حمزة تيمناً بالشهيد الجليل عم الرسول ﷺ حمزة بن عبد المطلب.

وسمّى جعفر، تيمناً بالشهيد الكبير جعفر بن أبي طالب.

وسمى مصعباً تيمناً بالشهيد مصعب بن عمير.

وسمى خالد تيمناً بالصحابي الشهيد خالد بن سعيد.

وهكذا راح يختار لأبنائه أسماء الشهداء. راجياً أن يكونوا يوم تأتيهم آجالهم شهداء.

ولقد قيل في تاريخه: «أنه ما ولي إمارة قط، ولا جباية، ولا خراجاً ولا شيئاً إلا الغزو في سبيل الله».

وكانت ميزته كمقاتل، تتمثل في اعتماده التام على نفسه، وفي ثقته التامة بها.

فلو كان يشاركه في القتال مائة ألف، لرأيته يقاتل وحده في المعركة.. وكأن مسؤولية القتال والنصر تقع على كاهله وحده.
وكانت فضيلته كمقاتل، تتمثل في الثبات، وقوة الأعصاب.

ويوم حنين أبصر مالك بن عوف زعيم هوزان وقائد جيش الشرك في تلك الغزوة.. أبصره بعد هزيمتهم في حنين واقفاً وسط فيلق من أصحابه، وبقايا جيشه المنهزم، فاقتحم حشدهم وحده، وشتت شملهم وحده، وأزاحهم عن المكمن الذي كانوا يتربصون

فيه ببعض زعماء المسلمين، العائدين من المعركة. ولقد كان حظه من حب الرسول ﷺ وتقديره عظيماً.

ذلك أنه لم يكن ابن عمته وحسب، ولا زوج أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين، بل كان ذلك الوفي القوي، والشجاع الأبيّ، والجوّاد السخيّ، والبائع نفسه وماله لله رب العالمين:

ولقد أجاد حسان بن ثابت وصفه حين قال: «أقام على عهد النبي وهديه حواريّه والقول بالفعل يعدل، أقام على منهاجه وطريقه يوالي وليّ الحق، والحق أعدل.

هو الفارس المشهور والبطل الذي يصول، إذا ما كان يوم محجّل له من رسول الله ﷺ قربى قريبة ومن نصرة الإسلام مجد موثّل، فكم كربة ذبّ الزبير بسيفه عن المصطفى، والله يعطي ويجزل.

وكان رفيع الخصال، عظيم الشمائل.. وكانت شجاعته وسخاؤه كفرسي رهان.

فلقد كان يدير تجارة رابحة ناجحة، وكان ثراؤه عريضاً، ولكنه أنفقه في الإسلام حتى مات مديناً.

وكان توكله على الله منطلق جوده، ومنطلق شجاعته وفدائيته، حتى وهو يجود بروحه، ويوصي ولده عبد الله بقضاء ديونه قال له:

«إذا أعجزك دين، فاستعن بمولاي». وسأل عبد الله: أي مولى تعني..؟

فأجابه: الله، نعم المولى ونعم النصير».

يقول عبد الله فيما بعد: «فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقضي دينه، فيقضيه».

وفي يوم الجمل في العام 656م، كانت نهاية الزبير ومصيره. فبعد أن رأى الحق نفض يديه من القتال، وتبعه نفر من الذين كانوا يريدون للفتنة دوام الاشتعال، وطعنه القاتل الغادر وهو بين يدي ربه يصلي. وذهب القاتل إلى الإمام علي عليه السلام يظن أنه يحمل إليه بشرى حين يسمعه نبأ عدوانه على الزبير، وحين يضع بين يديه سيفه الذي استلبه منه، بعد اقتراف جريمته.

لكن علياً صاح حين علم أن بالباب قاتل الزبير يستأذن، صاح آمراً بطرده قائلاً: «بشّر قاتل ابن صفيّة بالنار». وحين أدخلوا عليه سيف الزبير، قبّله الإمام وأمعن بالبكاء وهو يقول: «سيفٌ طالما والله جلا به صاحبه الكرب عن رسول الله».

أهناك تحيّة نوجهها للزبير في ختام حديثنا عنه، أجمل وأجزل من كلمات الإمام..؟؟

سلام على الزبير في مماته بعد محياه..

- مراجع الدراسة:

1 - «البداية والنهاية» لإبن كثير(7/ 260).

2 - «الوافي بالوفيات»، صلاح الدين الصفدي، (14/ 180).

3 - «الأعلام» للزركلي، (3/ 43).

عثمان بن عفان رضي الله عنه

(576 ـ 656)

هو عثمان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب. يجتمع نسبه مع الرسول ﷺ في الجد الخامس من جهة أبيه. عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فهو قرشي أموي يجتمع هو والنبي ﷺ في عبد مناف، وهو ثالث الخلفاء الراشدين.

ولد في الطائف بعد الفيل بست سنين الموافق عام 576م.

وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وأم أروى البيضاء بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ[1].

ـ كنيته:

يكنى بأبي عبد الله وأبي عمرو، كني أولاً بابنه عبد الله

---

(1) المسعودي، مروج الذهب ج 2، ص 340، الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 692، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 3، ص 74، تاريخ الإسلام ج 1، ص 252.

ابن زوجته رقية بنت النبي ﷺ. توفي عبد الله سنة أربع من الهجرة بالغاً من العمر ست سنين[1].

لقب عثمان ﷺ بـ«ذي النورين» لأنه تزوج رقية، وأم كلثوم، ابنتيّ النبي ﷺ. ولا يعرف أحد تزوج بنتيّ نبي غيره[2].

ـ أولاده وأزواجه[3]:

1 ـ عبد الله بن رقية.

2 ـ عبد الله الأصغر، وأمه فاختة بنت غزوان بن جابر.

3 ـ عمرو، وأمه أم عمرو بنت جُنْدب.

4 ـ خالد، وأمه أم عمرو بنت جُنْدب.

5 ـ أُبان، وأمه أم عمرو بنت جُنْدب.

6 ـ عمر، وأمه أم عمرو بنت جُنْدب.

7 ـ مريم، وأمها أم عمرو بنت جُنْدب.

8 ـ الوليد، وأمه فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس.

9 ـ سعيد، وأمه فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس.

10 ـ أم سعيد، وأمها فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس.

11 ـ عبد الملك، وأمه أم البنين بنت عُيينة بن حصن بن حذيفة.

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 692، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 2، ص 74، السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 119 ـ 17.

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 119.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 692، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 2، ص 75، السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 119.

12 ـ عائشة، وأمها رملة بنت شيبة بن ربيعة.

13 ـ أم أبان، وأمها رملة بنت شيبة بن ربيعة.

14 ـ أم عمرو وأمها رملة بنت شيبة بن ربيعة.

15 ـ مريم، وأمها نائلة بنت الفُرَافِصَة ابن الأحوص.

16 ـ أم البنين، وأمها أم ولد وهي التي كانت عند عبد الله بن يزيد بن أبي سفيان.

فأولاده ستة عشر: تسعة ذكور، وسبع إناث، وزوجاته تسع، ولم تذكر هنا أم كلثوم لأنها لم تعقب، وقتل عثمان وعنده رملة، ونائلة، وأم البنين، وفاختة، غير أنه طلق أم البنين وهو محصور.

ـ زوجته رقية:

رقية بنت رسول الله ﷺ، وأمها خديجة، وكان رسول الله قد زوَّجها من عتبة بن أبي لهب، وزوَّج أختها أم كلثوم عتيبة بن أبي لهب، فلما نزلت: ﴿تبّت﴾ [المسد: ١]. قال لهما أبو لهب وأمهما ـ أم جميل بنت حرب بن أمية ـ ﴿حمالة الحطب﴾ [المسد: ٤]: فارقا ابنتَي محمد، ففارقاهما قبل أن يدخلا بهما كرامة من الله تعالى لهما، وهواناً لابني أبي لهب، فتزوج عثمان بن عفان رقية بمكة، وهاجرت معه إلى الحبشة، وولدت له هناك ولداً فسماه: عبد الله، وكان عثمان يُكنى به[1]، فبلغ الغلام ست سنين، فنقر عينه ديك، فورم وجهه، ومرض، ومات. وكان موته سنة أربع،

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 692، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 3، ص 74.

وصلى عليه رسول الله ﷺ ونزل أبوه عثمان حفرته. ورقية أكبر من أم كلثوم. ولما سار رسول الله ﷺ إلى بدر كانت ابنته رقية مريضة، فتخلَّف عليها عثمان بأمر رسول الله ﷺ، فتوفيت يوم وصول زيد بن حارثة - هو زيد بن حارثة بن شراحيل، الكلبي، أبو أسامة، اختطف في الجاهلية صغيراً، واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبي ﷺ قبل الإسلام - وأعتقه وزوَّجه بنت عمته، واستمر الناس يسمونه زيد بن محمد حتى نزلت آية ﴿**ادعوهم لآبائهم**﴾ [الاحزاب:٥]، وهو من أقدم الصحابة إسلاماً، كان النبي ﷺ لا يبعثه في سرية إلا أمَّره عليها، وكان يحبه ويقدمه، وجعل له الإمارة في غزوة مؤتة، فاستشهد فيها سنة 8 هـ[1].

- زوجته أم كلثوم:

بنت رسول الله ﷺ، وأمها خديجة، وهي أصغر من أختها رقية، زوَّجها النبي ﷺ من عثمان بعد وفاة رقية، وكان نكاحه إياها في ربيع الأول من سنة ثلاث، وبنى بها في جمادى الآخرة من السنة، ولم تلد منه ولداً، وتوفيت سنة تسع وصلى عليها رسول الله ﷺ، ونزل في قبرها عليّ والفضل، وهو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الفضل، القرشي، المكي، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، جدّ الخلفاء العباسيين، قال رسول الله ﷺ في وصفه: «أجود قريش كفاً وأوصلها، هذا بقية آبائي»، وهو عمه، كان محسناً لقومه، سديد الرأي، واسع العقل، مولعاً بإعتاق العبيد، كانت له سقاية الحج

(1) للاستزادة راجع: الإصابة ج 1، ص 563، صفة الصفوة ج 1، ص 147.

وعمارة البيت الحرام أي لا يدع أحداً يسبّ أحداً في المسجد ولا يقول فيه هجراً. أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، أقام بمكة يكتب إلى رسول الله أخبار المشركين. ثم هاجر إلى المدينة وشهد وقعة حنين فكان ممن ثبت حين انهزم الناس، شهد فتح مكة، وعمي في آخر عمره، وكان إذا مر بعمر في أيام خلافته ترجَّل عمر إجلالاً له، وكذلك عثمان، عمَّر طويلاً، ولد سنة 51 ق. هـ. وتوفي سنة 32 هـ. أحصي وُلده في سنة 200 هـ، فبلغوا 33000[1].

وروى سعيد بن المسيب أن النبي ﷺ رأى عثمان بعد وفاة رقية مهموماً لهفاناً، فقال له: «ما لي أراك مهموماً»؟ فقال: يا رسول الله وهل دخل على أحد ما دخل عليَّ؟ ماتت ابنة رسول الله ﷺ التي كانت عندي وانقطع ظهري، وانقطع الصهر بيني وبينك. فبينما هو يحاوره إذ قال النبي ﷺ: «هذا جبريل عليه السلام يأمرني عن الله عز وجل أن أزوجك أختها أم كلثوم على مثل صداقها، وعلى مثل عشرتها». «ورد في الجامع الكبير المخطوط ج 2، (36200)». فزوجه إياها.

ـ صفاته[2]:

كان عثمان جميلاً وكان ربعة ـ لا بالقصير ولا بالطويل ـ، حسن الوجه، رقيق البشرة كبير اللحية، أسمر اللون، كثير الشعر، ضخم البنية. طويل الذراعين، شعره قد كسا ذراعيه. أقنى (بيِّن

(1) راجع: أسد الغابة ج 3، ص 164، تهذيب الكمال ج 2، ص 658، تهذيب التهذيب ج 5، ص 122، تقريب التهذيب ج 1، ص 397، خلاصة تهذيب الكمال ج 2، ص 35.
(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 691، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 3، ص 74، السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 120.

القنا)، بوجهه نكتات جدري، وكان يصفر لحيته ويشد أسنانه بالذهب[1].

وكان ﷺ أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمور لعلمه، وتجاربه، وحسن مجالسته، وكان شديد الحياء، ومن كبار التجار.

كان لا يوقظ نائماً من أهله إلا أن يجده يقظان فيدعوه فيناوله وضوءه، وكان يصوم الدهر[2]، ويلي وضوء الليل بنفسه. فقيل له: لو أمرت بعض الخدم فكفوك، فقال: لا، الليل لهم يستريحون فيه. وكان ليِّن العريكة، كثير الإحسان والحلم. قال رسول الله ﷺ: «أصدق أمتي حياءً عثمان». وهو أحد الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وقال عن نفسه قبل قتله: «والله ما زنيت في جاهلية وإسلام قط».

ـ لباسه:

رئي وهو على بغلة عليه ثوبان أصفران له غديرتان، ورئي وهو يبني الزوراء ـ والزوراء: دار عثمان بالمدينة ـ. على بغلة شهباء مصفِّراً لحيته، وخطب وعليه خميصة ـ الخميصة: كساء أسود له علمان، فإن لم يكن معلماً فليس بخميصة ـ سوداء وهو مخضوب بحناء، ولبس ملاءة صفراء وثوبين ممصرين، وبرداً يمانياً ثمنه مائة

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية ج 7، ص 192.
(2) الإصابة ج 4، ص 223.

درهم، وتختم في اليسار، وكان ينام في المسجد متوسداً رداءه.

- إسلامه[1]:

أسلم عثمان ﷺ في أول الإسلام قبل دخول رسول الله دار الأرقم، وكانت سنّه قد تجاوزت الثلاثين، دعاه أبو بكر إلى الإسلام فأسلم، ولما عرض أبو بكر عليه الإسلام قال له: ويحك يا عثمان والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، هذه الأوثان التي يعبدها قومك، أليست حجارة صماء لا تسمع، ولا تبصر، ولا تضر، ولا تنفع؟ فقال: بلى، والله إنها كذلك، قال أبو بكر: هذا محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه؟ فقال: نعم.

وفي الحال مرَّ رسول الله ﷺ فقال: «يا عثمان أجب الله إلى جنته فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه». قال: فوالله ما ملكت حين سمعت قوله أن أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية. وكان يقال: أحسن زوجين رآهما إنسان، رقية وعثمان. كان زواج عثمان لرقية بعد النبوة لا قبلها، كما ذكر السيوطي[2]. وذلك خطأ.

لما أسلم عثمان أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطاً وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث!

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 692، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 3، ص 74.

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 118.

والله لا أخليك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين. فقال: والله لا أدعه أبداً. فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه[1].

وفي غداة اليوم الذي أسلم فيه عثمان جاء أبو بكر بعثمان بن مظعون - هو عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة الجمحي، أبو السائب، صحابي، كان من حكماء العرب في الجاهلية، يحرم الخمر، أسلم بعد 13 رجلاً، وهاجر إلى أرض الحبشة مرتين، أراد التبتل والسياحة في الأرض زهداً بالحياة، فمنعه رسول الله ﷺ، فاتخذ بيتاً يتعبد فيه، فأتاه النبي ﷺ فأخذ بعضادتي البيت، وقال: «يا عثمان، إن الله لم يبعثني بالرهبانية - مرتين أو ثلاثاً - وإن خير الدين عند الله الحنفية السمحة»، شهد بدراً، ولما مات جاءه النبي ﷺ فقتله ميتاً حتى رُؤيت دموعه تسيل على خد عثمان، وهو أوّل من مات بالمدينة من المهاجرين وأوّل من دفن بالبقيع منهم سنة 2 هـ[2].

وأسلمت أخت عثمان آمنة بنت عفان، وأسلم أخوته لأمه الوليد وخالد وعمارة، أسلموا يوم الفتح، وأم كلثوم، وبنو عقبة بن أبي معيط ابن عمرو بن أمية أمهم كلهم أروى، ذكر ذلك الدارقطني في كتاب الأخوة، وذكر أن أم كلثوم من المهاجرات الأُوَل، يقال: إنها أول قرشية بايعت النبي ﷺ، وأنكحها زيد بن حارثة، ثم خلفه عليها عبد الرحمن بن عوف ثم تزوجها الزبير بن العوام.

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 119، ابن سعد، الطبقات الكبرى ج 3، ص 55.

(2) راجع: طبقات ابن سعد ج 3، ص 286، الإصابة ترجمة 5455، صفة الصفوة ج 1، ص 178، حلية الأولياء ج 1، ص 102، تاريخ الخميس ج 1، ص 411، والمرزباني 254.

ـ هجرته[1]:

هاجر عثمان إلى أرض الحبشة فاراً بدينه مع زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، فكان أول مهاجر إليها، ثم تبعه سائر المهاجرين إلى أرض الحبشة، ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة. عن أنس قال: أول من هاجر إلى الحبشة عثمان، وخرجت معه ابنة رسول الله ﷺ، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما، فجعل يتوكف الخبر فقدمت امرأة من قريش من أرض الحبشة فسألها، فقالت: رأيتها، فقال: «على أيّ حال رأيتها؟» قالت: رأيتها وقد حملها على حمار من هذه الدواب وهو يسوقها، فقال النبي ﷺ: «صحبهما الله، إن كان عثمان لأول من هاجر إلى الله عز وجل بعد لوط»[2].

ـ تبشيره بالجنة[3]:

كان عثمان رضي الله عنه أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة.

عن أبي موسى الأشعري ـ هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضّار بن حرب بن عامر بن عنز بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهز بن الأشعر، أبو موسى الأشعري، من

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 692، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 3، ص 74، السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 120.

(2) رواه ابن أبي عاصم في السنة 2: 596.

(3) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، حسن إبراهيم حسن، ج 1، ص 253.

بني الأشعر من قحطان، صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين، أحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفّين، ولد في زبيد باليمن سنة 21 ق. هـ، قدم مكة عند ظهور الإسلام، فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة، ثم استعمله رسول الله ﷺ على زبيد وعدن، ولاه عمر بن الخطاب البصرة سنة 17 هـ، افتتح أصبهان والأهواز، ولما ولي عثمان أقرّه عليها، ثم عزله، فانتقل إلى الكوفة، فطلب أهلها من عثمان توليته عليهم، فولاه فأقام بها إلى أن قتل عثمان، فأقرّه عليّ، ثم كانت وقعة الجمل وأرسل علي يدعو أهل الكوفة لينصروه، فأمرهم أبو موسى بالقعود في الفتنة، فعزله علي فأقام إلى أن كان التحكيم وخدعه عمرو بن العاص، فارتد أبو موسى إلى الكوفة، فتوفي فيها سنة 44 هـ، كان أحسن الصحابة صوتاً في التلاوة، خفيف الجسم، قصيراً[1].

قال: كنت مع رسول الله ﷺ في حديقة بني فلان والباب علينا مغلق إذ استفتح رجل فقال النبي ﷺ: «يا عبد الله بن قيس، قم فافتح له الباب وبشّره بالجنة» فقمت، ففتحت الباب فإذا أنا بأبي بكر الصدّيق فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ، فحمد الله ودخل وقعد، ثم أغلقت الباب فجعل النبي ﷺ ينكت بعود في الأرض فاستفتح آخر فقال: «يا عبد الله بن قيس قم فافتح له الباب وبشّره بالجنة»، فقمت، ففتحت، فإذا أنا بعمر بن الخطاب فأخبرته بما قال النبي ﷺ، فحمد الله ودخل، فسلم وقعد، وأغلقت الباب فجعل

---

(1) راجع: تهذيب الكمال ج 2، ص 724، تهذيب التهذيب ج 5، ص 362، تقريب التهذيب ج 1، ص 441، خلاصة تهذيب التهذيب ج 2، ص 89.

النبي ﷺ ينكت بذلك العود في الأرض إذ استفتح الثالث الباب فقال النبي ﷺ: «يا عبد الله بن قيس، قم فافتح الباب له وبشّره بالجنة على بلوى تكون»، فقمت، ففتحت الباب، فإذا أنا بعثمان بن عفان، فأخبرته بما قال النبي ﷺ، فقال: الله المستعان وعليه التكلان، ثم دخل، فسلم وقعد.

ـ تخلّفه عن بيعة الرضوان[1]:

في الحديبية دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكني أدلّك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظّماً لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص (هو أبان بن سعيد بن العاص الأموي، أبو الوليد، صحابي مشهور من ذوي الشرف، كان في عصر النبوة من شديدي الخصومة للإسلام والمسلمين، ثم أسلم سنة 7 هـ، بعثه رسول الله سنة 9 هـ عاملاً على البحرين، فخرج بلواء معقود أبيض وراية سوداء، أقام في البحرين إلى أن توفي رسول الله ﷺ، فسافر أبان إلى المدينة ولقيه

(1) تاريخ الإسلام للذهبي ج 1، ص 253.

أبو بكر فلامه على قدومه، فقال: آليت ألا أكون عاملاً لأحد بعد رسول الله ﷺ، أقام إلى أن كانت وقعة أجنادين في خلافة أبي بكر، فحضرها واستشهد بها سنة 13 هـ على الأرجح، وقيل توفي في خلافة عثمان)، حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ. فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل، وقيل: إنه دخل مكة ومعه عشرة من الصحابة بإذن رسول الله ليزوروا أهاليهم ولم يذكروا أسماءهم، وقيل: إن قريشاً احتبست عثمان عندها ثلاثة أيام، وأشاع الناس أنهم قتلوه هو والعشرة الذين معه. وعلى كل حال أبطأ عثمان رضي الله عنه عن الرجوع فقلق عليه المسلمون، فلما بلغ ذلك الخبر رسول الله ﷺ قال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»[1].

ولما لم يكن قتل عثمان رضي الله عنه محققاً، بل كان بالإشاعة بايع النبي ﷺ عنه على تقدير حياته. وفي ذلك إشارة منه إلى أن عثمان لم يُقتل، وإنما بايع القوم أخذاً بثأر عثمان جرياً على ظاهر الإشاعة تثبيتاً وتقوية لأولئك القوم، فوضع يده اليمنى على يده اليسرى وقال: «اللَّهم هذه عن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك».

---

(1) رواه ابن كثير في البداية والنهاية 4: 167.

ـ تخلفه عن غزوة بدر[1]:

تزوَّج عثمان ﷺ رقية بنت رسول الله بعد النبوة، وتوفيت عنده في أيام غزوة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وكان تأخره عن بدر لتمريضها بإذن رسول الله ﷺ، فجاء البشير بنصر المؤمنين يوم دفنوها بالمدينة، وضرب رسول الله لعثمان بسهمه وأجره في بدر فكان كمن شهدها، أي أنه معدود من البدريين.

ـ كراماته[2]:

عن نافع: أن جهجاهاً الغفاري تناول عصا عثمان وكسرها على ركبته فأخذته الأكلة (الأَكَلَة: الحكَّة) في رجله، وعن أبي قلابة، قال: كنت في رفقة بالشام سمعت صوت رجل يقول: يا ويلاه النار، وإذا رجل مقطوع اليدين والرجلين من الحقوين، أعمى العينين، منكباً لوجهه، فسألته عن حاله فقال: إني قد كنت ممن دخل على عثمان الدار، فلما دنوت منه صرخت زوجته فلطمتها فقال: «ما لك قطع الله يديك ورجليك وأعمى عينيك وأدخلك النار»، فأخذتني رعدة عظيمة وخرجت هارباً فأصابني ما ترى ولم يبق من دعائه إلا النار، قال: فقلت له بعداً لك وسحقاً، أخرجهما الملأ في سيرته، وعن مالك أنه قال: كان عثمان مرَّ بحش كوكب (حش كوكب: موقع إلى جانب بقيع الغرقد بالمدينة) فقال: إنه سيدفن هنا رجل صالح فكان أول من دفن فيه.

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 118 ـ 28.
(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 131.

ـ تجهيزه جيش العسرة[1]:

ندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج وأعلمهم المكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وأمر الناس بالصدقة، وحثهم على النفقة والحملان، فجاؤوا بصدقات كثيرة، فكان أول من جاء أبو بكر الصدِّيق ﷺ، فجاء بماله كله 40,4000 درهم فقال له ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً»؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر ﷺ بنصف ماله فسأله: «هل أبقيت لهم شيئاً»[2]؟ قال: نعم، نصف مالي. وجاء عبد الرحمن بن عوف ﷺ بمائتي أوقية، وتصدق عاصم بن عَدِيّ بسبعين وسقاً من تمر، وجهَّز عثمان ﷺ ثلث الجيش بتسعمائة وخمسين بعيراً وبخمسين فرساً. قال ابن إسحاق: أنفق عثمان ﷺ في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها. وقيل: جاء عثمان ﷺ بألف دينار في كمه حين جهز جيش العُسرة فنثرها في حجر رسول الله فقبلها في حجره وهو يقول: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم». وقال رسول الله: «من جهز جيش العُسرة فله الجنة».

ـ حفره بئر رومة[3]:

واشترى بئر رومة من اليهود بعشرين ألف درهم، وسبلها للمسلمين. كان رسول الله قد قال: «من حفر بئر رومة فله الجنة»[4].

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 121.
(2) رواه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق 1: 11.
(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 121.
(4) تذكرة الحفاظ ج 1، ص 9 ـ 30.

وهذه البئر في عقيق المدينة: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «نعم القليب قليب المُزَني»، وهي التي اشتراها عثمان بن عفان فتصدق بها. وروي عن موسى بن طلحة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نعم الحفير حفير المزني» ـ يعني رومة ـ، فلما سمع عثمان ذلك ابتاع نصفها بمائة بكرة وتصدق بها على المسلمين فجعل الناس يستقون منها. فلما رأى صاحبها أنه امتنع منه ما كان يصيب منها باعها من عثمان بشيء يسير فتصدق بها كلها.

ـ تحويل الساحل من الشعيبة إلى جدة:

في سنة 26 هـ كلَّم أهل مكة عثمان ﷺ أن يحول الساحل من الشُعَيْبة، وهي ساحل مكة قديماً في الجاهلية إلى ساحلها اليوم وهي جُدَّة لقربها من مكة. فخرج عثمان إلى جدة ورأى موضعها، وأمر بتحويل الساحل إليها ودخل البحر واغتسل فيه وقال: إنه مبارك، وقال لمن معه: ادخلوا البحر للاغتسال، ولا يدخل أحد إلا بمئزر، ثم خرج من جدة على طريق عسفان إلى المدينة، وترك الناس ساحل الشعيبة في ذلك الزمان واستمرت جدة بندراً إلى الآن لمكة المشرفة.

ـ كرمه:

كان لعثمان على طلحة خمسون ألفاً، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد فقال له طلحة: قد تهيأ مالك فاقبضه. قال: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك.

ـ بعض أحكامه:

استخف رجل بالعباس بن عبد المطلب، فضربه عثمان، فاستحسن منه ذلك وقال: أيفخم رسول الله عمه وأرخص في الاستخفاف به، لقد خالف رسول الله ﷺ من فعل ذلك ورضي به.

وحدث بين الناس النشو ـ السُكر ـ، فأرسل عثمان يطوف عليهم فمنعهم من ذلك، ثم اشتد ذلك فأفشى الحدود ونبّأ ذلك عثمان، وشكاه إلى الناس، فاجتمعوا على أن يجلدوا في التنفيذ فأخذ نفر منهم وجلدوا.

وبلغ عثمان أن ابن ذي الحبكة النهدي يعالج نيْرنجاً ـ نوع من السحر ـ قال محمد بن سلمة: إنما هو نيرنج، فأرسل إلى الوليد بن عقبة ليسأله عن ذلك فإن أقرَّ به أوجعه، فدعا به، فسأله، فقال: إنما هو رفق وأمر يعجب منه، فأمر، فعُزِّرَ، وأخبر الناس خبره وقرأ عليهم كتاب عثمان: «إنه قد جُدّ بكم فعليكم بالجدّ وإياكم والهزّال». فكان الناس عليه وتعجبوا من عثمان على وقوف مثل خبره فغضب، فنفر في الذين نفروا.

ـ فراسته:

دخل رجل على عثمان فقال له عثمان: يدخل عليّ أحدكم والزنا في عينيه، فقال الرجل: أَوَحْيٌ بعد رسول الله ﷺ؟! فقال: لا، ولكن فراسة صادقة.

ـ حَجُّه[1]:

حجَّ عثمان بالناس سنوات خلافته كلها إلا آخر حجة، وحجَّ بأزواج النبي ﷺ كما كان يصنع عمر.

ـ عثمان قبل الخلافة[2]:

كان عثمان ﷺ تاجراً غنياً، جميل الصورة. وقد بادر إلى الإسلام بناء على دعوة أبي بكر الصدّيق فزوَّجه رسول الله ﷺ رقية وهاجر بها إلى الحبشة، ثم زوَّجه أم كلثوم بعد وفاتها. وكان رسول الله ﷺ يثق به ويحبه ويكرمه لحيائه، ودماثة أخلاقه، وحسن عشرته، وما كان يبذله من المال لنصرة المسلمين، وبشره بالجنة كأبي بكر وعمر وعلي وبقية العشرة، وأخبره بأنه سيموت شهيداً.

وكان أحد كتّاب الوحي، لكن لم يكن له في الغزوات حظ كغيره من الصحابة مثل أبي بكر، وعمر، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وجعفر، وطلحة، وخالد بن الوليد، وغيرهم، فلم يرق دماً، ولم يبارز أحداً، ولم يخرج أميراً على جيش في إحدى السرايا، ولم يثبت في غزوة أحد مع رسول الله، واستخلفه رسول الله على المدينة في غزوته إلى ذات الرقاع وإلى غطفان، وكان محبوباً من قريش، وكان حليماً، رقيق العواطف، كثير الإحسان. وقد توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض. وروى عن

(1) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج 3، ص 70 ـ 35.
(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 5، ص 43.

رسول الله مائة وستة وأربعين حديثاً، وكانت العلاقة بيننا وبين أبي يكر وعمر وعليّ على أحسن ما يرام، ولم يكن من الخطباء حتى إنه قد ارتج عليه في أول خطبة خطبها، وكان أعلم الصحابة بالمناسك، حافظاً للقرآن، ولم يكن متقشفاً مثل عمر بل كان يأكل اللين من الطعام.

ـ خلافة عثمان (سنة 24 هـ/ 644م):

كانت مبايعة عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة 23 هـ، واستقبل الخلافة في المحرم سنة 24 هـ، وقيل لهذه السنة عام الرُّعاف، لأنه كثر فيها الرُّعاف ـ الرُّعاف: الدم يخرج من الأنف ـ [1].

وُلِّي عثمان الخلافة وعمره 68 عاماً ميلادياً، أو 70 عاماً هجرياً، أي أنه كان في سن الشيخوخة ـ جاء في تاريخ القرون الوسطى لجامعة «كمبردج»: «إن اختيار عثمان للخلافة تمَّ بعد تردد طويل، وذلك لأنه أضعف الستة وألينهم عريكة، وكان كلّ فيهم يؤمل أن يحكم بواسطته، ثم يخلفه، وهذا الاختيار كان كردّ فعل لخلافة عمر القوية الشديدة» ـ. وقد كان عمر ﷺ يخشى أن يميل الخليفة بعده إلى أقاربه، ويحابيهم، ويحرم ذوي الكفايات فتسوء الحال، فقال لعليّ: إن ولِّيت من أمر المؤمنين شيئاً فلا تحملن بني عبد المطلب على رقاب الناس. وقال لعثمان: يا عثمان إن ولِّيت من أمر المسلمين شيئاً فلا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس. وكذلك

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 589، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 2، ص 475، السيوطي، تاريخ الخلفاء ص 123، الذهبي، تاريخ الإسلام ج 3، ص 311.

قال لعبد الرحمن بن عوف: فإن كنت على شيء من أمر الناس يا عبد الرحمن فلا تحمل ذوي قرابتك على رقاب الناس.

أما أبو بكر ﷺ فإنه قال لما اختار عمر للخلافة: «أترضون بمن أستخلف عليكم فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا ولّيت ذا قرابة، وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوه»[1].

لما بويع عثمان خرج إلى الناس وأراد أن يخطبهم فأُرْتِجَ عليه، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيها الناس إن أول مركب صعب، وإن بعد اليوم أياماً، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها، وما كنا خطباء وسُيعَلّمنا الله»، لكنه خطبهم خطبة أخرى ذكرها الطبري[2].

«إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صُبّحتم أو مُسّيتم. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور. اعتبروا بمن مضى. ثم جدوا ولا تغفلوا، فإنه لا يغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً والذي هو خير فقال: **﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً**

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 352، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 2، ص 273.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 589.

﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ [الكهف: ٤٥] وهذه خطبة كما يراها القارئ في الزهد واحتقار الدنيا وعدم الركون إليها.

ـ قتله[1]:

قتل عثمان يوم الجمعة 18 ذي الحجة سنة 35 من الهجرة الموافق في أيار/مايو سنة 656 م بعد العصر، وكان يومئذٍ صائماً. قال ابن إسحاق: قتل عثمان على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً، واثنين وعشرين يوماً من مقتل عمر بن الخطاب، وعلى رأس خمس وعشرين من متوفى رسول الله ﷺ.

ـ دفنه[2]:

دفن في حش كوكب وقد كان اشتراه ووسع به البقيع، ليلة السبت بين المغرب والعشاء فصلّى عليه جبير بن مطعم.

ـ صدقاته:

عن ابن عباس قال: قحط الناس في زمان أبي بكر. فقال أبو بكر: لا تمسون حتى يفرج الله عنكم. فلما كان من الغد جاء البشير إليه قال: لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برًّا وطعاماً قال: فغدا التجار على عثمان، فقرعوا عليه الباب، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه. فقال لهم: ما تريدون؟

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 689، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 3، ص 58، وفي الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 690 ـ 691.

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج 2، ص 688، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 3، ص 69.

قالوا: قد بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برّاً وطعاماً. بعنا حتى نوسع به على فقراء المدينة، فقال لهم عثمان: ادخلوا، فدخلوا، فإذا ألف وقر قد صدت في دار عثمان فقال لهم: كم تربحوني على شرائي من الشام؟ قالوا: العشرة اثني عشر. قال: قد زادوني. قالوا: العشرة أربعة عشر. قال: قد زادوني. قالوا: العشرة خمسة عشر. قال: قد زادوني قالوا: من زادك ونحن تجار المدينة؟ قال: زادوني بكل درهم عشرة. هل عندكم زيادة؟ قالوا: لا. قال: فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة.

ـ خوفه:

كان لعثمان عبد فقال له: إني كنت عركت أذنك فاقتص مني، فأخذ بأذنه ثم قال عثمان: أشدد، يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة. وروي عنه أنه قال: «لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

ـ ثناء عليٍّ عليه:

قال عليٌّ ﷺ: كان عثمان أوصلنا للرحم وأتقانا للرب. وقال ﷺ: أنا وطلحة والزبير وعثمان كما قال الله تعالى: **﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾** [الحجر: ٤٧]. وسأله سائل عن عثمان بعد قتله فقال له: إن عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين.

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام
(600 ـ 661م)

ـ ميلاده عليه السلام:

ولد عليه السلام بمكّة في البيت الحرام يوم الجمعة الثالث عشر من شهر الله الأصم رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة، ولم يولد قطّ في بيت الله تعالى مولود سواه لا قبله ولا بعده، وهذه فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً لمكانته ومنزلته وإعلاءً لرتبته.

أمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وكانت من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بمنزلة الأم، وربّي في حجرها، وكانت من سابقات المؤمنات إلى الإيمان، وهاجرت معه إلى المدينة، وكفّنها النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عند موتها بقميصه ليدرأ به عنها هوامّ القبر، وتوسّد في قبرها لتأمن بذلك من ضغطة القبر، ولقّنها الإقرار بولاية ابنها كما اشتهرت به الرواية.

فكان أمير المؤمنين عليه السلام هاشمياً من هاشميّين[1].

(1) أنظر: الكافي ج1، ص 376 و377، وإرشاد المفيد ج1، ص 5.

- **أسماؤه وألقابه عليه السلام:**

أسماؤه في كتب الله تعالى المنزّلة كثيرة، وكنيته المشهورة أبو الحسن، وقد كنّي أيضاً: بأبي الحسين، وأبي السبطين، وأبي الريحانتين.

وكنّاه رسول الله صلى الله عليه وآله أبي تراب لما رآه ساجداً معفراً وجهه في التراب[1].

ولقبه أمير المؤمنين، خصّه به النبيّ صلى الله عليه وآله لما قال: «سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين»[2].

ولم يُجز أن يطلق هذا اللفظ لغيره من الأئمة عليهم السلام وقيل: إنّه انفرد بهذا التلقيب فلا يجوز أن يشاركه في ذلك غيره.

وقد لقّبه رسول الله صلى الله عليه وآله: سيّد المسلمين، وإمام المتّقين، وقائد الغرّ المحجّلين، وسيّد الأوصياء، وسيّد العرب[3]، وتوجد أمثال في هذه كثيرة.

وهو عليه السلام أخو رسول الله صلى الله عليه وآله، ووزيره، ووصيّه، وخليفته في أمّته، وصهره على ابنته الزهراء البتول فاطمة سيّدة نساء العالمين، وهو المرتضى، ويعسوب المؤمنين.

---

(1) انظر: مسند أحمد، ج 4، ص 263، ومستدرك الحاكم ج3، ص 140.
(2) الكافي، ج1، ص 231، وعيون أخبار الرضا ع ج2، ص 68.
(3) أنظر: أمالي الصدوق، ص 19. وبشارة المصطفى، ص 18 و165.

ـ وفاته، ومدة خلافته، وتاريخ عمره عليه السلام:

وقبض عليه السلام ليلة الجمعة لتسع بقين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة قتيلاً شهيداً، قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي وقد خرج لصلاة الفجر ليلة تسعة عشر من شهر رمضان وهو ينادي «الصلاة الصلاة» في المسجد الأعظم بالكوفة، فضربه بالسيف على أمّ رأسه، وقد كان ارتصده من أول الليل لذلك، وكان سيفه مسموماً. فمكث عليه السلام يوم التاسع عشر وليلة العشرين ويومها وليلة الحادي والعشرين إلى نحو الثلث من الليل ثم قضى نحبه عليه السلام[1]، وقد كان يعلم ذلك قبل أوانه ويخبر به الناس قبل أيّانه.

فقد اشتهر في الرواية: أنه عليه السلام كان لما دخل شهر رمضان يتعشّى ليلة عند الحسن عليه السلام، وليلة عند الحسين عليه السلام، وليلة عند عبد الله بن العبّاس، والأصحّ عبد الله بن جعفر، وكان لا يزيد على ثلاث لقم، فقيل له في ذلك فقال: «يأتيني أمر ربي وأنا خميص، إنما هي ليلة أو ليلتان»، فأصيب عليه السلام في آخر تلك الليلة[2].

وروى أصبغ بن نباتة قال: خطبنا أمير المؤمنين عليه السلام في الشهر الذي قتل فيه فقال: «أتاكم شهر رمضان، وهو سيّد الشهور وأول السنة، وفيه تدور رحى السلطان، ألا وإنكم حاجّوا العام صفّاً

---

(1) أنظر: الكافي ج1 ص 376، وإرشاد المفيد، ج1 ص 19، كشف الغمة ج1 ص 436، وإثبات الوصية للمسعودي ص 132، مناقب الخوارزمي، ص 284، وذخائر العقبى ص 115، والفصول المهمة ص 138و 139.

(2) إرشاد المفيد، ج1 ص 14، روضة الواعضين ص 135، الخرائج والجرائح ج1 ص 201، مناقب ابن شهر آشوب ج2 ص 271، مناقب الخوارزمي ص 283، الكامل في التاريخ ج3 ص 388، أسد الغابة ج4 ص 35، الفصول المهمة ص 139.

واحداً، وآية ذلك أني لست فيكم» قال: فهو ينعي نفسه عليه السلام ونحن لا ندري[1].

وروى عنه جماعة أنه كان يقول على المنبر: «ما يمنع أشقاها أني خضبها من فوقها بدم» ويضع يده على شيبته عليه السلام.

وروي أنه كان يقول: «واللهّ ليخضبن هذه من هذه» ويضع يده على رأسه ولحيته عليه السلام[2].

وروي عن أبي صالح الحنفيّ قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: «رأيت النبي صلى الله عليه وآله في منامي فشكوت إليه ما لقيت من أمّته من الأود واللدد وبكيت فقال: «لا تبك يا عليّ، والتفت فالتفتّ فإذا رجلان مصفدان، وإذا جلاميد[3]، ترضخ بها رؤوسهما».

قال أبو صالح: فغدوت إليه من الغد فلقيت الناس يقولون: قُتل أمير المؤمنين عليه السلام[4].

وروى الحسن البصري قال: سهر أمير المؤمنين عليه السلام في الليلة التي قتل في صبيحتها ولم يخرج إلى المسجد لصلاة الليل على عادته، فقالت له ابنته أمّ كلثوم: ما هذا الذي قد أسهرك؟ فقال: «إنّي مقتول لو قد أصبحت».

---

(1) إرشاد المفيد ج1 ص 14، روضة الواعظين ص 135، الخرائج والجرائح ج1 ص 201.

(2) إرشاد المفيد ج1 ص 13. أمالي الطوسي ج1 ص 273، الخرائج والجرائح ج1 ص 201، تاريخ بغداد ج12 ص 57، ونحوه في مسند أبي يعلى الموصلي ص 378.

(3) الجلمود الصخر. «الصحاح - جلمد - ج2 ص 459».

(4) إرشاد المفيد ج1 ص 15، مناقب ابن شهر آشوب ج3 ص 211، مسند أبي يعلى الموصلي ج1 ص 398 - 520، مجمع الزوائد ج9 ص 138، ونحوه في مقاتل الطالبيين ص 40.

وأتاه ابن النباح فآذنه بالصلاة، فمشى غير بعيد ثم رجع فقالت له أم كلثوم: مُر جعدة فليصلّ بالناس، قال: «نعم مروا جعدة ليصلّي»، ثم قال: «لا مفرّ من الأجل» فخرج إلى المسجد، فإذا هو بالرجل قد سهر ليلته كلها يرصده، فلقي برد السحر نام، فحركه أمير المؤمنين عليه السلام برجله وقال له: «الصلاة»، فقام إليه فضربه[1].

وروي في حديث آخر: أنه عليه السلام سهر في تلك الليلة، وكان يكثر الخروج والنظر إلى السماء وهو يقول: «والله ما كذبت ولا كذبت وإنها الليلة التي وعدت بها» ثم يعاود مضجعه، فلما طلع الفجر شد إزاره وخرج وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت آتيك، ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك

فلما خرج إلى صحن الدار استقبلنه الإوزّ فصحن في وجهه، فجعلوا يطردونهن، فقال: «دعوهن فإنهن صوائح تتبعها نوائح» ثم خرج فأصيب عليه السلام[2].

«وكان سنه يوم استشهد ثلاثاً وستين سنة، وكان مقامه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثاً وثلاثين سنة، عشر منها قبل البعثة، وأسلم وهو ابن عشر سنين[3]، فقد صحت الرواية عن

(1) إرشاد المفيد ج1 ص 16، روضة الواعظين ص 135، مناقب ابن شهر آشوب ج3 ص 310، ودون ذيله في خصائص الرضي ص 63.
(2) خصائص الرضي ص 63، إرشاد المفيد ج1 ص 16، روضة الواعظين ص 35، مناقب ابن شهر آشوب ج3، ص 310 كشف الغمة ج1 ص 436.
(3) أنظر: الكافي 1: 376، تاج المواليد (ضمن مجموعة نفيسة): 90، مناقب ابن شهر آشوب 3: 307، مناقب الخوارزمي: 284.

حبة العرني عنه عليه السلام قال: «بُعث النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين فأسلمت يوم الثلاثاء»[1]، وبعد البعثة بمكّة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة بعد الهجرة عشر سنين، وعاش بعد ما قبض النبيّ صلى الله عليه وآله ثلاثين سنة إلا خمسة أشهر وأياماً، وتولّى غسله وتكفينه ابناه الحسن والحسين بأمره، وحملاه إلى الغريّين من نجف الكوفة ودفناه هناك ليلاً، وعمّيا موضع قبره بوصيّته إليهما في ذلك لما كان يعلم من دولة بني أمية من بعده وإنهم لا ينتهون عما يقدرون عليه من قبيح الأفعال ولئيم الخلال، فلم يزل قبره مخفيّاً حتّى دلّ عليه الصادق عليه السلام في الدولة العباسية وزاره عند وروده إلى أبي جعفر وهو بالحيرة[2].

ـ في أخلاقه وسيرته:

دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية فقال له معاوية: صف لي علياً، قال: أعفني، قال: لتصفنَّه، قال: أما إذا كان لا بد من وصفه فإنه كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلاً ويحكم عدلاً يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته وكان غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب وكان فينا كأحدنا يدنينا إذا أتيناه

---

(1) تفسير القمي 1: 378 مسند أبي يعلى 1: 348 ـ 446، الأوائل لأبي هلال العسكري 91، مستدرك الحاكم 3: 112 عن أنس بن مالك، ووافقه الذهبي في ذيل المستدرك.

(2) إرشاد المفيد 1: 9، تاج المواليد (ضمن مجموعة نفيسة): 90 و 93، مناقب ابن شهر آشوب 3: 307.

ويجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه وينبئنا إذا استنبأناه ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين ويقرب المساكين لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين فكأني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا يتضرع إليه ثم يقول: يا دنيا غري غيري إلي تعرضت أم إلي تشوفت هيهات هيهات قد أبَنتك ثلاثاً لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك كبير وعيشك حقير آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

فبكى معاوية ووكفت دموعه على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها بحجرها فهي لا ترقى عبرتها ولا يسكن حزنها، ثم خرج.

وقال ابن عبد البر في كتاب «الاستيعاب» «قد أجمعوا على أنه صلى القبلتين وهاجر وشهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد وأنه أبلى ببدر وبأحد وبالخندق وبخيبر بلاءً عظيماً وأنه أغنى في تلك المشاهد وقام فيها المقام الكريم وكان لواء رسول الله ﷺ بيده في مواطن كثيرة وكان يوم بدر بيده على اختلاف ولما قتل مصعب بن عمير يوم أحد وكان اللواء بيده دفعه رسول الله ﷺ إلى علي ولم يتخلف عن مشهد شهده رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة إلا تبوك

فإنه خلفه على المدينة وعلى عياله بعده وقال له «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

وقال له رسول الله ﷺ أنت وليي في كل مؤمن بعدي وأنت ولي كل مؤمن بعدي ومؤمنة وسد أبواب المسجد غير باب علي عليه السلام، وقال من كنت مولاه فإن مولاه علي. وعن ابن عباس أن علياً كان يقول في حياة رسول الله ﷺ إن الله تعالى يقول **﴿أفإِين مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم﴾** والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت والله إني لأخوه ووليه ووارثه وابن عمه فمن أحق به مني. وعن نافع بن عجير عن علي عليه السلام قال النبي ﷺ يا علي أنت صفيي وأميني. وعن علي عليه السلام مرضت فعادني رسول الله ﷺ فدخل علي وأنا مضطجع فاتكأ إلى جنبي ثم سجاني (غطاني) بثوبه فلما رآني قد برئت قام إلى المسجد يصلي فلما قضى صلاته جاء فرفع الثوب وقال قم يا علي فقمت وقد برئت كأنما لم أشك شيئاً قبل ذلك فقال ما سألت ربي شيئاً في صلاتي إلا أعطاني وما سألت لنفسي شيئاً إلا سألت لك مثله. وعن القاسم بن زكريا بن دينار قال لي علي وجعت وجعاً فأتيت رسول الله ﷺ فأقامني في مكانه وقام يصلي وألقى علي طرف ثوبه ثم قال قم يا علي قد برئت لا بأس عليك وما دعوت لنفسي بشيء إلا دعوت لك بمثله وما دعوت بشيء إلا استجيب لي أو قال قد أعطيت إلا أنه قيل لي لا نبي بعدي. وبسنده عن علي عليه السلام في حديث قال دعا لي رسول الله ﷺ بدعوات ما يسرني ما على الأرض بشيء منهن.

ـ المدينة في خلافة علي بن أبي طالب: (36 ـ 40 هـ)

تولى علي بن أبي طالب عليه السلام الخلافة سنة 36 للهجرة بعد استشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (ره)، وكان همه الأول إعادة الأمن والطمأنينة إلى المدينة والقضاء على جذور الفتنة فيها، ثم في الأمصار التي انطلقت منها، واستطاع إخراج المتآمرين منها، وأبعد الأعراب الذين حاولوا أن يستغلوا ظروف الفتنة فزحفوا إلى ضواحي المدينة. وانتظم الأمن، وبدأ بمعالجة شؤون الأمصار فعزل الولاة الذين ثارت حولهم الشائعات واستغلها أصحاب الفتنة وأرسل ولاة آخرين. ولكن الفتنة انتقلت من المدينة إلى خارجها، فقد طالب بعض الصحابة ـ وعلى رأسهم السيدة عائشة (ره) ـ بالقصاص من القتلة وكانت قد خرجت من المدينة للحج قبل استشهاد عثمان، فلما بلغها استشهاده توجهت إلى العراق مع جمع من الصحابة، ورفض معاوية بيعة علي وردّ واليه على الشام ورفع شعار الثأر لعثمان، فاضطر علي عليه السلام للخروج بمن تطوع معه لوقف انتشار الفتنة وتوجه للجمع الذي رافق السيدة عائشة ضا لإقناعهم بالعودة إلى المدينة، ولكن بعضهم استطاع أن يثير القتال بين رجال علي عليه السلام والجماعة المحيطة بالسيدة عائشة، وقتل عدد من الصحابة حول الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة، واستطاع علي عليه السلام ورجاله أن يضبطوا الأمور وينهوا القتال، وعادت السيدة عائشة ومرافقوها إلى المدينة معززة مكرمة، ولكن علياً وجيشه لم يعودوا بل توجهوا إلى الكوفة ونزلوا فيها يعدون لمواجهة الخلاف مع معاوية، واستخلف على المدينة سهل بن حنيف الأنصاري فبدأ الهدوء يخيم على الحياة في المدينة وبدأت تبتعد عن

الأحداث الكبيرة التي تجري في العراق والشام، ولكن عدداً من أبنائها كانوا مع علي عليه السلام في الكوفة وفي صفين وفي التحكيم بينه وبين معاوية. وتوقف النزوح إليها وباستثناء من بقي من أهلها والوافدين لزيارة المسجد النبوي لم يعد يقصد المدينة أحد، وتقلص عدد سكانها وتقلصت الحركة الإقتصادية فيها تبعاً لذلك.

وفي عام 38 هـ توفي سهل بن حنيف أمير المدينة فولى علي أبا أيوب الأنصاري، وكان متقدماً في السن وديعاً فحافظ على سيرة خلفه، وقل عدد القوافل القادمة فازداد الاهتمام بالزراعة لتأمين الحاجة الأولية للغذاء، وعندما انشغل علي بقتال الخوارج في العراق أرسل معاوية جيشاً إلى المدينة بقيادة بسر بن أرطأة فتركها أبو أيوب ودخل الجيش سلماً وأخذ البيعة لمعاوية، ولكن بسر بن أرطأة نقض الأمان لمن اتهموا بمظاهرة الخارجين على عثمان وقتل من وصل إليهم وهدم دورهم. ثم خرج من المدينة بجيشه واستخلف عليها أبا هريرة فعاد أبو هريرة بالناس إلى حياة الطمأنينة ودروس المسجد النبوي، وابتعد بالناس عن الفتنة. ثم جاء جيش لعلي بن أبي طالب عليه السلام بقيادة جارية بن قدامة. فترك أبو هريرة المدينة. ووصل جارية مع وصول خبر استشهاد علي بن أبي طالب في الكوفة فأخذ البيعة لابنه الحسن عليه السلام ثم خرج ليلحق بالحسن، وعاد أبو هريرة فأحسن الناس استقباله، وواصل سيرته القويمة فيهم، وعاش أهل المدينة تلك الفترة حياتهم بين مشاغلهم اليومية، وحلقات العلم في المسجد النبوي. وما لبثت الفتنة أن خمدت عندما تنازل الحسن بن علي عليه السلام عن الخلافة لمعاوية، وعاد بمن معه من أهل المدينة إليها، وتحولت المدينة إلى مدينة هادئة،

وصارت إمارة من إمارات الدولة الأموية الجديدة.

ـ الإمام عليّ عليه السلام بين فكّي التاريخ:

مما لا شك فيه أن الإمام عليّ عليه السلام لاقى الويلات أثناء حكمه من جميع الأطراف. وقد استطاع بما عُرف عنه من كرم وشجاعة الاستمرار والثبوت.

لكنّ أهل العراق خذلوه، والخوارج اغتالوه. فاتجهت عجلة التاريخ اتجاهاً لم يكن يرغبه الإمام الذي سار إلى موقعة الجمل وصفين محاولاً إحقاق الحق وتوحيد صفوف المسلمين، لكنه أخفق، بعد أن لم يستطع حسم المعركة ضد معاوية.

وهناك الكثير من الباحثين العرب والمستشرقين الذين يتهمون الإمام علي عليه السلام بأنه لم يكن رجل سياسة ناجحاً، وأنه أكثر من الأخطاء وخاصة عندما عزل معاوية بن أبي سفيان، والي الشام منذ زمن عثمان بن عفّان.

لكننا حين نقلّب صفحات التاريخ نستطيع أن نقول إن الإمام عليّاً عليه السلام كان رجل دولة وإنساناً ذكياً وشجاعاً، وإلاّ فكيف نفسّر أن الخلفاء الراشدين عمر وأبا بكر وعثمان رضي الله عنهم كانوا يعودون إليه ويحكّمونه في العديد من الأمور. فكان عليه السلام يقضي بين الناس زمن عمر بن الخطاب. وكان عمر إذا خرج من المدينة استحلف عليها علياً عليه السلام[1].

كما أن صفاته عليه السلام تدلنا على مدى قوته الجسدية والنفسية،

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج2 ص 452، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج2 ص 350.

فهو يميل إلى القصر، آدم، أصلع مبيض الرأس، طويل الرقبة، ثقيل العينين في دعج وسعة، حسن الوجه، واضح البشاشة، عريض المنكبين لهما مشاش، ضخم العضلة، ضخم الذراع، تمتّع بقوة بالغة، فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد. وقد اشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلا صرعه ولم يبارز أحداً إلا قتله.

وكان عليه السلام لا يهاب الموت. فقد اجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن ورد فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بألف رجل. وكان ذلك يوم وقعة الخندق أو الأحزاب، حين خرج عمرو مقنعاً بالحديد ينادي جيش المسلمين: «من يبارز؟» فصاح علي عليه السلام: «أنا يا رسول الله» فقال له الرسول «اجلس إنه عمرو»، وفي النهاية أذن له الرسول، فنظر إليه عمرو فاستصغره، لكنّ علياً قتله.

ـ التحكيم:

اجتمع الحكمان بدومة الجندل، التي وقع عليها الاختيار لكونها وسطاً بين العراق والشام. وقد مثّل الإمام علياً أبو موسى الأشعري الذي كان شيخاً طاعناً في السن، أما معاوية فمثّله عمرو بن العاص الملقب بثعلب العرب.

وكان القرار معروفاً لمن عرف الحكمين، فأبو موسى الأشعري أراد حقن دماء المسلمين ووقف القتال، لذا رأى أنه يجب عزل علي ومعاوية. ويرجع هذا القرار لعمرو بن العاص الذي أقنع أبا موسى الأشعري بذلك، والذي لجأ إلى هذه الحيلة لإرضاء صاحبه معاوية.

أراد أبو موسى الأشعري تولية عبد الله بن عمر خليفة، وأراد عمرو بن العاص تولية ابنه عبد الله. وكاد أبو موسى الأشعريّ يوافقه ولذا قررا خلع الاثنين دون الإتفاق على غيرهما.

تقدّم أبو موسى الأشعري وقال: «نخلع علياً ومعاوية ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولّوا منهم من أحبّوا عليهم. وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً».

وتلاه عمرو فقال: «... إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، واثبّت صاحبي معاوية فإنّه وليّ عثمان بن عفّان ض، والمطالب بدمه أحقّ الناس بمقامه».

فغضب أبو موسى وصاح به: «ما لك لا وفّقك الله غدرتَ وفجرت؟ إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث».

فابتسم عمرو بن العاص وهو يقول: «إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً».

ـ استشهاد الإمام عليّ عليه السلام 661م:

اجتمع ثلاثة رجال من الخوارج واتّفقوا على قتل عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص. وقد أخذ عبد الرحمن بن ملجم على عاتقه قتل عليّ.

دخل بن ملجم المسجد في بزوغ الفجر وجعل يكرر الآية: «ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله»، فأقبل عليّ عليه السلام وظنّ أن الرجل ينسى نفسه فيها، فقال: «والله رؤوف بالعباد»

ثم انصرف عليّ عليه السلام ناحية عبد الرحمن بن ملجم، وعندها ضربه بالسيف المسموم على رأسه. فقال علي عليه السلام: «أحبسوه ثلاثاً وأطعموه واسقوه، فإن أعش أرَ فيه رأيي، وإن متّ فاقتلوه ولا تمثّلوا به». لكنّ الإمام عليّ عليه السلام مات من الضربة، فأخذه عبد الله بن جعفر فقطع يديه ورجليه ثم قطع لسانه وضرب عنقه.

أما الخارجي الثاني الحرث بن عبد الله التميمي الذي أخذ على عاتقه قتل معاوية، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً.

أما الخارجي الثالث عمرو بن بكير التميمي فنوى قتل عمرو بن العاص لكن لسوء حظه وحسن حظ عمرو بن العاص، أنه أرسل مكانه للصلاة رجلاً يقال له خارج فضربه الخارجي وقتله.

قال الحسن عليه السلام صبيحة تلك الليلة: أيها الناس أنه قتل فيكم رجل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا ينثني حتى يفتح الله له. وما ترك إلا ثلاثمائة درهم.

وها نحن نرى كيف تتجلى عظمة الرجل حتى وهو يموت، وذلك من خلال معاملته لقاتله، الذي ضربه بالسيف في المسجد في شهر رمضان... فهو يأمر قبل موته بأن يتم سجن القاتل، فإذا مات فليقتل على أن لا يُمَثَّل به. ورغم كونه خليفة، وهو الذي يدير شؤون الدولة الإسلامية إلا أنه عاش فقيراً ومات فقيراً، ولم يترك إلا ثلاثمائة درهم.

وأروع ما ترك لنا الإمام علي عليه السلام عدا سيرته الطيبة كتاب «نهج البلاغة» الذي جمعه الشريف الرضي. وإن نظرة سريعة للكتاب تكشف شخصية الإمام عليّ الفذّة، صاحب الخيال الواسع والإيمان

الراسخ بالله تعالى، الذي يحمل الرأي السديد في الدين والإجتماع.
ومن روائع الإمام عليّ عليه السلام خطبة الجهاد المعروفة.

ـ قصة عن شجاعة الإمام عليّ:

ونورد فيما يلي هذه القصة التي تدلّ على شجاعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ومهابة الفرسان منه.

في معركة صفين، وبينما كان القتال على أشدّه بين جيش عليّ وجيش معاوية، كان لمعاوية مولى يدعى حريث، وكان حريث هذا فارس معاوية الذي يعدّه لكل مبارزة ولكل عظيم. وكان حريث يلبس سلاح معاوية، متشبهاً به، فإذا قاتل قال الناس ذاك معاوية.

وقد دعاه معاوية في معركة صفين وقال له: يا حريث.. ضع رمحك حيث شئت، لكن اتَّقِ علياً.

ولكنّ عمرو بن العاص المعروف بمكره قال له: لو كنت قريشياً لأحبّ معاوية أن تقتل علياً ولكنه كره أن يكون لك حظها، فإن رأيت فرصة فأقدِم...

وخرج علي عليه السلام أمام الخيل وحمل عليه حريث فنادى: يا عليّ هل لك في المبارزة؟ فأقدم عليّ وهو يقول:

أنا عليّ وابن عبد المطَّلِبْ ... نحن لعمر الله أولى بالكُتُبْ
منا النبيّ المصطفى غير كذبْ ... أهل اللواء والمقام والحُجُبْ
نحن نصرناه على جلّ العربْ ... يا أيها العبد الضرير المنتدَبْ

ثم ضربه عليّ عليه السلام فقتله فجزع عليه معاوية وعاتب عمرو بن العاص وقال له:

حُريثُ ألَمْ تعلمْ وجهلُكَ ضائرُ ... بأنّ عليّاً للفوارسِ قاهِرُ
وإنّ عليّاً لم يبارزه فارسٌ ... من الناس إلا أقعدته الأظافر
أمرتك أمراً حازماً فعصيتني ... فجدّك إذ لم تقبل النصحَ عاثر
ودلاّك عمرو والحوادث جمّة ... غروراً وما جرّت عليك المقادِر
وظنّ حريث أنّ عمرواً نصيحَهُ ... وقد يهلك الإنسان من لا يحاذر

ـ من أقواله المأثورة:

1 ـ لا رأي لمن لا يطاع.

2 ـ القناعة كنز لا يفنى.

3 ـ ليس كلّ من رمى أصاب.

4 ـ التواضع نعمة لا يفطن إليها الحاسد.

5 ـ لا قرين كحسن الخلق.

6 ـ لا علم كالتفكير.

7 ـ لا ميراث كالأدب.

8 ـ لا إيمان كالحياء والصبر.

9 ـ الناس أعداء ما جهلوا.

10 ـ لا تطلب الحياة لتأكل، بل أطلب الأكل لتحيا.

الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام
(624 ـ 669)

إذا كانت الأمم الحية تعتني بحياة عظمائها وكبارها، تقيم لهم التماثيل، وتشيد لهم النصب التذكارية، تدرّس حياتهم للأجيال، لأنها ترى في ذلك دعماً لحضارتها، وتشييداً لدعوتها، فجدير بالأمة الإسلامية أن تدرّس حياة أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، وتبحث عن آثارهم، وتنقب عن أخبارهم، لتأخذ من علمهم وأعمالهم وسيرهم نموذجاً حياً يوصلها إلى الرقي والسعادة، ويحقق لها الخير المنشود، ليعود لواؤها يخفق على العالم من جديد.

ـ سيرته:

هو ثاني أئمة أهل البيت الطاهر وأول السبطين سيديّ شباب أهل الجنة ريحانتيّ المصطفى وأحد الخمسة أصحاب الكساء.

ـ مولده:

أصح ما قيل في ولادته عليه السلام أنه ولد بالمدينة في النصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وكان والده علي بن

أبى طالب عليه السلام قد بني بفاطمة عليها السلام في ذي الحجة من السنة الثانية من الهجرة وكان الحسن عليه السلام أول أولادهما. وروى الدولابي في كتابه المسمى «كتاب الذرية الطاهرة»: تزوج علي فاطمة عليها السلام فولدت له حسناً بعد أُحد بسنتين وكان بين وقعة أحد وبين مقدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة سنتان وستة أشهر ونصف، فولادته لأربع سنين وستة أشهر ونصف من التاريخ وبين أحد وبدر سنة ونصف، فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: اللّهم إني أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم، وأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، وسمّاه حسناً، وعقّ عنه كبشاً.

ـ وفاته:

وفي وفاته عليه السلام أنه قبض بالمدينة لليلتين بقيتا من صفر سنة خمسين من الهجرة (669م). وكان بذل معاوية لجعدة بنت محمد بن الأشعث الكندي وهي ابنة أم فروة أخت أبي بكر بن أبي قحافة عشرة آلاف دينار وإقطاع عشرة ضياع من سقي سوراء وسواد الكوفة على أن تسُمّ الحسن عليه السلام، وتولى الحسين عليه السلام تغسيله وتكفينه ودفنه وقبره بالبقيع عند جدته فاطمة بنت أسد عليها السلام بوصية منه، ولما مات الحسن عليه السلام ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت، وقيل أن زوجاته خرجن خلف جنازته حافيات.

قال كمال الدين: مرض الحسن عليه السلام أربعين يوماً ثم مات، وقال المفيد رحمه الله لما أراد معاوية أخذ البيعة ليزيد دس إلى جعدة بنت الأشعث وكانت زوجة الحسن بن علي عليه السلام من حملها على سمه وضمن لها أن يزوجها بابنه يزيد فأرسل إليها مائة ألف

درهم فسقته جعدة السم وبقي عليه السلام أربعين يوماً مريضاً، ومضى لسبيله في صفر سنة خمسين للهجرة، وتولى أخوه ووصيه الحسين بن علي عليهما السلام غسله وتكفينه ودفنه في البقيع عند جدته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف عليهما السلام.

هدم الوهابيون قبره في الثامن من شوال سنة 1344هـ، وقبور بقية الأئمة عليهم السلام.

ـ عمره:

عاش عليه السلام مع جده سبع سنين وشهراً، وقيل ثمان سنين، ومع أبيه ثلاثين سنة وبعده تسع سنين وقالوا عشراً وظل مظلوماً ومات مسموماً وقبض بالمدينة وكان عمره الشريف سبعة وأربعون سنة وأشهر وقيل ثمان وأربعون.

ـ إمامته:

كان مقامه مع جده سبع سنين ومع أبيه بعد جده ثلاثين سنة وبعد أبيه أيام إمامته عشر سنين. وقال الحسن عليه السلام: لما حضرت أبي الوفاة أقبل يوصي فقال: هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب عليه السلام أخو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابن عمه وصاحبه وأول وصيتي أني أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسوله وخيرته اختاره بعلمه وارتضاه بخيرته وأن الله باعث من في القبور وسائل الناس عن أعمالهم عالم بما في الصدور، ثم إني أوصيك يا حسن وكفى بك وصياً بما وصاني به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا كان يا بني فالزم بيتك وابك على خطيئتك ولا تكن الدنيا أكبر همك... الخ، ولما

قبض عليه السلام خطب الناس الحسن بن علي عليه السلام وذكر حقه فبايعه أصحاب أبيه عليه السلام وكانت خلافته عشر سنين. لازم أباه أمير المؤمنين عليه السلام طيلة حياته، وشهد معه حروبه الثلاث: الجمل، صفين، النهروان. بويع بالخلافة في الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة 40 هـ. صالح معاوية في النصف من جمادى الأولى سنة 41 هـ، بعد أن تبين الوهن في أصحابه.

ـ صفته:

كان عليه السلام أبيض البشرة، مشرباً بحمرة، أدعج العينين، سهل الخدين، رقيق المشربة، كث اللحية، ذا وفرة، وكأن عنقه إبريق فضة، عظيم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين، ربعة، ليس بالطويل ولا القصير، مليحاً، من أحسن الناس وجهاً، وكان يخضب بالسواد، وكان جعد الشعر، حسن البدن.

ـ ألقابه:

ومن ألقابه السيد، السبط، الأمير، الحجة، البر، التقي، الأثير، الزكي، المجتبى، الأول، الزاهد، وسماه الله تعالى الحسن وسماه في التوراة شبراً وكنيته أبو محمد وأبو القاسم. نقش خاتمه: العزة لله وحده.

ـ أصحابه:

وأصحابه عليه السلام هم نفس أصحاب أبيه علي عليه السلام، وبوابه قيس بن ورقاء المعروف بسفينة ورشيد الهجري ويقال ميثم التمار.

ـ **أبوه:**

أبوه هو أمير المؤمنين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لوي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن الهميسع بن أشعب بن أيمن بن نبت بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وهو سيد شباب الجنة.

ـ **أمه:**

أمه سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين والبتول المعصومة والمظلومة حقها أم أبيها أم الحسنين بضعة المصطفى فاطمة الزهراء بنت محمد بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة عليهم أفضل الصلاة والسلام الطاهرة المطهرة أم الأئمة الأطهار.

ـ **زوجاته:**

في موضوع زوجاته عليه السلام مواضيع شتى ومختلفة وقيل أنه تزوج سبعين حرة، وملك مائة وستين أمة في سائر عمره، وأما زوجاته أم أولاده ـ أم ولد خولة بنت منظور الفزارية، وأم بشير بنت أبي مسعود الأنصاري الخزرجية، جعدة بنت الأشعث، هند بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وأم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميمي، وأم عبد الله وأم سلمة ورقية.

- أولاده:

في كشف الغمة قال كمال الدين: كان الحسن عليه السلام له من الأولاد عدداً لم يكن لكلهم عقب بل كان العقب لإثنين منهم فقيل كانوا ثلاثة عشر وهذه أسماؤهم: الحسن، زيد، عمرو، الحسين، طلحة، عبد الرحمن، عبد الله، إسماعيل، محمد، يعقوب، جعفر، أبو بكر، والقاسم.

وكان العقب منهم للحسن ولزيد وقيل كان له أولاد أقل من ذلك وقيل كان له بنت تسمى أم الحسن، وقال ابن الخشاب: ولد له أحد عشر ولداً وبنت والأولاد كما ذكر سابقاً بالإضافة إلى الحسين، عقيل، أم الحسن فاطمة وهي أم محمد الباقر عليه السلام. أما الشيخ المفيد (ق.س) في إرشاده قال: أولاد الحسن بن علي خمسة عشر ولداً ذكراً وأنثى وهم - زيد بن الحسن وأختاه أم الحسن وأم الحسين أمهم أم بشير بنت أبي مسعود عقبة بن عمرو بن ثعلبة الحزرجية والحسن بن الحسن أمه خولة بنت منظور الفزارية وعمرو وأخواه القاسم وعبد الله بن الحسن أمهم أم ولد وعبد الرحمن بن الحسن أمه أم ولد والحسين بن الحسن الملقب بالأثرم وأخوه طلحة بن الحسن وأختهما فاطمة بنت الحسن أمهم أم إسحق بنت طلحة بن عبد الله التميمي وأم عبد الله وفاطمة وأم سلمة ورقية بنات الحسن عليه السلام لأمهات شتى وقتل مع الحسين عليه السلام من أولاده عبد الله والقاسم وأبو بكر.

وضّاح اليمن

(... ـ 708م)

مـاذا أحـدث عـن صـنـعـاء يـا أبـتـي؟
مـلـيـحـة عـاشـقـاهـا الـسـل والـجـرب
مـاتـت بـصـنـدوق وضّـاح بـلا ثـمـن
ولـم يـمـت فـي حشـاهـا الـعـشـق والـطـرب
كانت تراقب صبح البعث فانبعثت في الحلم
ثـم ارتـمـت تـغـفـو وتـرتـقـب
لكنها رغم بخل الغيث ما برحت حبلي
وفـي بـطـنـهـا قـحـطـان أو كـرب

من قصيدة البردوني

اسمه عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال بن داذ بن أبي جمد يمني من خولان.

من سلالة شعوب حوالي صنعاء التي لا تزال تحمل هذا الاسم حتى اليوم، يعود نسبه إلى حمير فقحطان، أما وضّاح فلقب غلب عليه في قصة ليس هنا محل ذكرها. وتروي كتب الأدب عن وضّاح اليمن أنه كان على جانب كبير من الوضاءة والصباحة واستواء

التكوين وأنه أحد ثلاثة من العرب هم وضّاح والمقنّع الكنطدي وأبو زبيد الطائي كانوا لا يدخلون أسواق العرب إلا مقنّعين خشية العين، وقد كان جماله شبيهاً بجمال ابن أبي ربيعة الشاعر الغزلي المشهور. ولعل وسامة وضّاح هي التي جعلته العاشق المتيم المدلل.

في حياة وضاح نساء عاش معهن حياة عاطفية لمسنا آثارها في شعره، أولهن امرأة يمنية هي روضة بنت عمرو من كندة وقد نظم فيها شعراً كثيراً ولم يتزوجها. ولكن اشتهرت تلك العلاقة التي كانت بينه وبين أم البنين زوجة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك والتي قتل بسببها، حيث أبلغ أحد العبيد الخليفة أن وضّاح في غرفة أم البنين وكانت قد وضعته في صندوق لتخفيه فأخذ الخليفة الصندوق ودفنه ووضاح في داخله.

ولوضّاح قصائد يبدو فيها تأثره بقصائد امرئ القيس منها قول وضاح:

سموت إليها بعدما نام بعلها
وقد وسدته الكف في ليلة الصرد
أشارت بطرف العين أهلاً ومرحباً
ستعطي الذي تهوى على رغم من حسد
ألست ترى من حولنا من عدونا
وكل غلام شامخ الأنف قد مرد
فقلت لها إن امرؤ فاعلمنه
إذا ما اخذ السيف لم احفل العدد

وهي شبيهة لقول امرئ القيس:

سموت إليها بعدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالاً على حالِ

فقالت سباك الله إنك فاضحي
ألست ترى السمار والناس حولي

أيقتلني والمشر في مضاجعي
ومسنونة زرق كأنياب أغوالِ

وله في روضة قصيدته الحوارية الجميلة التي قال فيها الدكتور طه حسين في كتابه «حديث الأربعاء» الجزء الأول هي أول قصيدة حوارية:

قالت ألا لا تلجن دارنا إن أبانا رجل غائر
قلت فإني طالب غرة منه وسيفي صارم باتر

قالت فإن القصر من دوننا قلت فإني فوقه ظاهر
قالت فإن البحر من دوننا قلت فإني سابح ماهر

قالت فحولي أخوة سبعة قلت فإني غالب قاهر
قالت فليث رابض بيننا قلت فإني أسد عاقر

قالت لقد أعييتنا حجة فات إذا ما هجع السامر
وأُسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر

عاش وضّاح في عصر الدولة الأموية وهو عصر ازدهر فيه الأدب أيّما ازدهار، تعددت فيه مواضيعه واختلفت فيه اتجاهاته ومدارسه وكان فيه شعراء السياسة والهجاء مثل جرير والفرزدق والأخطل وعدي بن الرقاع وغيرهم.

كما ظهر فيه الشعراء الغزليين والعذريين أمثال عمرو بن

أبي ربيعة وابن قيس الرقيات والعرجي، وجميل بثينة وكثير عزة وغيرهم كثير.

ـ الأسطورة والخيال:

عاش وضّاح حياة كأنها أسطورية أو خيال، فقد أحاط الغموض في حياته وكذلك ظروف مماته ولا تكاد تجد وضوحاً لحياته في سِيَر الأدب كالبقية من زملائه الشعراء، ولعل مرد ذلك إلى العصبية القديمة بين القيسية واليمنية بحيث يجد شاعر الحجاز ما لا يجده شاعر اليمن من العناية، إضافة إلى أن اليمن كانت تتبع مذهب شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام وهي تعتبر عدواً للبيت الأموي وقصته المشهورة مع أم البنين مما جعل الرواة يتحفظون في نقل شعره وأعماله خوفاً من البيت الأموي، حتى إن قصته مع أم البنين لم تكتب إلا في العصر العباسي.

ـ وضّاح وأم البنين:

وضاح وأم البنين كما وردت في بعض المراجع:

أم البنين هي بنت عبد العزيز بن مروان وزوجة الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي.

كانت جميلة. واستأذنت زوجها ذات يوم للحج فأذن لها، ولما بلغت مكة كانت وجواريها الحسان سافرات يتعرضن لشعراء الغزل من أهل الحجاز وكان الوليد قد توعد من تغزل بزوجته أو جواريها ولكنها ـ كما يقول الدكتور طه حسين في كتابه «حديث الأربعاء» الجزء الأول ـ كانت تريد أن يتغزل بها الشعراء كما تغزلوا بأخت

زوجها فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز، وكما تغزلوا بسكينة بنت الحسين، وكما تغزلوا ببنت معاوية من قبل، وكما كانوا يتغزلون بكل شريفة وجميلة وردت مكة. فطلبت إلى كثير عزة ووضّاح أن يذكراها، فأما كثير فخاف الخليفة ولكنه ذكر إحدى جواريها وتدعى غاضرة.

أما وضّاح فتغزل بأم البنين فأحبت وضّاح وأحبها، وطلبت منه أن يتبعها إلى الشام كما يذكر أكرم الرافعي في قصة وضّاح تحت سلسلة «آفاق عربية» طبعة عام 1960.

تبعها وضّاح ومدح زوجها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك حسب نصيحة حبيبته أم البنين ووعدها له بأنها ستعمل على حمايته ورفع شأنه، فقربه زوجها وأكرمه ووضعه بين علية القوم. وكان وضّاح يتردد على مخدع (غرفة نوم) أم البنين وكان جميلاً حتى تعلقت به وبشعره بنات ونساء رجال الديوان وبدأوا يتربصون به - حسب ما تذكر الرواية -. ويذكر الدكتور طه حسين أن الوليد اشترى جواهر أعجبته وأرسلها مع أحد الخدم إلى أم البنين ودخل الخادم فرأى عندها وضّاح فأسرعت ووضعت وضاح في الصندوق بحضور الخادم ثم أخذت الجواهر منه فطمع الخادم وطلب إحدى هذه الجواهر فأبت عليه وشتمته فانصرف غاضباً وأخبر الخليفة بما رأى فكذبه وأمر بقتله. ثم نهض على الفور ودخل على الملكة فإذا بها تتمشط فجلس على الصندوق الذي وصفه له الخادم وطلب منها أن تعطيه ذلك الصندوق فلم تستطع الرفض فأخذه إلى مجلسه، وأمر بحفر بئر في أرض المجلس وألقى الصندوق في ذلك

البئر ثم دفنها بالتراب وسوى بها الأرض وردّ البساط فوقها كما كان. واختفى وضّاح، وكان ذلك عام 708م.

هل قصة وضّاح حقيقة أم خيال ؟؟؟

يذكر الدكتور طه حسين في كتابه «حديث الأربعاء» الجزء الأول ﷺ 233 بأنه يشك في وجود هذا الشاعر شكاً قوياً فالذين رووا هذه القصة مرة يذكرون أنه عربي حميري، ومنهم من يذكر أنه من سلالة فارسية من الفرس الذين قدموا إلى اليمن مع سيف بن ذي يزن، والبعض يذكر أنه عربي ولكن والده مات وهو طفلاً فتزوجت أمه رجلاً من سلالة الفرس أشرف على تربيته وادعى أبوته، وعندما حضر عمومته لأخذه حصلت خصومة ورفع الأمر إلى الحاكم، وكان وضّاح جميلاً جداً حتى أعجب الحاكم فمسح بيده على رأسه وقال: أنت وضّاح اليمن، فغلب عليه هذا اللقب وأخذه عمومته.

ويذكر الدكتور طه حسين أن أبو فرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» روى قصيدة لوضّاح وردت له وهو في الشام إثر خبر موت والده وأخيه في اليمن، ولم يكن وضّاح طفلاً بل كان شاباً.

إن الرواة اختلفوا حتى في أمر حبيبته الأولى في ما إذا كانت عربية أم من أصل فارسي، وهذا التضارب في الروايات يؤدي إلى الشك في وجود وضّاح أساساً، إضافة ـ كما يقول د. طه حسين إلى أن كل الشعراء الغزليين في القرن الأول والثاني للهجرة مضريون سواء في البادية أو الحضر (المدن) أي من قريش، خاصة وأنه لم يكن هناك شاعر غزلي يمني واحد، فاخترع اليمنيون قصة

وضّاح نتيجة للعصبية والتعصب الذي كان سائداً كقاعدة في ذلك العصر. بدليل أن اليمنيين حاولوا الادّعاء بأن جميل بثينة هو منهم ولم يوفقوا لاختلاف نسب قبيلة قضاعة عن قبيلة جميل. ثم أن جميل كان يؤكد أنه من معد.

وكانت العصبية بين المضرية واليمنية قد عظم أمرها. وكانت المضرية لا تفتخر بشيء إلا وحاول اليمنيون أن يفتخروا بما يساويه أو يزيد عليه. وكان المؤكد أن الغزل يمني بحكم أن امرء القيس هو من مهّد شعر الغزل ولكن ذلك كان في الجاهلية وليس في القرنين الأول والثاني من عصر الإسلام. ولم يكن يسيراً على اليمنيين التخاذل ـ كما يقول الدكتور طه حسين ـ وإن أُقرّ للمضريين بهذا التفوق الشعري إذاً لا بد من أن يكون لليمنية شعراء غزل يتفوقون على شعراء الغزل من المضرية فاخترعوا قصة وضّاح اليمن حتى لا يقال أنها ـ أي اليمن ـ خلت من شعر الغزل في الإسلام. وقال الشعر وضاح واتصل بالخلفاء وأضافوا له شعراً لم يقله أحد من قبله، ولكن فاتهم أن شعر الغزل أغلبه بدوي وفيه خشونة وليس فيه ليونة كليونة الشعر المنسوب لوضّاح، والذي تكثر فيه الشنشنة (قافية الشين) مثل قصيدته التي يقول فيها:

طرب الفؤاد لطيف روضة غاشي ... والقوم بين أباطح وعشاش
إني اهتديت ودون أرضك سبسب ... قفر وحزن في دجى ورشاش
قالت تكاليف المحب وكلفتها ... أن المحب إذا أخيف لماشي... إلى آخر القصيدة

وقد انتقد الدكتور هذه الأبيات بقوله إن هذه المرأة تريد وضّاحاً أن يزورها بأية طريقة. فإذا ذكر لها عسر يسّرته له وأغرته أن يتلطف

لأعمامها وأخوتها حتى تسهل له هذه الصداقة زيارتها دون أن يتعرض لخطر أو يذاع السر. وهذا التصرف موجود في الطبقات المنحلة وليس فيها أخلاق البادية وما فيها، وهي أقرب ـ أي القصيدة ـ أقرب إلى الفجور، وهي تشبه قصص الفجور التي حصلت في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجري. ومن المرجح أنه تم اختراعها في تلك الفترة ـ فترة العصر العباسي الكاره للأمويين.

وأبو فرج الأصفهاني صاحب كتاب «الأغاني» يذكر أن كتاباً كان في أيدي الناس عن الوضاح وأنه كره أن ينقل منه شيئاً. إذاً فوضاح بطل غرامي من أبطال العامة، أي من القصص الشعبية.

ـ المراجع:

1 ـ كتاب «**الأغاني**»، أبو فرج الأصفهاني.

2 ـ «**الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور**»، محمد سعيد جرادة.

3 ـ «**حديث الأربعاء**»، الجزء الأول الدكتور طه حسين.

4 ـ «**آفاق عربية، وضاح اليمن أو الطيف العائد**» أكرم الرافعي طبعة 1960.

عمر بن عبد العزيز
(681 - 720م)

ولد عمر بن عبد العزيز في حلوان بمصر، وقيل في المدينة. أبواه عبد العزيز بن مروان بن الحكم وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

حفظ القرآن في صغره وتفقَّهَ في الدين في المدينة المنورة. حين توفي والده استدعاه عبد الملك بن مروان إلى دمشق فأقام عنده وزوّجه من ابنته فاطمة.

تولّى ولاية المدينة ثم عزل، ثم استوزره سليمان. وبعهد من سليمان تولّى الخلافة سنة 99 هجرية، وبويع له في مسجد دمشق.

وكان تعيينه الحل الوسط لحل النزاعات داخل البيت الأموي ليحافظ على ملك بني أمية. وكان أول ما قام به وقف الحروب الخاسرة ضد البيزنطيين، وحاول مصالحة الموالي الذين عانوا من سياسة الخلفاء الأمويين السابقين. وفي زمنه صار الموالي يستطيعون الوصول إلى منصب قاضٍ.

وحاول أيضاً مصالحة آل البيت، فأمر بوقف سبّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام من على المنابر، وأعاد لبني هاشم أملاكهم،

وخفّف الضرائب عن الموالي والفرس والنصارى، ورفع الخراج عمّن أسلم من أهل الذمة. كما حاول تعويض النصارى عن مصادرة كنيسة القديس يوحنا، إذ أعاد لهم كنيسة توما في دمشق.

كان عمر بن عبد العزيز زاهداً فلم يقرب ما تركه الخليفة السابق، وما عُرف له من ممتلكات عند استخلافه. ورفض الدوابّ والسرادقات والجواري والثياب، وأعاد هذه الأشياء إلى بيت مال المسلمين.

وكان يحرص على عدم تبذير أموال بيت مال المسلمين حتى أنه كان يقرأ القرآن على ضوء شمعة حتى لا يأخذ ثمن الزيت من بيت المال لإنارة السراج. ومما يروى عنه أنه قال لزوجته فاطمة، ابنة الخليفة التي أورثها أبوها الحلي:

«اختاري إمّا أن تردّي حليك إلى بيت المال وإمّا أن تأذني لي في فراقك». فقالت: «بل أختارك».

ومما يروى عنه أيضاً، انه أبطأ يوماً عن صلاة الجمعة قليلاً، فعوتب في ذلك، فقال: «إنما انتظرت قميصاً غسلته أن يجفّ».

ازداد في فترته عدد الذين اعتنقوا الإسلام وقد أثّر هذا سلبياً على خزينة الدولة. ولم تعجب هذه السياسة بني أمية لأنهم خافوا على ملكهم من بعده.

ـ عمر بن عبد العزيز بين فكّي التاريخ:

كان عمر بن عبد العزيز عادلاً حتى إن الناس سموا هذا الخليفة العادل الخليفة الراشدي الخامس وذلك من كثرة عدله وحب الناس

له ولأسس حكمه. كما أنه عرف بتقشفه، وباتّباعه سياسة التسامح حتى مع أعدائه وأعداء بني أمية.

وكان قد جرّد بني أمية من إمتيازاتهم الخاصة، فطلبوا منه إعادتها فرفض. فدسّوا له السم وهو في دير سمعان من أرض المعرة، فأرسل له ملك الروم رئيس أساقفته ليعالجه، فرفض ذلك، واستدعى المتّهم بسمّه، وسأله: «ما حملك على ما صنعت»؟ قال: «خُدِعْتُ وغُرِّرْت» فقال عمر: «خُدعَ وغُرَّ... خَلُّوه»، وتركه حراً.

ومات عمر بن عبد العزيز، وقد حكم مدة سنتين وأربعة أشهر وعدة أيام... ولو امتدّ العمر بالخليفة الصالح مدة كافية من الزمن، فلربما كان استطاع إصلاح أحوال الدولة الأموية وإعادتها إلى ثوابت الحكم الراشدي ونشر العدل في أرجاء الدولة الإسلامية وإنصاف الموالي وأهل الكتاب.

لكنّ هذه السياسة كانت تتعارض وسياسة بني أمية فسارعوا إلى التخلّص منه بالسم.

أما وليّ العهد يزيد بن عبد الملك، فابتعد عن سياسة عمر بن عبد العزيز وعزل الولاة الصالحين، وقسا على البربر وعذّب آل موسى بن نصير وأعاد سياسة الحجاج والبطش في الناس.

لهذا ثار ضدّه الخوارج وباعوا نساء بني مهلّب، فقيل: «ضحّى بنو أميّة يوم كربلاء بالدين ويوم العقير بالكرم».

أبو مسلم الخراساني
(726 - 755)

هو إبراهيم أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم. أصله فارسي. عرف بعدائه للأمويين، وانضم إلى الدعوة العباسية واستطاع جمع الفلاحين والمؤيدين من الفرس حوله، لهذا تقرّب منه أبو العباس السفاح الذي صار الخليفة العباسي الأول.

كان أبو مسلم الخراساني في بداية الدولة العباسية مقرباً من الخليفة العباسي الأول، لكن الخليفة الثاني (أبو جعفر المنصور) خشي من تعاظم قوته وكثرة مؤيديه فدبّر مؤامرة لقتله.

- مسيرة أبو مسلم الخراساني:

كان أبو مسلم الخراساني المحرّك الأساسي للدعوة العباسية في بلاد فارس، وعرف بنو العباس كيف يكسبونه لصفهم، وعرف هو كيف يجمع حوله الموالي والشيعة الناقمين على حكم بني أمية.

كان من المفروض أن يتقاسم أبو مسلم الخراساني السلطة هو وأعوانه ممن ضحّوا في سبيل إقامة الدولة العباسية وهدم الدولة الأموية. لقد كان أبو مسلم مهندس الثورة، غير أن الخليفة الثاني

أصدر أوامره بتصفيته. وبهذا زادت نقمة الشيعة والموالي الذين عانوا الكثير وفعلوا الكثير من أجل الإطاحة بالبيت الأموي، والذين كانوا عماد الثورة العباسية، التي ما كانت لتنتصر بدونهم.

ـ أبو مسلم الخراساني في البلاغة:

قال أبو مسلم الخراساني مخاطباً عبد الحميد الكاتب:

«مَحَا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتحى
عليكَ ليوثُ الغابِ من كلِّ جانبِ».

وتحدثنا كتب المرويات، التي تُروي عادة بإسناد وظيفته أن يحكم دقة الخبر وصحته، عن حكاية جزئية من حكايات نشوء الدولة العباسية. تلك الحكاية أبطالها مروان الثاني (الملقب بالجعدي كما يتواتر في كتب التاريخ) وعبد الحميد الكاتب من جهة، وأبو مسلم الخراساني من جهة ثانية. يُقال إنه لما ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس، كتب إليه ـ أي عبد الحميد الكاتب ـ عن مروان كتاباً يستجلبه به وضمّنه ما لو قُرئ لأدّى إلى وقوع الخلاف والفشل. وقال لمروان: قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره، فإن يكُ ذلك وإلا فالهلاك. وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على جمل، فلما وصل الكتاب إلى يد أبي مسلم، أمر بإحراقه قبل أن يقرأه وكتب على جذاذة منه إلى مروان:

«مَحَا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتحى
عليكَ ليوثُ الغابِ من كلِّ جانبِ».

هذا هو نصّ القصة التي تصف الأوضاع النفسية لثلاثة رجال من رجالات التاريخ في القرن الثاني الهجري، ذلك أنّ حكم مروان

الجعدي استمر من سنة 127 حتى 132هـ. فالنصّ يشي في ثلاثة مواضع منه بخوف مطبق على مروان وعبد الحميد وأبي مسلم، فقد وافق مروان على أن يكون الكتاب باسم عبد الحميد الكاتب على الرغم من عادة الخلفاء والأمراء في تملية رسائلهم على كتّابهم الذين ينحصر دورهم في الصنعة الأسلوبية للرسالة، لأنّ هذا الفعل ينطوي على خطورة في المعاملات السياسية، ويكشف هذا عن طابع الخوف الذي كان يتلبّس مروان، الذي يريد أنْ يدفع الأمور بأية طريقة. ومن ناحية أخرى، كان عبد الحميد يبدي نشاطاً ظاهراً لإحكام صنعة الرسالة الأسلوبية وتشديده على المثيرات العاطفية الخادعة للنفس والتي لها القدرة على إبطال تدبير أبي مسلم الخراساني، فكأنّ حل المسألة العويصة في التاريخ الأخير لحكم بني أمية يتوقف على ما سوف تفعله البلاغة من فعل يجعل البلبلة لائطة في قلب أبي مسلم الخراساني. لكن عبد الحميد يقرر في النهاية أنّ عدم الإبطال يعني هلاكهما ونهاية المُلك الأمويّ بأسره. هذا في الجهة التي هي مدار الخوف أصلاً، الجهة الأموية، لأنها تعلم بتدهور الأمور وسيرها إلى النهاية المحتومة. ولكن ماذا عن الجهة الأخرى، جهة بني العباس؟ ماذا عن أبي مسلم الخراساني؟ الذي يقف في الجهة الأخرى ويمثل العصا السحرية في نجاح الدعوة العباسية والتي تنظر إلى بوادر إنتصارها نظرة واثق. لم تكن الأمور تجري جريان الغالب الذي لا يرهب، فأبو مسلم الخراساني يخشى من إغواء البلاغة وسحرها، فكأنّ هذا الفارس الأسطوري لا يخشى من السيف لكنه يخشى من الكلام، فيأمر بإحراق الرسالة قبل أن يقرأها ليتلافى فتكة البلاغة، بيد أنه يظل يحوم حول معرفة

أسرار تلك الفتنة الغاوية في الرسالة التي التهمتها النار، فتناول جذاذة منها ربما قرأ فيها شيئاً مما ذكره عبد الحميد من فتنة البلاغة. لكنه يكتب على الجذاذة البيت الشعري الآنف، الذي لا نعرف هل هو من نظمه، فهو قد تربى في حجر البلاغة الكوفية، أم أنه قاله متمثلاً من شعر غيره؟. وسوف تكشف نهاية أبي مسلم الخراساني ومقتله على يد أبي جعفر المنصور أنه كان يخشى فتكة الكلام العربي، فثمة محاولات دائمة منه لمقاومة هذا الكلام، فمرة بالسخرية، إذْ يروي الطبري أن أبا مسلم عندما كان يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين، فيقرأه ثم يلوي شدقه على سبيل السخرية. ومرة بالإعراض، فعندما تأزم الموقف بينه وبين المنصور خرج أبو مسلم من الجزيرة غاضباً متجهاً إلى خراسان. ويبدو أنه كان عازماً على الخلاف والعصيان بدليل أنه لم يمرّ على الخليفة بالعراق لاستئذانه في العودة كما جرت العادة بذلك، فخاف المنصور من التفاف أهل خراسان حوله، فبعث إليه رسالة إغراء: قد وليتك الشام ومصر. لكن أبا مسلم فطن لغرض المنصور... فواصل سيره نحو خراسان، لكنّ المنصور أرسل رسله ورسائله ذات الترغيب والترهيب، حتى انخدع أبو مسلم. ومرة بالإحراق كما فعل برسالة عبد الحميد الكاتب. وقبل أن يُقتل أبو مسلم جرت مناظرة كلامية بينه وبين المنصور، فالصراع بالكلام في هذه المرة، وهو هنا يتجرد من سيفه ويعوّض السيف بالكلام، لكنّ الغلبة ستكون لكلام خصمه. الكلام يغلب أبا مسلم الخراساني، الفارس الذي يقول عنه المنصور بعد قتله، مخاطباً ابن أخيه عيسى بن موسى: «والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه، وهل كان لكم ملك في

حياته. ومن خلال ذلك يبدو أنّ أبا مسلم الخراساني كان يدرك نقطة ضعفه منذ البداية، بلاغة الكلام، ذلك السيف الذي لا يستطيع أن يصدّه. والحرب الحقيقية الحرب الداخلية التي يخوضها أبو مسلم مع نفسه تمثل في حربه الدائمة مع البلاغة، فتوهم أنه قضى على ذلك الخصم، فقال قولته الشهيرة:

«مَحَا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتحى
عليكَ ليوثُ الغابِ من كلِّ جانبِ».

لكنّ البيت الشعري يكتم معنىً خافياً بين حروفه، يخفي صراعاً وتضاداً بين نمطين من أنماط الثقافة، الثقافة الفارسية التي تتجلى في عقلية أبي مسلم الخراساني، تلك العقلية التي تنظر إلى الأمور نظرة عملية تفضي إلى نتائج لا لبس فيها، والعقلية العربية التي لم تجد وسيلة للدفاع سوى البلاغة، فتنازل مروان في نهاية المطاف عن إخبار السيف إلى إخبار البلاغة الحميدية الشهيرة في إغوائها. ولكن لماذا خاف أبو مسلم من تلك الرسالة الأسطورية المحمولة على جمل؟ هل كان يعلم أنّ عبد الحميد الكاتب هو الذي نقش عباراتها؟ وإذا كان عبد الحميد هو من نقش تلك الكلمات فلماذا يخافه أبو مسلم؟. ربما كان يعلم أنّ عبد الحميد هو صاحب تلك الديباجة المرصعة بالترصيعات البيانية التي تخلب اللبّ.

لأنّ المرويات التاريخية تخبرنا أنّ عبد الحميد الكاتب هذا يمتاز بقدرة مخصوصة على تقمّص الحال النفسية للخليفة، فهو قد كتب رسالة شهيرة إلى عبد الله بن مروان الثاني، وهذه الرسالة يكتبها على لسان أبيه مروان، وفيها من العظات والنصائح الشيء الكثير. وعلى الرغم من ذلك كله، فإنّ الخشية لا تتمثل في تحديد جنس

كاتب الرسالة، وإنما في قضية أخرى أشدّ خطورة، هي ما عُرف عن عبد الحميد الكاتب من أمور تشير إليها كتب الأدب والتاريخ معاً لأهميتها، هي أنّ عبد الحميد قد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسيّ فحوّلها إلى اللسان العربي، فمعرفته باللسان الفارسيّ التي مكنته من ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها قد هيأت له في اللغة العربية من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى. ومن جهة أخرى، فقد تنازع المؤرخون حول أصل عبد الحميد بن يحيى الكاتب، فالاصطخري يعدّه في كتابه «مسالك الممالك» فارسياً، ويعدّه ابن خلكان في «وفيات الأعيان» عربياً، ويعدّه ابن النديم في «الفهرست» من بلاد الشام. ولا يعني هذا التنازع عند أبي مسلم سوى تناصر بلاغتين عليه، بلاغة اللسان الفارسي التي حذقها عبد الحميد، وبلاغة اللسان العربي التي تفنن في ابتكاراته البيانية فيها. فضلاً عن ذلك، فثمة رسالة شهيرة وجهها عبد الحميد إلى الكتاب جميعهم، تلك الرسالة التي نصّب عبد الحميد نفسه أستاذً لأهل صنعة الكلام والبلاغة، فوضع معايير لكلامهم وسلوكهم مع الخلفاء والأمراء والساسة. ومن هنا، فإنّ أبا مسلم يعلم طبيعة خصمه، فأراد أنْ يدفع خوفه وينتصر على خصمه بإحراق الرسالة البلاغة.

ـ على ظهر الكتاب:

وإضافة إلى الخوف فثمة خدعة يعرفها اثنان من معسكر الأمويين وهما مروان وعبد الحميد، ولا يعلم بها أبو مسلم. فهذا الأخير لا يعلم شيئاً عن الظروف المصاحبة لكتابة الرسالة

المحروقة، لكنه يعلم أنها بلاغة مندسّة في تلك القطعة الكبيرة التي دُوِّنت بها الرسالة الأسطورية المحمولة على جمل. وربما يكون هذا الفعل والتصرف بشؤون الرسالة من لدن أبي مسلم قد علّم العرب درساً في التعامل السياسي مع الآخر في شؤون المكاتبات، فقد روى السيوطي في «تاريخ الخلفاء» أن هارون الرشيد عندما قرأ كتاب «نقفور ملك الروم» الذي يعلن فيه نقض الهدنة التي كانت عقدت بين المسلمين والملكة ريني ملكة الروم، دعا بدواة وكتب على ظهر كتابه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه، لا ما تسمعه».

وعلى هذا الأساس فإن هذا النص يتضمن طائفة من الثنائيات المثيرة والمتصارعة: الدولة الأموية المنهارة والدولة العباسية الناشئة، أبو مسلم الخراساني القائد العسكري والذراع القوي للدولة العباسية وعبد الحميد الكاتب الأبرز في الدولة الأموية، السيف المنتصر والقلم المهزوم، فعل المحو الذي يمارسه السيف وتحول الأسطار المنقوشة بالبلاغة إلى العدم، إنتصار القوة وانهزام البلاغة. ومن خلال ذلك يمكننا أن نشتقّ مقابلات دلالية تاريخية وتأملية، وسنجد أنها حرب تحدث في اللغة ذاتها.

تخفق اللغة تارة في صدّ قوة المحو على النحو الذي صار مع عبد الحميد الكاتب، وتفلح تارة أخرى على النحو الذي صار في حكاية أم جعفر والرشيد في نكبة البرامكة، عندما وقفت أمام هارون الرشيد عارضة بلاغتها المحكمة بمنطق إقناعي، واللاعبة بالمجسّات

التأثيرية لعاطفة الخليفة، كيما تحقق غايتها في دفع الموت عن أولادها. ومن جهته كان الرشيد يدافع، بالبلاغة أيضاً، عن حجته الحاكمية، وعن حكمته السياسية في الدفاع عن ملكه. يكشف ذلك لنا بالمقابل عن:

1 ـ صراع ما بين الكلام نفسه: كلام أم جعفر وكلام الرشيد.

2 ـ وبين الكلام رسالة عبد الحميد الكاتب إلى أبي مسلم الخراساني، والسلطة سيف أبي مسلم الخراساني، وطبقاً لذلك نستطيع أن نحدد بعض الوظائف الصراعية للبلاغة والسيف.

واستناداً إلى هذه الحفريات في نص أبي مسلم الخراساني، يمكن أن نعطي للبلاغة وظائف غير تلك الوظائف التقليدية التي تتداولها الكتب القديمة والمعاصرة معاً، فقد نسب المؤلفون للبلاغة وظيفة تحسين الكلام وتجميله ليكون مقبولاً لدى السامع أو القارئ، ولكي يحقق تأثيراً حاسماً في الاستجابة للمعنى المصبوب في قالب البلاغة. بيد أن الأمر لا يقتصر على ذلك، أو أنه لم يكن من غاياتها الجوهرية، وستساعدنا هذه الفكرة في معرفة لماذا تتدنى كثير من الأعمال الأدبية التي تكون البلاغة فيها بلاغة تزيينية. لقد وردت في كتب العرب مرويات تجعل من البلاغة مصدّاً من مصدات الموت. فمما ترويه العرب في كتبها قصة بين المعتصم وتميم بن جميل السدوسي الذي خرج بشاطئ الفرات، واجتمع إليه كثير من الأعراب، فعظم أمره، وبَعُدَ ذكره، ثم ظُفِرَ به، وحُمل موثقاً إلى باب المعتصم.

ويذكر أحمد بن أبي دؤاد أن تميماً هذا كان غاية في الشجاعة، فيقول: «ما رأيت رجلاً عاين الموت، فما هاله ولا شغله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل». لكن هذه البسالة التي أشار إليها أحمد بن أبي دؤاد لم تفعل فعلها بماهيتها وحدها، وإنما احتاجت إلى ماهية أخرى، أشد تأثيراً، وأجدى على دفع الموت عن النفس. إنها ماهية البلاغة، التي ستقلب وضع الخليفة، وتحوله من بطشة السيف إلى ابتسامة الصفح. يروي أحمد بن أبي دؤاد أنه لما مَثُلَ بين يدي المعتصم، فأحضر السيف والنطع وأوقف بينهما، تأمله المعتصم ـ وكان جميلاً وسيماً ـ وهنا لم تنفعه وسامته ولا جماله أيضاً في الخلوص من الموت، فأحبّ أن يعلم أين لسانه وجَنَانه من منظره، فقال: تكلم يا تميم. فقال: أمّا إذ أذنت يا أمير المؤمنين فأنا أقول الحمد لله الذي أحسنَ كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نَسْلَه من سُلالة من ماء مهين، جَبَر بك صدع الدين، ولمّ بك شعث المسلمين، وأوضح بك سبل الحق وأخمد بك شهاب الباطل. إن الذنوب تُخرس الألسنة الفصيحة، وتعي الأفئدة الصحيحة، ولقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إلى أشبههما بك وأولاهما بكرمك، ثم قال على البديهة:

أرى الموت بين السيف والنَّطع كامناً
يلاحظني من حيثما أتلفَّت
وأكبرُ ظنّي أنك اليوم قاتلي
وأي امرئ مما قضى الله يفلت

وأي امـرئ يـأتـي بـعـذر وحـجّـة
وسيف المنايا بين عينيه مصلّت
ومـا جـزعـي مـن أن أمـوت وإنـنـي
لأعـلـم أن الـمـوت شـيء مـوقـت
ولـكـن خـلـفـي صـبـيـة قـد تـركـتـهـم
وأكـبـادهـم مـن حـسـرة تـتـفـتّـت
كـأنـي أراهـم حـيـن أنـعـي إلـيـهـم
وقـد خـمـشـوا تـلـك الـوجـوه وصـوّتـوا
فـإن عـشـت عـاشـوا خـافـضـيـن بـغـبـطـة
أذود الـردى عـنـهـم وإن مـتّ مُـوِّتـوا
وكـم قـائـل لا يـبـعـدُ الله روحـه
وآخـر جـذلان يُـسـرُّ ويـشـمـت

فتبسم المعتصم وقال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العَذل، قد وهبتك للصبية، وغفرت لك الصبوة. ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه.

ويتبيّن من خلال ذلك أنّ البلاغة هي نصّ الوقاية أو ميكانزم يخلقه العقل للدفاع عن حق الجسد والنفس في الوجود. ولكي نظل في ميدان الصراع الهامشي الذي نشب بطريقة غير مخطط لها، ما بين عبد الحميد الكاتب وأبي مسلم الخراساني، ذلك الصراع الذي لم يكن من صلب الصراع المثير بين العباسيين والأمويين، والذي يخبئ وراءه أموراً لا حصر لها في السياسة والخلافة، علينا أن نكشف عن حرب أخرى بين الرجلين، حرب بين سلطة أبي مسلم الخراساني وبلاغة عبد الحميد الكاتب، فما تريد أن

تنقشه البلاغة، يريد السيف، رمز القوة، أن يجهز عليه، ويمحو آثاره[1].

ـ قصة اغتيال أبي مسلم الخراساني:

يورد المسعودي قصة خداع أبي مسلم ثم اغتياله فيقول:

بعث المنصور إلى أبي مسلم الخراساني لمذاكرته. فتقدّم أبو مسلم الخراساني إلى مضرب المنصور. وكان المنصور قد أخبر صاحب حرسه وأمرهم أن يقوموا خلف السرير الذي وراء أبي مسلم الخراساني. وأمرهم ألاّ يظهروا إذا عاتبه، فإذا صفّق بيد على يد فليظهروا وليضربوا عنقه وما أدركوا منه بسيوفهم.

جلس المنصور فقام أبو مسلم من موضعه ودخل فسلّم عليه فردّ عليه وأذن له بالجلوس، وحادثه ساعة، ثم أقبل يعاتبه.

فقال أبو مسلم: «ليس يقال هذا لي بعد بلائي وما كان مني».

فقال له المنصور: «يا ابن الخبيثة.. إنما فعلت هذا بجدنا وحظوظنا. ألست الكاتب الذي تبدأ بنفسك وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس؟»

فأخذ أبو مسلم يعتذر إليه، فقال له المنصور: «قتلتني إن لم أقتلك»...

ثم صفّق المنصور بإحدى يديه على الأخرى فخرج إليه القوم

(1) جريدة «الزمان»، العدد 1400 تاريخ 8/ 1/ 2003.

واعتورته السيوف فتخلّطت أجزاؤه.. وأتوا عليه والمنصور يصيح: اضربوا قطع الله أيديكم...

وكان أبو جعفر المنصور قد أعدّ صرر المال، فما أن فرغ من قتل أبي مسلم حتى خرج الخزانون بالمال ونثروه على الخراسانيين، فانشغل هؤلاء بالمال ولم يسألوا عن أبي مسلم.

وكان أبو جعفر يريد إقصاء أبي مسلم الخراساني عن خراسان حيث أهله، وأراد أن يعهد له بولاية مصر والشام. ونسي أبو جعفر المنصور أن أبا مسلم الخراساني هو من قضى على ثورة عمه عبد الله بن علي الذي طلب الخلافة لنفسه، والذي كاد يطيح بخلافة المنصور لولا أبي مسلم الخراساني الذي أسره وجاء به إلى المنصور فقتله وكان ذلك في العام 755م.

ابن المقفّع
(724 ـ 759م)

كان عبد الله بن المقفع ضحية السياسة وألاعيبها، وبسببها لقي حتفه، لكن هكذا حَكَمَت السياسة وهكذا أمر السَّاسة!!.

وُلِدَ عبد الله بن المبارك حوالي سنة 724م، وكان اسمه روزبة في مدينة جور ببلاد الفرس، كان أبوه قد تولى الخراج للحجاج بن يوسف الثقفي أيام إمارته على العراق، فمد يده إلى أموال السلطان فضربه الحجاج ضرباً موجعاً حتى تقفعت يده، فسُمِّيَ المقفع.

عاش عبد الله بن المقفع 25 عاماً في ظل الدولة الأموية، و16 عاماً في ظل الدولة العباسية، وتلقى تعليمه بمدينة جور، حيث تثقف بالثقافة الفارسية، وعرف الكثير عن آداب الهند، ثم انتقل إلى مدينة البصرة فتشرَّب الثقافة العربية، إذ كانت البصرة مَجْمع رجال العلم والأدب، وكان «المربد» الشهير بها جامعة للأدباء والشعراء.

وقد اشتهر عبد الله بن المقفع في شبابه بسعة ثقافته الفارسية والهندية واليونانية، بالإضافة إلى فصاحة بيانه العربي، فاستخدمه عمر بن هبيرة كاتباً في دواوينه، وكذلك استخدمه داود بن عمر بن هبيرة وذلك في الدولة الأموية، أما في الدولة العباسية فقد عمل

ابن المقفع كاتباً لعيسى بن علي ابن عم الخليفة المنصور، وأسلم ابن المقفع على يدي عيسى بن علي وقُتِل بسببه!!.

اشتهر ابن المقفع حتى قبل إسلامه بمتانة أخلاقه، فكان كريماً، عطوفاً، عاشقاً لحميد الصفات ومكارمها، شغوفاً بالجمال كما كان مؤمناً بقيمة الصداقة، وإغاثة الملهوف، ومن الحكايات المشهورة التي تُروى عنه، أن عبد الحميد بن يحيى كاتب الدولة الأموية الشهير، اختبأ في بيت ابن المقفع بعد قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، لكن رجال الدولة العباسية الناشئة توصلوا إليه، ودخلوا عليهما بيت ابن المقفع، وسألوهما: أيكما عبد الحميد بن يحيى؟ فقال كلاهما: أنا. فقد قبل ابن المقفع أن يضحي بنفسه من أجل صاحبه، لكن العباسيين عرفوا عبد الحميد وأخذوه إلى السفَّاح[1].

وقد كانت لابن المقفع آثار أدبية كثيرة منها: كتاب «فدينامه» في تاريخ ملوك الفرس، وكتاب «آبين نامه» في عادات الفرس ونظمهم ومراسم ملوكهم، وكتاب «التاج» في سيرة أنوشروان، وكتاب «الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة»، في أخبار السادة الصالحين، وكتاب «مزدك» وكتاب «قاطينورياس» في المقالات العشر، وكتاب «باري

---

(1) من وقت لآخر كان يثور أحد أفراد الأسرة الحاكمة على الخليفة، ويجمع حوله الأنصار، وقد تدور حروب بين الخليفة والثائر عليه، وغالباً ما كانت الأمور تنتهي في صالح الخليفة، وكانت تختلف نهايات الثوار، فإما الموت في المعركة أو السجن أو الإعدام، أو النفي، أو الحرب، وعهد الأمان كان يمنحه الخليفة للثائر حسب مقتضيات الظروف؛ ليطمئنه على نفسه وأهله وأمواله وأنصاره، وأحياناً كان رجال الخليفة يجدون له مخرجاً لينقض هذا العهد وينقض على خصمه عندما تواتي الظروف.

أرميناس» في العبادة، وكتاب «ايسافوجي» أو المدخل لفورفوريوس الصوري، وكتاب «أنا لوطيقا» في تحليل القياس، ورسالة «الصحابة» التي تدور حول الجند والقضاء والخراج، وتلك الرسالة تحوي الكثير من آراء ابن المقفع السياسية لإدارة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف بحكمة، وذلك بإصلاح حال المجتمع، ورفع مستوى الجند والخراج والقضاء، وفي هذه الرسالة إشارة هامة وواضحة إلى ضرورة وجود ما يشبه القانون العام للقضاة بحيث لا تترك القضايا للاجتهادات الشخصية للقاضي.

ومن كتب ابن المقفع الشهيرة كتاب «الأدب الكبير» وكتاب «الأدب الصغير» وهما يحويان الكثير من الحِكَم المستمدة من الثقافات الإسلامية واليونانية والفارسية. ومن حكمه المشهورة: «المصيبة العظمى الرزية في الدين» و«أربعة أشياء لا يُستقل منها القليل: النار، المرض، العدو، الدَّيْن».

تميز ابن المقفع بأسلوبه الرشيق السهل، فقد كان رأيه أن البلاغة إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها، وكان ينصح باختيار ما سهل من الألفاظ مع تجنب الألفاظ السَّفِلَة، ويقول: «إن خير الأدب ما حصل لك ثمره وبان عليك أثره».

أما أهم وأشهر كتب ابن المقفع على الإطلاق فهو كتاب «كليلة ودمنة»، وهو مجموعة من الحكايات تدور على ألسنة الحيوانات يحكيها الفيلسوف بيدبا للملك دبشليم، ويبث من خلالها ابن المقفع آراءه السياسية في المنهج القويم للحُكْم، والمشهور أن ابن المقفع ترجم هذه الحكايات عن الفارسية، وأنها هندية الأصل، لكن أبحاثاً

كثيرة حديثة تؤكد أن كليلة ودمنة من تأليف ابن المقفع وليست مجرد ترجمة، كما أن بعض هذه الأبحاث يعتقد أن الآراء التي أوردها ابن المقفع في «كليلة ودمنة» كانت أحد الأسباب المباشرة لنهايته الأليمة، وموضوع «كليلة ودمنة» يستحق مقالاً منفصلاً.

وهنا نأتي للنهاية المفجعة التي أشرنا إليها أكثر من مرة، فقد كان عبد الله بن المقفع كاتباً لعيسى بن علي الذي أمره بعمل نسخة من الأمان[1] الذي أعطاه له الخليفة المنصور لعبد الله بن علي، فأضاف ابن المقفع عبارة في الأمان نصها: «وإن أنا نلت عبد الله بن علي أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت لأحد منهم ضرراً، سرّاً أو علانية، على الوجوه والأسباب كلها تصريحاً أو كناية أو بجبلة من الجبل، فأنا نفي من ـ محمد بن عبد الله ـ ومولود لغير رشدة، ولقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين، ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج عن طاعتي، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق». فأسرَّها المنصور في نفسه، وتلقف تهمة كانت شائعة في تلك الأيام وهي تهمة الزندقة[2]، رمى بها البعض عبد الله بن المقفع ـ وقد ثبتت براءته منها ـ [3]، فأمر والي البصرة سفيان بن معاوية بقتله، فقطع جسده

(1) دائرة معارف الشعب ـ المجلد الأول ـ الكتاب السادس سنة 1959.

(2) لكلمة الزندقة معايير مختلفة كالتهتك والاستهتار والفجور، واتباع دين المجوس، والإلحاد، والإباحية، وفيما يخص ابن المقفع فقد كانت التهمة بالزندقة تتخذ معنى إظهار الإسلام وإخفاء الكفر، أي اتهامه بأنه مسلم في الظاهر ومجوسي في الباطن.

(3) في عالم الأدب الشعبي العجيب، فاروق خورشيد ـ القاهرة ـ مهرجان القراءة للجميع 1998.

قطعاً قطعاً ورماه في التنور، وكانت آخر كلماته: «والله إنك لتقتلني فتقتل بقتلي ألف نفس، ولو قُتِل مائة مثلك لما وفُّوا بواحد».

وهكذا راح الأديب العبقري والإنسان الفاضل، ضحية السياسة والخلافات السياسية داخل الأسرة العباسية، ولم يقتل كخصم سياسي، بل ألصقت به تهمة الزندقة التي هو منها بريء بشهادة مؤلفاته، وبشهادة الأبحاث التي دارت حول حياته وفكره[1].

ـ سبب مقتله:

في ظل الدولة العباسية اتصل ابن المقفّع بعيسى بن علي عم السفاح والمنصور واستمر يعمل في خدمته حتى قتله سفيان بن معاوية والي البصرة من قبل المنصور.

والأرجح أن سبب مقتله يعود إلى المبالغة في صيغة كتاب «الأمان» الذي وضعه ابن المقفع ليوقّع عليه أبو جعفر المنصور، أماناً لعبد الله بن عليّ عم المنصور. وكان ابن المقفع قد أفرط في الاحتياط عند كتابة هذا الميثاق بين الرجلين ـ عبد الله بن علي والمنصور ـ حتى لا يجد المنصور منفذاً للإخلال بعهده. ومما جاء في كتاب الأمان: «إذا أخلّ المنصور بشرط من شروط الأمان كانت نساؤه طوالق، وكان الناس في حلّ من بيعته»، مما أغاظ المنصور فقال: «أما من أحد يكفينيه»؟ وكان سفيان بن معاوية يبيّت لابن المقفع الحقد، فطلبه، ولما حضر قيّده وأخذ يقطعه عضواً فعضواً ويرمي به في التنور.

---

(1) «ضحى الإسلام». أحمد أمين ـ القاهرة ـ مهرجان القراءة للجميع 1999.

ـ ابن المقفّع بين فكّي التاريخ:

يحاول البعض الإنقاص من شأن ابن المقفّع كقولهم إن مذهبه مجوسي من أتباع زرادشت، وأنه لم يسلم إلا للمحافظة على روحه وللتقرب إلى العباسيين، ويتّهمونه كذلك بالزندقة.

ولكنّ الحقيقة أنه صاحب نفس شريفة، يقدّر الصداقة حق قدرها. وقد رأى في الأصدقاء عماد الحياة ومرآة النفس، لذا نصح بالدقة في اختيار الأصدقاء.

وكان ابن المقفّع صاحب علم واسع، وعرف الثقافة العربية والفارسية واليونانية والهندية. وإذا كان ابن المقفّع أظهر عيوب النُّظُم الإدارية في عصره وفضّل النظم الإدارية الفارسية، فالحقيقة أن العرب كانوا بعيدين عن النظم الإدارية. فبعد قيام الدولة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ، أخذ الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه الكثير من النظم الإدارية عن الفرس، واستطاع بهذا بناء دولة قوية. وكان لهذا أثره الكبير في تطوّر الدولة العربية.

قتل ابن المقفّع وهو في مقتبل العمر، ولم يتجاوز الخامسة والثلاثين عند موته. إلا انه خلّف لنا من الآثار الكثيرة ما يشهد على سعة عقله وعبقريته، وأنه صاحب المدرسة الرائدة في النثر.

ـ مؤلفاته:

بعض مؤلفات ابن المقفّع نقل من الفارسية واليونانية والهندية. ومن مؤلفاته:

ـ الدرة الثمينة والجوهرة المكنونة.

- مزدك.

- باري ترمينياس.

- أنالوطيقا - تحليل القياس.

- أيين نامة - في عادات الفرس.

- التاج - في سيرة أنو شروان.

- أيساغوجي - المدخل.

- الأدب الصغير.

- رسالة الصحابة.

- كليلة ودمنة - نقله عن الهندية.

بقي ابن المقفّع وبقيت الكتب التي كتبها أو نقلها عن الفارسية أو الهندية أو اليونانية مرجعاً لأنّ الكتب الأصلية ضاعت.

وقد ترك لنا ابن المقفّع الكثير من الكنوز رغم أنه لم يعمّر طويلاً... لكن أدبه عمّر وسيعمّر.

يحيى بن خالد البرمكي
(120 هـ - 187 هـ)

ولد يحيى بن خالد سنة 120 هـ، فعايش أهم أحداث الثورة العباسية، وشارك والده في العمل لخلفائها بإخلاص، وكان مثل أبيه عزماً وحزماً وتدبيراً، فولاّه أبو جعفر المنصور ولاية أذربيجان سنة 158 هـ، وكان العباسيون لا يولّون ثغورهم (جبهات المواجهة مع الأعداء) إلا من يحوز ثقتهم، وكان يحيى عند ثقة الخليفة، فنهض بالأمر على الوجه الأكمل، واستمر في أذربيجان حتى توفي المنصور.

ونظراً لإخلاصه اختاره المهدي الخليفة العباسي الثالث ليكون مؤدّب ولده هارون الرشيد وكاتبه ووزيره، وكان الرشيد يُجلّه، فلا يناديه إلا بقوله: «يا أبتِ»! وكانت العلاقات حميمة بين الأسرتين العباسية والبرمكية، فأرضعت كل من زوجتي السفاح وخالد ابنة الأخرى، وأرضعت الخيزران (أم الرشيد) الفضل بن يحيى، وأرضعت زوجة يحيى (أم الفضل) هارون الرشيد.

وبعد وفاة المهدي تولّى ابنه موسى الهادي الخلافة، فأبقى يحيى على حاله مع الرشيد، ثم بدا للهادي أن يخلع أخاه هارون

من ولاية العهد، ويجعلها لإبنه الصغير جعفر، ووافقه على ذلك القوّاد، وبدأ الهادي ينتقص الرشيد، ويحطّ من شأنه، فتجنبّه الناس، ولم يكن أحد يجترئ أن يسلّم عليه ولا يقربه، إلا يحيى بن خالد وولده، فظلا أوفياء لهارون، معرّضين نفسيهما لغضب الخليفة الهادي، ولدسائس الحسّاد ومكائدهم.

وذكر الطبري في تاريخه أنه «سُعي إلى الهادي بيحيى بن خالد، وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خلاف، وإنما يُفسده يحيى بن خالد، فابعث إلى يحيى، وتهدّده بالقتل، وارمه بالكفر. فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى بن خالد».

وذكر الطبري أن هارون طاب نفساً بالخلع، فقال له يحيى: لا تفعل. فقال: أليس يترك لي الهنيء والمريء؟! فهما يسعانني، وأعيش مع ابنة عمي ـ يقصد زوجته زُبيدة وكان متعلّقاً بها ـ، فقال يحيى: وأين هذا من الخلافة ؟! . . ومنعه الإجابة.

وشرع الهادي يضايق يحيى، ثم سجنه، وحاول التخلص منه، لكن يحيى التزم الحق، ونصح الخليفة بما هو أصلح، وقد قال له يوماً: «يا أمير المؤمنين، إنك إن حملت الناس على نَكْث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك، ثم بايعت لجعفر من بعده، كان ذلك أَوْكد لبيعته، فقال: صدقت ونصحت، ولي في هذا تدبير».

ولم تطل خلافة الهادي، وتوفي سنة 170 هـ، وتولّى هارون الرشيد الخلافة بفضل حسن تدبير يحيى وجرأته وشدة إخلاصه، وكافأه الرشيد على ذلك فقلّده الوزارة، وأطلق يده في شؤون

الخلافة، ودفع إليه الخاتَم، وقال: «يا أبتِ، أنت أجلستني ببركة رأيك، وحسن تدبيرك، قد قلّدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت».

فكان يحيى يسمّى ذا الوزارتين، وهو أول من لُقّب بذلك في الإسلام.

وباشر يحيى الأمور بحزم وعزم نادرين، فكان يجلس هو وابناه الفضل وجعفر للناس جلوساً عاماً في كل يوم، إلى انتصاف النهار، ينظرون في أمور الناس وحوائجهم، لا يُحجَب أحد، ولا يُلقى لهم ستر.

وكان يحيى نعم الوزير ونعم المدير، فقد اهتمّ بشؤون الرعية خير اهتمام، وأمر بحفر الأنهار، وبحمل القمح من مصر إلى أهل الحرمين ـ مكة والمدينة ـ، وأجرى على المهاجرين والأنصار، وعلى وجوه أهل الأمصار، وعلى أهل الدين والآداب والمروءات، واتخذ كتاتيب لليتامى.

أما عن شخصية يحيى فقد ذكرت الأخبار أنه كان أريباً لبيباً، صائب الرأي، حسن التدبير، جواداً يسابق الريح كرماً وجوداً، حليماً عفيفاً، وقوراً مهيباً، تغنّى الشعراء بفضائله ومكارمه، واتسم بالوفاء والإخلاص، وبالذكاء والكياسة، وبالتصرف في الشدائد بحكمة واقتدار، حاضر البديهة، سريع الإجابة، متواضع النفس، نقيّ السريرة، غير متغطرس، يقابل المسيئين إليه بالصفح والعفو، قال عبد الصمد بن علي: «ما رأيت أكرم من يحيى نفساً، ولا أحلم

منه، جعل على نفسه ألا يكافئ أحداً بسوء فوفى».

وتمتّع يحيى بقدر كبير من الثقافة والأدب، قال عنه ياقوت في «معجم الأدباء»: «كان من أكمل أهل زمانه أدباً وفصاحة وبلاغة». ويتجلى هذا بوضوح في أقواله ووصاياه ومواقفه. فقد قال لولده: «لا بد لكم من كتّاب وعمّال وأعوان، فاستعينوا بالأشراف، وإياكم وسِفْلة الناس، فإن النعمة على الأشراف أبقى، وهي بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهر، والشكر منهم أكثر».

وكان يقول: «البلاغة أن تُكلّم كلّ قوم بما يفهمون».

ويقول لكتّابه: «إن استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات اختصاراً فافعلوا».

وكان يحيى إذا رأى من الرشيد شيئاً ينكره لم يستقبله بالإنكار، وضرب له أمثالاً، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقه ما أنكره، ومثال ذلك أنه كانت بين الرشيد ونِقْفُور ملك الروم هدنة - بإشارة من يحيى - ونكث نقفور وغدر، وكره يحيى أن يُعرّف الرشيد ذلك فينتقم له، ويرجع باللوم عليه، لما كان من مشورته عليه بمصالحته، فأمر عبد الله بن محمد الشاعر المعروف بالمكّي، أن يقول في ذلك شعراً، وينشده الرشيد. فقال:

نقضَ الذي أعطاكَه نِقْفورُ ... فعليه دائرةُ البَوارِ تدورُ
أَبشِر أميرَ المؤمنين! فإنه ... فَتحٌ أتاكَ به الإلهُ كبيرُ

فقال الرشيد ليحيى: قد علمت أنك احتلت في إسماعي هذا الخبر على لسان المكّي، ونهض نحو الروم، فافتتح هِرَقْلة، وأمر هذا الحدث مشهور في كتب التاريخ.

قتل جعفر بن يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد في 29 كانون الثاني/ يناير عام 803م، في النكبة المعروفة بـ«نكبة البرامكة» الذين كانوا يتولون شؤون الدولة في مطلع الخلافة العباسية، حيث عزلهم هارون الرشيد من مناصبهم، وقتل بعضهم بسبب اتهامهم بأسباب متعددة ذكرها المؤرخون، منها استبدادهم بالأمر دون هارون الرشيد، ومنها اتهامهم بالزندقة.

الخليفة الأمين

(787م - 812م)

اتبعت الدولة العباسية منذ قيامها نظاماً أدى في نهاية الأمر إلى تفرق الكلمة وكثرة الصراعات وضعف دولة الخلافة العباسية، على الرغم من طول مدتها، ألا وهو نظام البيعة لأكثر من ولي للعهد متعاقبين، فالخليفة العباسي الأول (السفاح) أوصى لأخيه أبي جعفر المنصور ومن بعده لعيسى بن موسى ابن عمه، فلما ولي أبو جعفر أجبر عيسى على أن يخلع نفسه، وبايع لابنه المهدي، ثم كرر المهدي نفس الخطأ، وعهد للأمر من بعده لولده الهادي ومن بعده لولده الثاني الرشيد، فلما ولي الهادي حاول خلع أخيه الرشيد فلم يسعفه الأجل ومات قبل ذلك، فلما ولي الرشيد ارتكب نفس الخطأ ولكن بصورة أشد، أدت لحصول هذه المأساة حيث جعل ولاية العهد لابنه الأمين رغم أنه أصغر من المأمون، لمحبتة لزبيدة أم الأمين، ولما أحس بخطئه أحب أن يعالجه فزاد الطين بلة، حيث أعطى للمأمون إمتيازات تجعله مستقلاً تماماً عن أخيه الأمين، ثم إنه لم يقتصر على ذلك، بل أضاف إليهما أخاً ثالثاً، هو القاسم، وأعطاه إمتيازات الجزيرة وأرمينيا كل ذلك أدى لاشتعال نار الخلاف بين الأخوة، وهو ما حدث بالفعل بين الأمين والمأمون.

لما مات الخليفة هارون الرشيد، قام على أمر بيعة الأمين حاجب الرشيد الفضل بن الربيع، فبايعه الناس والقواد ومعظم الجيش، وثقل ذلك على المأمون جداً، ولكنه دخل في بيعة أخيه على زغل عنده، وكان وزير المأمون والمقدم عنده هو الفضل بن سهل، وهو الذي زين له أمر البيعة لنفسه، ولكن أمره بالتمهل، وألا يقدم على أخيه في بغداد.

كان الفضل بن الربيع مستولياً على الأمين، فهو الذي قام بأمر بيعته وكان يكره المأمون جداً، ويرى أن المأمون لو صار يوماً خليفة لذهب جاهه وسلطانه ونفوذه الذي بناه عبر السنين منذ أيام الرشيد، لذلك زين للأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، وعقد الولاية بالعهد لابنه موسى بن الأمين، ولم يكن للأمين نية في خلع أخيه المأمون، ولكن الفضل بن الربيع ظل وراءه حتى قطع الخطبة لأخيه، وأزال اسمه من الصكوك والمناشير، وكان ذلك إيذاناً بالمجاهرة بالعداوة والخلاف، وبداية لحروب وأهوال طويلة بين المسلمين، أثرت فيما بعد.

أعد المأمون جيشاً كبيراً من أهل خراسان، وجعل قيادته لطاهر بن الحسين، وأحسن تدبير الأمور جداً، فحين أعد أخاه الأمين جيشاً لمحاربة أخيه في خراسان بقيادة علي بن عيسى بن ماهان، وكان ذلك اختياراً غير موفق بالمرة، وذلك لأن علي بن عيسى هذا كان والياً على خراسان أيام الرشيد وأساء السيرة منهم جداً، وأيضاً كان مغروراً ومتكبراً لأقصى درجة، غير مبالٍ ولا يكترث بطاهر ومن معه، وهذا أدى في النهاية لهزيمة جيش الأمين،

وقتل قائده علي بن عيسى، مما قوى جانب المأمون على الأمين، ثم أرسل الأمين جيشاً آخر بقيادة عبد الرحمن بن جبلة، فهزم أيضاً، وقتل قائده، فاضطربت الأمور على الأمين.

ومما زاد موقف الأمين صعوبة، هو حدوث فتنة عصيبة في صفوف جنود الشام الذين قدموا لنصرته، مما أدى لتفرقهم عنه، بل تطور الأمر أكثر من ذلك، فدخل بعض قادة جند الشام، ومنهم الحسين بن علي، فخلع الأمين وبايع للمأمون، ولكنه ما لبث أن قُتل، وازدادت الأمور اضطراباً، وفي نفس الوقت كانت جيوش المأمون سامعة مطيعة في غاية النظام.

ثم حدث أن بايع أهل مكة والمدينة المأمون، وخلعوا الأمين لما رأوا منه من نكصان للعهد السابق لأخيه، ولما رأوا منه من لهو ولعب واشتغال بالباطل عن أمر الخلافة، في حين أن المأمون كان يجالس العلماء والفقهاء والأدباء.

بدأت الجيوش تفد من كل الاتجاهات لحصار بغداد وإرغام الأمين على التنازل لأخيه، وشُدد الحصار على بغداد حتى أصاب الخراب معظم ديارها، وانتشر الفزع والخوف والغلاء والمجاعة في بغداد، واجتهد الأمين في المصابرة ودفع الجيوش، ولكن الناس انفضت من حوله، فلما يئس من أمره حاول أن يستأمن لنفسه عند أخيه المأمون، وذلك عن طريق القائد هرثمة بن أعين، فلما أحس القائد الآخر ـ وهو طاهر بن الحسين ـ بالأمر، خشي أن يفوته الشرف والمكانة، وتضيع جهوده السابقة كلها وتنسب لهرثمة، فأمر بالاحتياط على الأمين، ثم أمر بعض جنوده من الأتراك غير العرب

بقتل الأمين، فدخلوا عليه ليلة الأحد 25 محرم سنة 198 هـ الموافق 812م، وقتلوه بالسيوف، ثم احتزوا رأسه، ونُصب رأسه على رمح، ثم دخل طاهر بن الحسين بغداد، وخطب الناس خطبة بليغة مهدت الأمور للمأمون، وبتلك الفعلة الشنيعة انتهت فصول هذه المأساة التي لم تقف عند هذا الحد، بل كانت فاتحة لسلسلة طويلة من الخلع والخلاف بين الخلفاء وولاة العهود، وسنة سيئة، وضع لبنتها الأولى الأمين والمأمون، ودفعت الأمة الإسلامية ثمنها عبر العصور اللاحقة.

طاهر بن الحسين
(... ـ 823م)

الطاهريون سلالة عربية من الأشراف تولت الحكم في خراسان وشرق تركستان ما بين 820 ـ 873م.

في العام 820م قام الخليفة العباسي المأمون بتعيين قائده طاهر بن الحسين (820 ـ 823م) والياً على خراسان. كان المأمون قد فضله على أخيه عام 811 م وأخذ له البيعة بولاية العهد قبل ذلك. مع توليه استقل الطاهر بأمر الحكم مع بقائه إسمياً تحت سلطة العباسيين. كان أبناؤه لا يزالون في خدمة الخلافة في بغداد.

أصبحت الدولة الطاهرية أكثر إستقلالية مع تولي أبناء الطاهر، طلحة (823 ـ 828م) ثم عبد الله (828 ـ 845م) جعل هؤلاء من نيسابور مركزاً للثقافة والآداب والعلوم العربية. قادوا ولصالح الخليفة العباسي عدة حملات عسكرية في مصر من أهمها:

ـ الاستيلاء على الإسكندرية: 827م. ومنذ العام 867 م أخذ الطاهريون يفقدون السيطرة على مناطقهم لصالح الصفاريين. والذين استطاعوا أخيراً سنة 873 م أن ينهوا حكمهم.

أهم حكامهم ومدة حكم كل واحد منهم:

1 ـ طاهر بن الحسين: 820 ـ 823.

2 ـ طلحة بن طاهر بن الحسين: 823 ـ 828.

3 ـ عبد الله بن طاهر بن الحسين: 828 ـ 845.

4 ـ طاهر بن عبد الله بن طاهر: 845 ـ 862.

5 ـ محمد بن طاهر بن عبد الله: 862 ـ 872.

ـ الدولة الطاهرية: 205 ـ 259هـ 821 ـ 873م:

قامت هذه الدولة الطاهرية في خراسان، وقد أسسها طاهر بن الحسين أحد كبار قواد الجيش في عهد الخليفة المأمون.

ولكن كيف يتسنى له أن يقيم دولة والدولة العباسية في أول عهدها، وفي عصر المأمون الذي يعد العصر الذهبي للدولة العباسية؟!

إن لقيام هذه الدولة قصة، فقد كان لإقليم خراسان وضع خاص في الدولة العباسية منذ نشأتها، إذ كان هؤلاء الخراسانيون ـ كما علمتَ في قيام الدولة العباسية ـ يشعرون بأنهم أصحاب فضل على الدولة العباسية، وبأن سيدهم أبا مسلم الخراساني هو المؤسس الأكبر لهذه الدولة، ورغم ذلك لم يحسن العباسيون جزاءهم حين قتل المنصور أبا مسلم.

والواقع أن الخلافة العباسية كانت تتجاوز كثيراً عن الخراسانيين، وتحاول إرضاءهم اعترافاً بفضلهم على الدولة. وفى عصر المأمون، كان طاهر بن الحسين وابنه عبد الله من كبار رجال

الدولة وخيرة قادتها في ذلك الوقت الذي بدأ فيه الصراع بين الأمين والمأمون.

لقد وقف طاهر بن الحسين إلى جوار المأمون في كثير من المواقف الحرجة حتى تمكن من الخلافة. ولم يمرَّ عامان حتى أقدم طاهر بن الحسين على خطوة جريئة في سنة 823م. لقد قطع الدعاء في الخطبة للمأمون، وكان قطع الدعاء يعني الإستقلال عن الخلافة.

ولكن يشاء الله أن يموت طاهر في العام نفسه، فكان السؤال هل تعود الدولة الطاهرية إلى الدولة العباسية بعد اغتيال مؤسسها؟ وكان ذلك في العام 823م.

لقد تولى ابنه طلحة بعد أبيه بأمر من الخليفة المأمون، وظل الطاهريون يحكمون خراسان، ولكنهم يتبعون الدولة العباسية تبعية اسمية مما جعل الخلافة العباسية تلجأ إلى الطاهريين، تلتمس منهم المؤازرة والمساندة ضد الخارجين على سلطانهم.

لقد حارب عبدُالله بن طاهر نصرَ بن شبث حين قام بثورة في شمال حلب سنة 209هـ، وأتى به أسيراً إلى المأمون. وظل الطاهريون على ولائهم للعباسيين حيث اشترك عبد الله بن طاهر في إخماد فتنة وقعت في عهد المعتصم بطبرستان، وهكذا استقل الطاهريون إستقلالاً داخلياً هادئاً في خراسان، وظلوا يتولون أمرها، ويتوارثون الإمارة فيها، ولم يمنعهم إستقلالهم من مساندة الخلافة العباسية، ومساعدتها في كل ما واجهته من فتن وثورات.

ولكن عندما جاءت سنة 259هـ/ 873م، استطاع يعقوب الصفار أن يقيم دولته على أنقاض دولة الطاهريين.

الخليفة الواثق بالله

(... ـ 846م)

قتل الخليفة الواثق بالله في سامرا وهي مدينة بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة وقد خربت وفيها لغات سامراء ممدود وسامرا مقصور وسر من رأ مهموز الآخر وسر من را مقصور الآخر وكان يقال لها سر من رأى فخففها الناس وقالوا سامراء.

الواثق بالله هو الخليفة أبو جعفر وأبو القاسم هارون بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور العباسي البغدادي وأمه رومية اسمها قراطيس أدركت خلافته ولي الأمر بعهد من أبيه في سنة 227 هـ، وكان مولده في شعبان سنة 196هـ، قال يحيى بن أكثم ما أحسن أحد إلى أهل الحرمين ما أحسن إليهم الواثق ما مات وفيهم فقير، وكان الواثق مليح الشعر أبيض تعلوه صفرة حسن اللحية في عينه نكتة وكان وافر الأدب، قال الخطيب استولى أحمد بن أبي داود على الواثق وحمله على التشدد في المحنة والدعاء إلى خلق القرآن وقيل إنه رجع عن ذلك قبيل موته.

وفي سنة إحدى وثلاثين قتل أحمد بن نصر الخزاعي ظلماً

وكان سبب ذلك أن هذا الرجل وهو أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي وكان جده مالك ابن الهيثم من أكبر الدعاة إلى دولة بني العباس الذين قتلوا ولده هذا، وكان أحمد بن نصر هذا له وجاهة ورياسة وكان أبوه نصر بن مالك يغشاه أهل الحديث، وقد بايعه العامة في سنة 201 هـ على القيام بالأمر والنهي حين كثرت الشطار والدعار في غيبة المأمون عن بغداد، وكان أحمد بن نصر من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكان ممن يدعو إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، وكان الواثق من أشد الناس في القول بخلق القرآن يدعو إليه ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون من غير دليل ولا برهان ولا حجة ولا بيان ولا سنة ولا قرآن، فقام أحمد بن نصر هذا يدعو إلى الله وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق في أشياء كثيرة دعا الناس إليها فاجتمع عليه جماعة من أهل بغداد والتف عليه من الألوف أعداد وانتصب للدعوة إلى أحمد بن نصر هذا رجلان وهما أبو هارون السراج يدعو أهل الجانب الشرقي وآخر يقال له طالب يدعو أهل الجانب الغربي فاجتمع عليه من الخلائق ألوف كثيرة وجماعات غزيرة فلما كان شهر شعبان من هذه السنة انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخزاعي في السير على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخروج على السلطان لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن ولما هو عليه وأمراؤه وحاشيته من المعاصي والفواحش وغيرها، فتواعدوا على أنهم في الليلة الثالثة من شعبان

وهي ليلة الجمعة يضرب طبل في الليل فيجتمع الذين بايعوا في مكان اتفقوا عليه وكان من جملة من معهم رجلان من بني أشرس وكانا يتعاطيان الشراب فلما كانت ليلة الخميس شربا مع قوم من أصحابهم واعتقدا أن تلك الليلة هي ليلة الوعد فقاما يضربان على طبل في الليل ليجتمع إليهما الناس فلم يجئ أحد، وانخرم النظام وسمع الحرس في الليل فأعلموا نائب السلطنة وهو محمد بن إبراهيم بن مصعب وكان نائباً لأخيه إسحاق بن إبراهيم لغيبته عن بغداد فأصبح الناس متخبطين، واجتهد نائب السلطنة على إحضار هذين الرجلين فأحضرا فعاقبهما فأقرا على أحمد بن نصر فطلبه وأخذ خادماً له فاستقره فأقر بما أقر به الرجلان، فجمع جماعة من رؤوس أصحاب أحمد بن نصر معه وأرسل بهم إلى الخليفة بسر من رأى وذلك في آخر شعبان فأحضر له جماعة من الأعيان وحضر القاضي أحمد بن أبي داؤد المعتزلي وأحضر أحمد بن نصر ولم يظهر منه على أحمد بن نصر عتب، فلما أوقف أحمد بن نصر بين يدي الواثق لم يعاتبه على شيء مما كان منه في مبايعته العوام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيره بل أعرض عن ذلك كله وقال له: «ما تقول في القرآن؟ فقال هو كلام الله، قال أمخلوق هو؟ قال هو كلام الله»، وكان أحمد بن نصر قد استقتل وباع نفسه وحضر وقد تحنط وتنور وشد على عورته ما يسترها، فقال له فما تقول في ربك أتراه يوم القيامة؟ فقال يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك قال الله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**﴾ وقال رسول الله ﷺ «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته» فنحن على الخبر، زاد الخطيب قال الواثق

ويحك، أَيُرى كما يرى المحدود المتجسم ويحويه مكان ويحصره الناظر، أنا أكفر برب هذه صفته، قلت وما قاله الواثق لا يجوز ولا يلزم ولا يرد به هذا الخبر الصحيح والله أعلم، ثم قال أحمد بن نصر للواثق وحدثني سفيان بحديث يرفعه «إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الله يقلبه كيف شاء» وكان النبي ﷺ يقول «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك» فقال له إسحاق بن إبراهيم ويحك انظر ما تقول، فقال أنت أمرتني أن أنصح له، فقال الواثق لمن حوله ما تقولون في هذا الرجل؟ فأكثروا القول فيه فقال عبد الرحمن بن إسحاق ـ وكان قاضياً على الجانب الغربي فعزل وكان ودوداً لأحمد بن نصر قبل ذلك ـ: يا أمير المؤمنين هو حلال الدم، وقال أبو عبد الله الأرمني صاحب أحمد بن أبي داود اسقني دمه يا أمير المؤمنين، فقال الواثق لابد أن يأتي ما تريد، وقال ابن أبي دؤاد هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل، فقال الواثق إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي فإني أحتسب خطاي، ثم نهض إليه بالصمصامة ـ وكانت سيفاً لعمرو بن معد يكرب الزبيدي أهديت لموسى الهادي في أيام خلافته وكانت صفيحة مسحورة في أسفلها مسمرة بمسامير ـ فلما انتهى إليه ضربه بها على عاتقه وهو مربوط بحبل قد أوقف على نطع، ثم ضربه أخرى على رأسه ثم طعنه بالصمصامة في بطنه فسقط صريعاً على النطع ميتاً، وأمر الواثق بامتحان الأئمة والمؤذنين بخلق القرآن، وافتك من أسر الروم أربعة آلاف وستمائة نفس ـ أي فاداهم ـ فقال ابن أبي داود من لم يقل القرآن مخلوق فلا تفتكوه، وفيها جاء المجوس الأردمانيون في مراكب من ساحل البحر الأعظم فدخلوا

إشبيلية بالسيف ولم يكن لها سور بعد فجهّز لحربهم أمير الأندلس عبد الرحمن المرواني جيشاً فالتقوا فانهزم الأردمانيون وأسر منهم أربعة آلاف.

روي عن صالح بن علي الهاشمي قال حضرت مجلس المهتدي بالله وقد جلس والقصص تقرأ عليه ويأمر بالتوقيع عليها فسرني ذلك وجعلت أنظر إليه ففطن ونظر إلي فغضضت عنه، قال فقال لي: في نفسك شيء تحب أن تقوله، فلما انفض المجلس أُدخلت مجلسه فقال: تقول ما دار في نفسك أو أقوله لك، قلت يا أمير المؤمنين ما ترى، قال أقول إنه قد استحسنت ما رأيت منا فقلت في نفسك أي خليفة خليفتنا إن لم يكن يقول القرآن مخلوق!! قال فورد علي أمر عظيم ثم قلت يا نفس هل تموتين قبل أجلك فقلت: نعم، فأطرق ثم قال: اسمع فوالله لتسمعن الحق، فسري عني وقلت ومن أولى بالحق منك وأنت خليفة رب العالمين، قال مازلت أقول القرآن مخلوق صدراً من أيام الواثق حتى أقدم شيخاً من أذنة ـ وهي قرية بين النهرين ـ فأُدخل مقيداً وهو شيخ جميل حسن الشيبة، فرأيت الواثق قد استحيا منه ورق له فما زال يدنيه حتى قرب منه وجلس، فقال ناظر ابن أبي داود، قال يا أمير المؤمنين إنه يضعف عن المناظرة، فغضب وقال أبو عبد الله يضعف عن مناظرتك أنت؟ قال هوّن عليك وأْذن لي واحفظ علي وعليه، ثم قال يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه هي مقالة واجبة داخلة في عقد الدين أفلا يكون الدين كاملاً حتى تقال؟، قال نعم، قال فأخبرني عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله هل ستر شيئاً مما أمر به؟ قال لا، قال فدعا إلى مقالتك هذه؟ فسكت فقال الشيخ يا أمير

المؤمنين واحدة، قال الواثق واحدة، ثم قال أخبرني عن الله تعالى حين قال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أكان الله هو الصادق في إكمال ديننا أو أنت الصادق في نقصانه حتى يقال بمقالتك؟ فسكت أحمد فقال الشيخ اثنتان يا أمير المؤمنين، قال نعم، فقال أخبرني عن مقالتك هذه أعلمها رسول الله أم جهلها؟ قال علمها قال فدعا إليها؟ فسكت... قال الشيخ ثلاثة، ثم قال: فاتسع لرسول الله ﷺ أن يمسك عنها ولم يطالب أمته بها؟ قال نعم، قال واتسع ذلك لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي؟ قال نعم، فأعرض الشيخ عنه وقال يا أمير المؤمنين قد قدمت القول بأن أحمد يضعف عن المناظرة يا أمير المؤمنين إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما زعم هذا أنه اتسع للنبي ﷺ وأصحابه فلا وسع الله عليك، قال الواثق نعم كذا هو... اقطعوا قيد الشيخ، فلما قطعوه ضرب بيده فأخذه، فقال الواثق لم أخذته؟ قال لأني نويت أن أوصي أن يجعل معي في كفني لأخاصم هذا به عند الله ثم بكى...، فبكى الواثق وبكينا... ثم سأله الواثق عن حاله وأمر له بصلة، فقال لا حاجة لي بها، ثم قال المهتدي فرجعت عن هذه المقالة وأظن الواثق رجع عنها يومئذ.

قال زرقان بن أبي داود لما احتضر الواثق ردد هذين البيتين:

«الموت فيه جميع الخلق مشترك   لا سوقة منهم يبقى ولا ملك
ما ضر أهل قليل في تفرقهم   وليس يغني عن الأملاك ما ملكوا»

ثم أمر بالبسط فطويت وألصق خده بالتراب وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه أرحم من قد زال ملكه، وروى أحمد بن محمد

الواثقي أمير البصرة عن أبيه قال كنت أمرض الواثق فلحقته غشية فما شككنا أنه مات، فقال بعضنا لبعض تقدموا فما جسر أحد سواي فلما أردت أن أضع يدي على أنفه فتح عينيه فرعبت ورجعت إلى خلف فتعلقت قبيعة سيفي - أي ما على مقبضه من فضة أو حديد - بالعتبة فعثرت واندق السيف وكاد أن يجرحني وجئت فوقفت ساعة فتلف الرجل فشددت لحييه وغمضته وسجيته، وأخذ الفراشون ما تحته ليردوه إلى الخزائن وترك وحده، فقال ابن أبي داود إنا نريد أن نتشاغل بعقد البيعة فاحفظه، فرددت باب المجلس وجلست عند الباب فأحسست بعد ساعة بحركة أفزعتني فدخلت فإذا بجرذون قد استل عين الواثق فأكلها فقلت لا إله إلا الله هذه العين التي فتحها من ساعة فاندق سيفي هيبة لها، وكانت خلافته خمس سنين ونصفاً مات بسامرا عام 232هـ 846م. وبايعوا بعده أخاه المتوكل.

الخليفة العباسي المهتدي بالله

(... ـ 870م)

إذا كان عمر بن عبد العزيز هو درة الخلافة الأموية فإن الخليفة المهتدي بالله هو درة الخلافة العباسية ونظيره في العباسيين، تولّى الخلافة عاماً واحداً من العام 255 وحتى العام 256هـ الموافق في 869 ـ 870م. ، ولكن لم تساعده الأيام والظروف على تحقيق الحلم المنشود. وكان ورعاً متعبداً عادلاً قوياً في أمر الله، بطلاً شجاعاً، ولكنه لم يجد ناصراً ولا معيناً. تولى في فترة مضطربة كان الأتراك يسيطرون على مقاليد الأمور يعزلون ويقتلون ويخلعون الخلفاء كما يحلو لهم وأهانوا الخلافة والخلفاء إلى أقصى حد ممكن، فتولى المهتدي بالله وفي نيته إصلاح الأمة والتخلص من الأتراك فبدأ في التقليل من نفوذهم وإصلاح شأن الخلافة فبدأ بنفسه فكان من الزاهدين يلبس الصوف ويأكل الملح والزيت أيام رمضان، وطرح الملاهي وحرَّم الغناء، وقصر أصحاب السلطان عن الظلم وشدد إشرافه على أمر الدواوين يجلس بنفسه أمام الكتاب للحساب، وبنى داراً سماها دار العدل للنظر في المظالم، ونفى المبتدعة والفاسقين من بغداد، وكان يحب أهل السنة والعلم حتى إنه في يوم قال لصاحبه: «رحم الله أحمد بن حنبل. والله لو جاز

لي أن أتبرأ من أبي لتبرأت منه»، وكان أبوه الخليفة الواثق من أشد الناس قولاً ببدعة خلق القرآن وقتل من أجلها أحمد بن نصر الخزاعي وفتن كثيراً من الناس.

وبعد ذلك أراد المهتدي بالله أن يتخلص من الأتراك الذين أهانوا الخلفاء ولكنه لم يجد من يقف معه ويؤيده، فتكاتف الأتراك عليه حتى قتلوه شر قتلة بعصر خصيتيه ولم يكن قد أكمل عاماً واحداً في الخلافة، وقد عدَّه كثير من أهل العلم ضمن الخلفاء الراشدين.

أبي عبد الله الشيعي
(... ـ 906م)

يروى قديماً أن النعمان بن المنذر أراد أن يبني قصراً هائلاً يفوق في بنائه قصور كسرى وقيصر، فاختار لتلك المهمة مهندساً روسياً اسمه سنمار الذي عكف مدة طويلة في تصميم قصر النعمان وشرع في تنفيذه في منطقة الخورنق فلما انتهى من تنفيذه جاء على أفضل ما يكون حتى أن النعمان انبهر به جداً. لما صعد إليه قال له سنمار إني أعلم موضع آجرة في هذا القصر لو خلعت من مكانها لانهدم القصر كله، فسأله النعمان هل يعلم أحد غيرك موضعها؟ قال لا، فأمر النعمان بقتله فوراً فكان هذا هو جزاء سنمار. وصارت مثلاً يتكرر في كل زمان ومكان مع اختلاف الأسماء والأسباب ولكنها في النهاية جزاء سنمار وأيضاً عاقبة الظالمين.

اتسمت الدولة الفاطمية في مراحل تكوينها الأولى بكثير من الغموض والخفاء الذي أحاط بأصل دعوتهم وكيفية بدايتها، ولكن في هذه المرحلة الأولية كان هناك رجل حمل على عاتقه قيام هذه الدعوة، وكان له الفضل الأكبر بل الوحيد في قيام هذه الدولة.

يرجع أصل هذه الدعوة لميمون بن ديضان، وكان لميمون ولد

اسمه عبد الله القداح تعلّم السياسة من أبيه حتى برع فيها واستطاع أن يستميل معه الكثير من الناس، وطار خبره للشيعة في العراق واليمن وأرسل عبد الله القداح إلى المغرب رجلين لنشر مذهبه، لأن هذه البلاد كان العلم فيها قليلاً والعقول ساذجة والقلوب خاوية وتصلح لبذر فكرة الدعوة. وبالفعل ذهب هذان الرجلان ونزلا على قبيلة كتامة البربرية وأقاما فيها سنوات طويلة فمالت إليهما قلوب البربر هناك، فلما ماتا أرسل ابن القداح مبعوثاً جديداً لتلك البلاد وهو أبا عبد الله الحسين بن أحمد الشيعي فكان ذلك إيذاناً بعهد جديد للدعوة الفاطمية لأن هذا الرجل اجتمع فيه من خصال الدهاء والفطنة ما مكّنه من لعب دور كبير في تلك الحقبة من الزمن.

بدأ أبو عبد الله الشيعي رحلته من مكة المكرمة في موسم الحج، وسأل عن حجاج قبيلة كتامة وجلس بجوارهم ثم فتح معهم حواراً بهرهم فيه بحسن كلامه وبلاغته وادعائه حب آل البيت، فسألوه عن وجهته فقال الديار المصرية، ففرحوا بذلك وصحبوه في الرحلة، ورأوا من عبادته وزهده ما زادهم فيه حباً وألحوا عليه أن يدخل معهم بلادهم فرفض بشدة، ثم وافق بعد إلحاح شديد، فسرَّهم ذلك وسألوه أن ينزل في قبيلتهم فنزل عندهم وقصّ لهم أحاديثاً عن النبي ﷺ في فضلهم، وأنهم الذين ينصرون مهدي آخر الزمان، جعل به قبيلة كتامة كلها تحت أمره ثم أظهر لهم حقيقة أمره وأنه صاحب البدر الذي بشر به الرجلان السابقان، ولم يذكر لهم أي شيء عن المهدي فاجتمعت عليه القبائل من كل مكان وقامت به قبيلة كتامة وحاربوا كل قبائل البربر من أجله، ومنعوا محاولات أهل العلم من مناظرته وعظم الخطب، واقتتل البربر فيما

بينهم، فرأى أبو عبد الله ضرورة التحصن في مدينة فدخلوا مدينة ناصرون وتحصنوا بها وقاتلتهم قبائل البربر ثم اصطلحوا.

كانت بلاد أفريقية والمغرب وقتها تحت حكم الأغالبة ولكنهم قد وصلوا إلى حالة من الضعف مكّنت أبو عبد الله الشيعي ومن معه من كتامة الإنتصار عليهم عدة مرات. على الطرف الآخر كان عبد الله القداح قد مات وتولى مكانه ابنه الحسين الذي ورث أسرار الدعوة من أبيه، والحسين كان متزوجاً من امرأة يهودية (كما يقال) ولها ولد، هذا الولد نشأ في كنف الحسين بن عبد الله القداح فأحبه الحسين ولم يكن له عقب فعلم هذا الولد أسرار الدعوة وسماه عبيد الله ولقّبه بالمهدي. وصار هذا الولد أول خلفاء الفاطميين وهو المهدي الذي كان أبو عبد الله الشيعي يدعو له، وعرف عبيد الله كل أسرار الدعوة وأسماء الدعاة والعلامات والأموال، ولما مات الحسين قام عبيد الله مكانه وانتشر خبره في البلاد وأرسل إليه أبو عبد الله الشيعي ليستقدمه إلى المغرب ووصلت أخباره للخليفة المكتفي فهرب المهدي وأولاده إلى المغرب وعانى الكثير من المصاعب واستعمل الدهاء والرشوة والهدايا مع أمراء البلدان التي نزل عليها أثناء رحلته حتى وصل إلى مدينة سجلماسة في جنوب المغرب ولكن أمير المدينة ارتاب منه فأمر بسجنه وتهدده بالقتل.

قام أبي عبد الله الشيعي ـ عندما وصلت إليه أخبار القبض على المهدي ـ بجمع قبائل كتامة وحارب بها جيوش الأغالبة واستولى على كثير من المدن. كل ذلك وأمير الأغالبة في لهو ولعب،

مما أدى إلى حدوث تمرد عليه من أقربائه وحدثت اضطرابات داخلية في الدولة الأغلبية واستفحل أمر أبي عبد الله الشيعي وخاض معارك ضارية مريرة مع جيوش الأغالبة حتى استولى على بلادهم كلها ودخل عاصمتهم رقادة سنة 296هـ وضبط البلاد وقاد الناس وسار فيهم سيرة حسنة، كل ذلك ولم يظهر للناس أي شيء عن المهدي. استقرت الأمور في أفريقية وقرر أبو عبد الله الشيعي مهاجمة سجلماسة لتحرير المهدي من سجنه. وبالفعل تم له ما أراد ودخل سجن سجلماسة وأخرج المهدي وقال لهم وهو يبكي متأثراً من شدة الفرح: «هذا مولاكم».

وقيل أن أبا عبد الله الشيعي عندما دخل السجن وجد المهدي مقتولاً فأخذ شخصاً مجهولاً من السجن وقال للناس أنه المهدي. وهكذا فعل أبو عبد الله الشيعي المستحيل من أجل إقامة الدعوة الفاطمية.

استقامت الأمور للمهدي ودانت له القبائل وباشر الأمر بنفسه وعزل أبا عبد الله الشيعي عن الأمر، وعز على أبي عبد الله أن ينحى عن الأمر والنهي بعد ما فعله من أجل إقامة الدولة فبدأ يشنع على المهدي ويذكر عيوبه واجتمع لكلامه الكثير، ووصلت الأخبار للمهدي فقرر قتل أبا عبد الله الشيعي خاصة بعدما عرف أن أبا عبد الله الشيعي قدح في إمامته وطعن في صحة كونه المهدي، حتى قام إنسان من كتامة يقال له شيخ الشيوخ وقال للمهدي «إن كنت المهدي فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك» فقتله المهدي وقرر قتل أبي عبد الله فوضع عليه من قتله. والعجيب أن الذي قتله كان

تلميذاً له من قبل، أراد هذا الرجل أن يقتل أبا عبد الله الشيعي قال له أبو عبد الله: «لا تفعل يا بني».

فقال الرجل: «الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك»، ثم قتله، فغضبت قبيلة كتامة عند ذلك وحاربوا المهدي كثيراً وخرجوا عن طاعته. وهكذا كانت نهاية هذا الرجل، وكان ذلك في سجلماسة - المغرب، وذلك في 24 جمادى الآخرة عام 298هـ - 906م.

أبي بكر محمد بن رائق الموصلي
(... ـ 940م)

ليس في ما بين أيدينا من مصادر ذكرٌ لتاريخ ولادة أبي بكر محمد بن رائق الموصلي. أما مكان ولادته فواضح يدل عليه لقبه (المَوْصِلي). فالرجلُ إذن من مدينة الموصل العراقية ربما ولادةً أو انتماءً.

إذا كان زمنُ ولادة الرجل مجهولا فإنَّ زمن وفاته معروف. قُتِلَ ابن رائق عام 330 هـ الموافق 940 م غيلةً، فقد اغتاله أميرُ ولاية الموصل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني شقيق سيف الدولة علي بن عبد الله الحمداني أمير حلب. لقد تخلّص ناصر الدولة منه لأنه كان منافسه الوحيد على لقب (أمير العراق).

كان ابن رائق قبل مقتله يحمل لقب «أمير الأُمراء» الذي يوازي لقب (رئيس أركان الجيش) في وقتنا الحاضر.

لم يذكر التاريخ ابن رائق إلا زمن الخليفة العباسي الراضي (322 ـ 329 هجرية) ثم الخليفة المُتقي لله (329 ـ 333 هجرية) الذي بويع بعد الراضي مباشرة.

إن الأدوار الحاسمة التي لعبها هذا القائد العسكري امتدت فترة ثماني سنوات لا أكثر 322 ـ 330، وربما أقل من ذلك بقليل.

ولكي نعرف صعوبة الفترة الزمنية التي عاصرها وصعوبة الأدوار التي قام بها هذا الرجل يكفي أن نعرف أنَّ الدولة العباسية كانت تعصف بها الفتن والاضطرابات وتمزقها الحروب الداخلية والخارجية.

كانت الحروب التي واجهها الخلفاء العباسيون ومركز الخلافة الضعيف أصلاً في بغداد عجيبة غريبة ولو أن التاريخ لا يعرف العجائب والغرائب.

أولاً ـ يقودُ مرداويج جيوشه إلى الرقة لمحاربة ابن رائق قائد جيوش الخلافة.

ثانياً ـ يزحفُ بجكم التركي إلى محمد بن رائق في واسط ويغلبُ عليه فيضطر هذا إلى الاختفاء.

ثالثاً ـ تقوم حروب في بعض مناطق ومدن بلاد الشام بين بغداد وإخشيد مصر.

رابعاً ـ تشتعلُ حروب أخرى بين بغداد وآل حمدان أُمراء الموصل وحلب.

خامساً ـ حروب متواصلة طاحنة بين بغداد والبريديين في واسط والبصرة.

سادساً ـ ماذا عن خلفاء بغداد خلال الفترة موضوعة البحث، الراضي/ المُتقي؟

كان بجكم التركي هو سيدُ بغداد والماسك بزمام الخليفة الراضي بالله. وبعد مقتل بجكم هذا أصبح توزون التركي حاكم بغداد الفعلي ومُسيّر أمور الخليفة المُتقي لله.

وتوزون التركي هذا خلع خليفته المتقي وسمل عينيه (كُحِلَ بقضيب محميّ بالنار) ثم نصّب بدله المستكفي خليفة على المسلمين في شهر صفر سنة 333هـ.

نهاية المستكفي دشّنت حقبة تاريخية جديدة في بغداد. فلقد سملَ عينيه وخلعه مُعزّ الدولة البويهي ونصّب المطيع لله خليفة.

سلطان الديلم من آل بويه في بغداد حلَّ محل سلطان الترك. لعبة تصنع التاريخ، بل وتسخّره وتسخرُ منه: ديلم/ تُرك ـ تُرك/ ديلم.

صورة جدّ قاتمة وقد لا يصدقها العقل البشري. لكأنما كانت الخلفية والأرضية التي مَهّدت لوقوع الكارثة التي حلّت ببغداد على يد هولاكو المغولي عام 656 الهجري.

ـ المتنبي وابن رائق:

هل مدح الشعراءُ القائد العسكري ابن رائق؟ ليس لدينا جواب عن هذا السؤال سوى أن الشاعر أبا الطيّب المتنبي قد ذكر اسم هذا الرجل عَرَضاً في واحدةٍ من قصائده الثماني والعشرين «طويلة وقصيرة» التي نظمها لأمير طَبَرية أبي الحُسين بَدْر بن عمّار بن إسماعيل الأَسَدي الطبرستاني.

قال المتنبي قصيدة «ومنْ يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ» التي مدح فيها

بدراً بن عمّار على الأرجح في أواخر عام 329 أو قُبيل مقتل ابن رائق عام 330 الهجري.

في ربيع الأول عام 329 بويع المتقي لله خليفةً على المسلمين وغلبَ على أمره أبو الوفاء توزون التركي. لذا فقد ذكر الشاعر أبو الطيّب المتنبي في هذه القصيدة اسم الخليفة الجديد المتقي لله ولكن بعد ذكره لأمير قادته ابن رائق.

لم يذكرْ المتنبي في شعره غير المتقي أياً من خلفاء بني العباس الستة الذين عاصرهم، وهم حسب سياق تسلسل خلافتهم الزمني: المقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمُطيع.

قال المتنبي في القصيدة وفي معرض مديحه لبدر بن عمّار الأسدي:

«حسامٌ لابنِ رائقِ المُرجّي
حسامُ المُتقّي أيامَ صالا».

وكما يشير هذا البيت، وضع الشاعرُ ابن رائق فوق ابن عمّار، فهذا حسامٌ لذاك. لكنه وكما هو متوقع وضع ابن رائق في منزلة أدنى من منزلة الخليفة المتقي لله: إنه حسام المتقي. مطلع هذه القصيدة أجمل ما فيها:

بقائي شاءَ ليس هُمُ ارتحالا
وحُسنَ الصبرِ زمّوا لا الجِمالا.

لعل من المناسب أن نذكرَ أنَّ المتنبي قد تطرق إلى ذكر ابن رائق في قصيدتين أُخريين ليس شعراً ولكن ذكراً عابراً في مقدمة هاتين القصيدتين. ففي مقدمة قصيدة «وحيدُ بني آدم» قال المتنبي:

«يمدح أبا الحسين بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي الطبرستاني وهو يومئذٍ يتولى حرب طبرية من قبل أبي بكٍ محمد بن رائق سنة 328 هجرية 939 ميلادية.

يحسن بنا أن نلفت النظر إلى أنه في العام 328 كان ما يزال الراضي خليفةً في بغداد وليس المتقي الذي بويع في ربيع الأول سنة 329.

أردنا أن نقول أن ابن رائق قد خدم كلاً من الراضي والمتقي قائداً أعلى لجيوش بغداد. وكان بدر بن عمّار تحت إمرته.

وفي مقدمة قصيدة قصيرة من أربعة أبيات كتب المتنبي: ـ وردَ كتاب من ابن رائق على بدر بإضافة الساحل إلى عمله فقال أبو الطّيب ـ:

تُهنّا بصُورٍ أمْ نُهنئها بكا
وقلَّ الذي صُورٌ وأنتَ له لكا

كان ابن عمار أميراً على طبرية فأضاف إبنُ رائقٍ إليه إمرة الساحل. وهنا ذكر المتنبي اسم مدينة صُور الساحلية التي تقع اليوم جنوب لبنان.

يتبادر إلى الذهن سؤال وجيه: لِمّ لمْ يمدح المتنبي قائداً عسكرياً معروفاً وكان فوق رجال حرب زمانه سلطاناً وقدرةً؟ ألأنَّ المتنبي ما كان يومها ميّالاً للحروب وما كان أصلاً يود التقرب من قادة الحرب؟ أم لأن ابن رائق الموصلي ما كان ذا مالٍ جمٍّ وسعة يدٍ وكَرَم؟ أم لأن ابن رائق هذا ما كان يعرف المتنبي ولم تنعقدَ بينهما أيةُ أواصر للمودّة والصداقة؟ ومن غير الود والصداقة الحميمة

والعطاء السخي أو المناسب، فضلاً عن شهامة وشجاعة الممدوح، ما كان الشاعر ليمدح أحداً.

ـ المسعودي وابن رائق:

لم يذكر المسعودي في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ابن رائق إلاّ في زمن الخليفة الراضي 322 ـ 329 هـ والخليفة المتقي لله 329 ـ 333 هـ. كما أنه لم يتوسع في تفصيل ذكر أخبار هذا الرجل مكتفياً بالقول إنَّ تفصيلات كثيرة حوله قد وردت في كتابيه «الكتاب الأوسط» وكتاب «أخبار الزمان» اللذين لم يصلا إلينا مع شديد الأسف.

وهكذا، يتضحُ لنا أنَّ ابن رائق ظهر على مسرح السياسة والحروب شخصيةً مؤثّرة وقائداً معروفاً في فترة لا تتجاوز الثمانية أعوام. أي الفترة الواقعة ما بين عام 322 هـ حتى مقتله (ابن رائق) في زمن الخليفة المتقي عام 330 الهجري.

لم يستطع بجكم وتوزون التُركيان ولا كورتَكين الديلمي من القضاء على هذا القائد العسكري العراقي لكن، للأسف الشديد، قتله غِيلةً أميرُ الموصل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني، شقيق علي بن عبد الله سيف الدولة الحمداني.

ـ حروب ابن رائق:

يُسهب المسعودي في سرد وقائع الحروب والفتن التي وقعت في زمن خلافة الخليفة المقتدر العباسي 295 ـ 320هـ حتى صعود نجم رجل يقال له مرداويج.

كان مرداويج هذا صاحب جيش ومن أصحاب رجل من الجبل يدعى أسفار ابن شيرويه. وقصة أسفار ابن شيرويه هذا تستحق الذكر. فلقد اختاره عام 317 هـ صاحب خراسان للخليفة المقتدر المدعو نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد قائداً لقتال جيوش الحسن بن القاسم الحسني الملقب بالداعي الحسني. كان هذا الداعي الحسني على رأس جيش من الجبل والديلم مُنشقاً على المقتدر خليفة بغداد. كانت الحرب أولاً على بلاد طبرستان ثم انتقلت إلى الري. لقد انتصر أسفار ابن شيرويه في نهاية الأمر وانهزم الداعي الحسني بين يديه. واستولى أسفار على بلاد طبرستان والري وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقُم وهمذان والكرخ (هكذا وردت) ودعا لصاحب خراسان نصر بن أحمد بن إسماعيل وهو أميرها للخليفة المقتدر.

ما الذي حدث بعد ذلك؟ يقول المسعودي: «... وعَظُمت جيوشهُ وكَثُرت عدّته فتجبر وطغى وكان لا يدين بملّة الإسلام وعصى صاحب خراسان وخالف عليه وأراد أن يعقد التاج على رأسه وينصب بالري سريراً من ذهب للمُلْك... فسيّر المقتدر هارون بن غريب في الحال إلى قزوين فكانت له معه حروب فانكشف هارون وقُتِل من أصحابه خلقٌ كثير...».

وتدور الدوائر على أسفار ابن شيرويه فيقتله صاحبه السابق مرداويج. ثم تدور عجلة التاريخ فيعلو شأن مرداويج وتكثر جيوشه ويشتد أمره ويُفرّق قواده في بلاد قم وكرخ ابن أبي دُلَف والبرج وهمذان وأبهر وزنجان، ويشق بدوره عصا الطاعة على خليفة بغداد

(السلطان). وكان في همذان جيش للسلطان (الخليفة) يقوده أبو عبد الله محمد بن خَلَف الدينوري. وعاون أهل همذان أصحاب السلطان فقُتِل من رجال مرداويج خلق كثير من الديلم والجبل. ثم ينتقم من أهل همذان شر انتقام جرّاء قتلهم لابن أخته الذي كان بدوره يقود جيشاً. وينتقل إلى مدينة الدينور فيستبيحها ويقتل حتى المستورين والصوفية والزهّاد ويبيح الأموال والدماء والفروج.

ـ مرداويج وابن رائق:

ومن أصبهان يتجه مرداويج إلى محمد بن رائق وهو بالرقة من بلاد ديار مُضر.

حين قصده مرداويج، كان ابن رائق على ما يبدو متأهباً لمحاربة الإخشيد محمد ابن طَغَج تنفيذاً لأوامر خليفة بغداد. فلقد كانت الحرب لا تكاد تضع أوزارها حتى تستعر ثانيةً بين بغداد وإخشيد مصر. وكانت ساحاتها بعض مدن ومناطق بلاد الشام.

يقول المسعودي إن أحد قادة ابن رائق المدعو رافع القرمطي احتال على مرداويج وتمكن من الاستفراد به وعزله عن عسكره ثم ألقاه في ماء نهر الفرات مُقيَّداً (كيف لم يمت؟).

ويعيد مرداويج سيرة سيده الذي ذبحه أسفار ابن شيرويه «فطغى وتكبّر وعَظُمت جيوشه وأمواله وعساكره وضرب سريراً من الذهب رُصّع بالجواهر وعُمِلت له بدلة وتاج من الذهب وجمع في ذلك أنواع الجواهر». ثم يلقى ذات مصير سيده الذي خان، فيقتله سنة 323 هـ في زمن الراضي رجل تركيُّ الأصل من خاصة رجاله يُسمى

بجكم يساعده تركيٌّ آخر يُسمّى توزون. وسيلعبُ هذان الرجلان فيما بعد أدواراً خطيرة في تاريخ دولة بني العباس في بغداد من تنصيب وخلع وقتل بعض الخلفاء.

- بجكم وابن رائق الموصلي:

يقول المسعودي: «... وسار بجكم التركي فيمن معه من الأتراك وقد جمعوا أنفسهم إلى أن يخلصوا من الديلم. وسار إلى بلاد الدينور فجبى منها الخراج وأخذ كثيراً من الأموال. وسار إلى النهروان على أقل من يومين من مدينة السلام فراسل الراضي وكان الغالب على أمره الساجية وعدّةٌ من الغلمان الحجرية فأبوا أن يتركوه يصل الحضرة خوفاً أن يغلب على الدولة. فمضى بجكم لما مُنِعَ من الحضرة إلى واسط إلى محمد بن رائق وكان مُقيماً بها فأدناه وحيّاهُ...، وقوي أمرُ بجكم واصطنع الرجال وضعف أمرُ ابن رائق...».

يظهرُ أن العام 323 هـ كان عاماً حاسماً بالنسبة لمحمد بن رائق. ففيه يصمد أمام رجلين قويين خطرين هما مرداويج الديلمي وبجكم التركي.

يذكر المسعودي أنَّ ابن رائق اختفى بعد أن ضعف أمره أمام بجكم التركي. وإذ قد خلا الجو لهذا ينجح في الوصول إلى حضرة الخليفة الراضي بالله ثم يرافقه في خروجه إلى ديار بني حمدان وديار ربيعة من بلاد الموصل لقتال الحسن بن عبد الله ناصر الدولة الحمداني أمير الموصل.

ما سبب وجود محمد بن رائق في واسط؟ ألقتال البريديين الذين ثاروا في البصرة وامتدت ثورتهم حتى واسط ومن ثم اشتدَّ أمرهم مع بداية خلافة المتقي؟

يبدو أن اختفاء ابن رائق من أمام بجكم التركي كان أمر خطة مدروسة جيداً، وهو الذي يُجيد وضع خطط الحرب كرّاً وفرّاً، وهو القائد الشجاع والمتمرس وذو العقلية العسكرية (الستراتيجية) بلغة زماننا. فما أن عرف بخروج الخليفة وبجكم من بغداد متجهين صوب الموصل حتى باغت أهلها بدخوله دخول القائد المُظّفر (ومعاونة الغوغاء له) فيسير إلى دار السلطان الخليفة الراضي ويقتلُ شخصاً اسمه ابن بدر السيرافي، ثم يخرج من الحضرة ويتجه إلى ديار مضر يقود جيشاً من الجبل ومن أنصاره القرامطة تحت قيادة عُمارة القرمطي ورافع القرمطي، الذي سبق له وأن استدرج في فخ محكم الديلمي مرداويج ثم ألقاه مُقيّداً في نهر الفرات حين قصد هذا الرِقّة لقتال ابن رائق كما رأينا سابقاً.

لماذا يُسيّر ابن رائق مثل هذا الجيش إلى ديار مُضر وينزل الرقة ثم يتجه نحو جند قنسرين والعواصم في حين كان الخليفة الراضي وبجكم التركي في بلاد الموصل القريبة منها؟ وقائع التاريخ تقول إنَّ ابن رائق قد سعى إلى إخراج طريفاً السُكّري من جند قنسرين والعواصم ليتولى هو أمر الثغر الشامي. ليس واضحاً من الذي قام بقتل طريف السُكّري سنة 328 هـ. هل قتله ابن رائق في حملته هذه، أم قتله غيره في مناسبة أخرى؟ هل كان طريف هذا والياً للإخشيديين على بلاد الشام؟

معارك ابن رائق كما يُثبّتها المسعودي مع الإخشيديين تُرجّح هذا الاحتمال. يقول المسعودي عن ابن رائق: «. . . ومحاربته الإخشيد محمد ابن طَغَج بالعريش من بلاد مصر وانكشافه ورجوعه إلى دمشق وما كان من قتله لأخي الإخشيد محمد ابن طغج باللجون من بلاد الأُردن، ما كان قبل وقعة العريش بينه وبين عبد الله ابن طغج وما كان معه من القوّاد. . .».

في زمن الخليفة العباسي المتقي لله 329 ـ 333 هـ قُتِلَ بجكم التركي في رجب من عام .329. ربّما خلال اضطرابات الأكراد في واسط أو من قِبَل كورتكين الديلمي الذي استولى على جيشه.

وعلى أثر مقتل بجكم التركي ينحدر ابن رائق من بلاد الشام ويحاربُ كورتكين في عكبرا، ثم يُخاتله ويدخل الحضرة وتقع بينهما معركة بالحضرة ينهزم كورتكين فيها فيستولي ابن رائق على الأمر. ثم إنَّ البريديين يدخلون الحضرة فيُضطر الخليفة المتقي إلى الخروج مع ابن رائق منها.

ـ البريديين وابن رائق:

ومما قاله المسعودي حول أمر البريديين زمن الخليفة المتقي لله حرفياً: «وإشتدَّ أمرُ البريديين بالبصرة ومنعوا السفن أن تصعد وعظُم جيشهم وكثُرَت رجالهم وصار لهم جيشان: جيش في الماء. . . وجيش في البر عظيم. واصطنعوا الرجال وبذلوا الرغائب فانضاف إليهم حجرية السلطان وغلمانه. وسار جيش السلطان الأتراك والديلم والجبل ونفرٌ من القرامطة وكل ذلك مع توزون. . . فانحدر

توزون إلى واسط لحرب البريديين وكانوا ملكوا واسط وتغلبوا عليها، فكانت بينهم سجالاً والمتقي لله لا أمر له ولا نهي».

«توزون التركي يقاتل البريديين في واسط والمتقي خليفة بغداد لا حول له ولا قوة فيطلب النجدة من آل حمدان ناصر الدولة وأخيه سيف الدولة اللذين دخلا بغداد بعد مقتل ابن رائق سنة 330 هـ 940م واستوليا على المُلك ثم قاتلا البريديين».

«يخرج المتقي إلى الموصل (لبني حمدان) فيترك توزون أمر محاربة البريديين في واسط ويعود إلى بغداد ومنها إلى بني حمدان في الموصل. ثم تقع الواقعة بين توزون وبين جيش بني حمدان في عكبرا وتكون الحرب عليهم. فرجع ـ توزون ـ إلى بغداد ثم أجمعوا ـ بنو حمدان ـ له ورجعوا إليه فتركهم حتى قربوا إلى بغداد فخرج عليهم فلقيهم وهزمهم بعد مواقعات كانت بينهم. وسار وراءهم حتى دخل الموصل وخرج منها إلى مدينة بَلَد فصالحوه على مال حملوه إليه فرجع إلى بغداد وهو مستظهرٌ بمن معه من الأتراك والجبل والديلم وكمال العُدّة والكراع».

«واضح من هذا الكلام أن توزون التركي كان هو الآمر الناهي في بغداد وما كان الخليفة المتقي إلاّ دُمية صغيرة بين يديه. وبعد أن أزاح بالموت بنو حمدان ابن رائق أصبح توزون التركي منافسهم الأكبر في السيطرة على كلٍ من بغداد وخليفتها الضعيف المغلوب على أمره فكانت الحروب سجالاً بينهم».

«لم ينسَ توزون التركيُّ طلب الخليفة حماية بني حمدان له ومكوثه بين ظهرانيهم، فدبر له مكيدة لا أخلاقية كبيرة وكال له

الوعود والعهود وشهادة الشهود أن لا يمسه بسوء إنْ هو فارق بني حمدان وقفل إلى بغداد راجعاً».

«حذّره بنو حمدان ونصحوه أن لا يصدق وعود وعهود توزون وأنه سيفتك به لكن الخليفة أبى أن يأخذ بنصيحتهم وصدّق كلام توزون فانحدر المتقي في الفرات فتلقاه أبو جعفر بن شيرزاد كاتب توزون بأحسن لقاء وأقام الأتراك له، ومضى في انحداره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى، وسار إلى الضيعة المعروفة بالسندية على شاطئ هذا النهر فتلقاه توزون هنالك وترجّل له ومشى بين يديه. . . حتى وافى إلى المضرب الذي كان ضربه له على الشط من نهر عيسى وذلك على شوط من مدينة السلام فأقام هناك. وأنفذ توزون رُسُلاً إلى دار طاهر ليُحضر المستكفي، فلما حصل المستكفي في المضرب قبض على المتقي ونهب جميع ما كان معه. . . وأُحضر المستكفي فويع له وكُحِّل المتقي فصاح وصاح النساء والخدمُ لصياحه. . . ».

يتركُ توزون الحرب مع البريديين في واسط وينصرف للحرب مع بني حمدان في الموصل، مسقط رأس ابن رائق الموصلي.

إذا كان بنو حمدان خصوماً لابن رائق ومنافسيه على لقب أمير العراق فتخلصوا منه اغتيالاً، فكيف تُرى كانت علاقة ابن رائق الموصلي العراقي بتوزون التركي؟

سجل ابن رائق السياسي والعسكري لم يعرف إلا الولاء المطلق لخلفاء بغداد الذين خدمهم قائداً عسكرياً مقداماً: الراضي والمتقي. ثمان سنوات من التفاني في خدمة بغداد ولا سيما في حروبه مع

جيوش الإخشيديين سواء على أرض الشام أو في عريش مصر.

ـ طه حسين وابن رائق:

ذكر طه حسين إبن رائق الموصلي في كتابه «من تاريخ الأدب العربي/ مع المتنبي/ العصر العباسي الثاني/ الجزء الثالث» سبع مرات. ذكره ذِكراً عابراً في سياق بحثه وتقصيه لحياة وأسفار وأشعار أبي الطيّب المتنبي في فترة تقلّبه ما بين مدن بلاد الشام المختلفة مادحاً هذا أو ذاك من الرجال.

لم يتعرض طه حسين لأية تفصيلات تخص حياة أبي بكر محمد بن رائق المَوْصِلي. لذلك تبقى أمور كثيرة غامضة أحاطت بسيرة حياة هذا الرجل الذي ظلمه فقتله بنو حمدان وأهمله التاريخ فلم يفسح له المؤرخون المكان والذّكر الذي يستحق.

وجاء ذكر محمد بن رائق في كتاب طه حسين في الصفحات 65، 111، 115، 130، 138، 141، وأخيراً في الصفحة 173.

فعلى سبيل المثال قال طه حسين في الصفحة 111 وقد بلغ المتنبي الخامسة والعشرين من العمر، أي في عام 328 الهجري ما يلي: «... في هذا الوقت اضطرب الأمرُ بين العباسيين والإخشيديين. وأقبل ابن رائق على قسمٍ عظيم من سوريا الجنوبية. وجعل إبنُ رائق على حربه في طَبَريّة بدر بن عمّار الأسدي».

وفي الصفحة 115 جاء ذِكرُ ابن رائق على الصورة التالية: «... فقد يُخيّلُ إليّ، بل أكادُ أُرجّح أنَّ المتنبي اتخذ هذا الرجل

ـ يقصد هارون بن عبد العزيز الأَوراجي الكاتب الذي كان يذهب مذهب التصوّف ـ وسيلةً إلى بدر بن عمّار. من يدري! لعله كان يريد أن يتخذ بدر بن عمّار وسيلة إلى مولاه ابن رائق».

في الصفحة 141 قال طه حسين: «... فهذا ابن رائق في أواسط سنة تسع وعشرين وثلاثمائة قد ترك الشام وعاد إلى بغداد، تركها ومعه بدر بن عمّار.... على أنَّ سنة ثلاثين وثلاثمائة لا تكاد تتقدم حتى يُقتل ابن رائق، يقتله ناصر الدولة أخو سيف الدولة الحمداني. هناك ينهض الإخشيد لاسترجاع الشام...».

هذه هي أهم المواضع التي ذكر فيها طه حسين القائد العسكري ابن رائق. وهي في أحسن أحوالها معلومات شحيحة متواضعة لا تُغني ولا تكفي مؤونة الباحث. والرجل معذور، لأنه كان معنياً بالدرجة الأولى بالأدب وخاصة بالمتنبي رجلاً وشاعراً، أو شاعراً ثم رجلاً. فإلى أين يتجه الباحث في محاولاته لتقصّي تاريخ حياة القائد العسكري العراقي ابن رائق؟[1].

---

(1) جريدة «الزمان»، العدد 1862، تاريخ 15/ 7/ 2004.

أبو الطيّب المتنبي

(915 ـ 965م)

المتنبي خلاصة الثقافة العربية الإسلامية في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة. هذه الفترة كانت فترة نضج حضاري في العصر العباسي، وهي في الوقت نفسه كانت فترة تصدع سياسي وتوتر وصراع عاشها العالم العربي. فالخلافة في بغداد انحسرت هيبتها والسلطان الفعلي في أيدي الوزراء، وقادة الجيش ومعظمهم من الأعاجم، ثم ظهور الدويلات والإمارات المتصارعة في بلاد الشام، ثم تعرض الحدود لغزوات الروم والصراع المستمر على الثغور الإسلامية ثم الحركات الدموية في داخل العراق كحركة القرامطة وهجماتهم على الكوفة.

لقد كان لكل وزير ولكل أمير في الكيانات السياسية المتنافسة مجلس يجمع فيه الشعراء والعلماء يتخذ منهم وسيلة دعاية وتفاخر ثم هم وسائل صلة بين الحكام والمجتمع بما تثبته وتشيعه من مميزات هذا الأمير وذلك الحاكم، فمن انتظم في هذا المجلس أو ذاك من الشعراء أو العلماء يعني اتفق وإياهم على إكبار هذا الأمير الذي يدير هذا المجلس وذاك الوزير الذي يشرف على ذاك.

والشاعر الذي يختلف مع الوزير في بغداد مثلاً يرتحل إلى غيره فإذا كان شاعراً معروفاً استقبله المقصود الجديد، وأكبره لينافس به خصمه أو ليفخر بصوته.

في هذا العالم المضطرب المتناقض الغارق في صراعه الإجتماعي والمذهبي كانت نشأة المتنبي وقد وعي بذكائه ألوان هذا الصراع وشارك فيه وهو صغير، وانغرست في نفسه مطامح البيئة فبدأ يأخذ عدته في أخذه بأسباب الثقافة والشغف في القراءة والحفظ. وقد رويت عنه أشياء لها دلالاتها في هذه الطاقة المتفتحة التي سيكون لها شأن في مستقبل الأيام والتي ستكون عبقرية الشعر العربي. روي أنه تعلم في كتاب كان يتعلم فيه أولاد أشراف الكوفة دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً. وروي أنه اتصل في صغره بأبي الفضل بالكوفة، وكان من المتفلسفة، فهوسه وأضله. وروي أنه كان سريع الحفظ، وأنه حفظ كتاباً نحو ثلاثين ورقة من نظرته الأولى إليه، وغير ذلك مما يروى عن حياة العظماء من مبالغات...

ولم يستقر في موطنه الأول الكوفة وإنما خرج برحلته إلى الحياة خارج الكوفة وكأنه أراد أن يواجه الحياة بنفسه ليعمق تجربته فيها بل ليشارك في صراعاتها الإجتماعية التي قد تصل إلى أن يصطبغ لونها بما يسيل من الدماء كما اصطبغ شعره وهو صبي.

هذا الصوت الناشئ الذي كان مؤهلاً بما يمتلك من طاقات وقابليات ذهنية أدرك أن مواجهة الحياة في آفاق أوسع من آفاق الكوفة تزيد من تجاربه ومعارفه فخرج إلى بغداد يحاول أن يبدأ

بصراع الزمن والحياة قبل أن يتصلب عوده، ثم خرج إلى بادية الشام يلقى القبائل والأمراء هناك، يتصل بهم ويمدحهم، فتقاذفته دمشق وطرابلس واللاذقية وحمص. كان في هذه الفترة يبحث عن فردوسه المفقود، ويهيئ لقضية جادة في ذهنه تلح عليه، ولثورة حاول أن يجمع لها الأنصار، وأعلن عنها في شعره تلميحاً وتصريحاً حتى أشفق عليه بعض أصدقائه وحذره من مغبة أمره، حذره أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل في اللاذقية، فلم يستمع له وإنما أجابه مصرّاً:

أبا عبد الإله معاذ: إني ... خفيٌّ عنك في الهيجا مقامي
ذكرتُ جسيمَ ما طلبي وإنّا ... نُخاطر فيه بالمُهَجِ الجِسَامِ
أَمِثْلي تأخذ النكبات منه ... ويجزع من ملاقاة الحِمَامِ ؟
ولو برز الزمان إليّ شخصاً ... لخضّب شعرَ مَفْرِقِهِ حُسامي

إلا أنه لم يستطع أن ينفذ ما طمح إليه. وانتهى به الأمر إلى السجن. سجنه لؤلؤ والي الأخشيديين على حمص بعد أن أحس منه بالخطر على ولايته، وكان ذلك ما بين سنتي 323 هـ، 324 هـ.

ـ البحث عن النموذج:

خرج أبو الطيب من السجن منهك القوى. . كان السجن علامة واضحة في حياته، وكان جداراً سميكاً اصطدمت به آماله وطموحاته، وأحس كل الإحساس بأنه لم يستطع وحده أن يحقق ما يطمح إليه من تحطيم ما يحيط به من نظم، وما يراه من فساد المجتمع. فأخذ في هذه المرحلة يبحث عن نموذج الفارس القوي الذي يتخذ منه مساعداً على تحقيق طموحاته، وعلى بناء فردوسه.

وعاد مرة أخرى يعيش حياة التشرد والقلق، وقد ذكر كل ذلك بشعره. فتنقل من حلب إلى إنطاكية إلى طبرية حيث التقى ببدر بن عمار سنة 328 هـ، فنعم عند بدر حقبة، وكان راضياً مستبشراً بما لقيه عنده، إن الراحة بعد التعب، والاستقرار بعد التشرد، إلا أنه أحس بالملل في مقامه، وشعر بأنه لم يلتق بالفارس الذي كان يبحث عنه والذي يشاركه في ملاحمه، وتحقيق آماله. فعادت إليه ضجراته التي كانت تعتاده، وقلقه الذي لم يبتعد عنه، وأنف حياة الهدوء إذ وجد فيها ما يستذل كبرياءه. فهذا الأمير يحاول أن يتخذ منه شاعراً متكسباً كسائر الشعراء، وهو لا يريد لنفسه أن يكون شاعر أمير، وإنما يريد أن يكون شاعراً فارساً لا يقل عن الأمير منزلة. فأبو الطيب لم يفقده السجن كل شيء لأنه بعد خروجه من استعاد إرادته وكبرياءه إلا أن السجن كان سبباً لتعميق تجربته في الحياة، وتنبيهه إلى أنه ينبغي أن يقف على أرض صلبة لتحقيق ما يريده من طموح. لذا فهو أخذ أفقاً جديداً في كفاحه. أخذ يبحث عن نموذج الفارس القوي الذي يشترك معه لتنفيذ ما يرسمه في ذهنه.

أما بدر فلم يكن هو ذاك، ثم ما كان يدور بين حاشية بدر من الكيد لأبي الطيب، ومحاولة الإبعاد بينهما مما جعل أبا الطيب يتعرض لمحن من الأمير أو من الحاشية تريد تقييده بإرادة الأمير، كان يرى ذلك استهانة وإذلالاً عبّر عنه بنفس جريحة ثائرة بعد فراقه لبدر متصلاً بصديق له هو أبو الحسن علي ابن أحمد الخراساني في قوله:

لا افتخار إلا لمن لا يضام   مدرك أو محارب لا ينام

وعاد المتنبي بعد فراقه لبدر إلى حياة التشرد والقلق ثانية، وعبّر عن ذلك أصدق تعبير في رائيته التي هجا بها ابن كروس الأعور أحد الكائدين له عند بدر.

وظل باحثاً عن أرضه وفارسه غير مستقر عند أمير ولا في مدينة حتى حط رحاله في إنطاكية حيث أبو العشائر ابن عم سيف الدولة سنة 336 هـ وعن طريقه اتصل بسيف الدولة سنة 337 هـ وانتقل معه إلى حلب.

في مجلس هذا الأمير وجد أفقه وسمع صوته، وأحس أبو الطيب بأنه عثر على نموذج الفروسية الذي كان يبحث عنه، وسيكون مساعده على تحقيق ما كان يطمح إليه. فاندفع الشاعر مع سيف الدولة يشاركه في إنتصاراته. ففي هذه الإنتصارات أروع بملاحمه الشعرية. استطاع أن يرسم هذه الحقبة من الزمن وما كان يدور فيها من حرب أو سلم. فيها تاريخ وإجتماع وفن. فانشغل انشغالاً عن كل ما يدور حوله من حسد وكيد، ولم ينظر إلا إلى صديقه وشريكه سيف الدولة. فلا حجاب ولا واسطة بينهما، وكان سيف الدولة يشعر بهذا الاندفاع المخلص من الشاعر ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره من الشعراء. وكان هذا كبيراً على حاشية الأمير.

وكان أبو الطيب يزداد اندفاعاً وكبرياءً واحتقاراً لكل ما لا يوافق هذا الاندفاع وهذا الكبرياء.. في حضرة سيف الدولة استطاع أن يلتقط أنفاسه، وظن أنه وصل إلى شاطئه الأخضر، وعاش مكرماً مميزاً عن غيره من الشعراء. وهو لا يرى إلى أنه نال بعض حقه،

ومن حوله يظن أنه حصل على أكثر من حقه. وظل يحس بالظمأ إلى الحياة، إلى المجد الذي لا يستطيع هو نفسه أن يتصور حدوده إلى أنه مطمئن إلى إمارة عربية يعيش في ظلها وإلى أمير عربي يشاركه طموحه وإحساسه. وسيف الدولة يحس بطموحه العظيم، وقد ألف هذا الطموح وهذا الكبرياء منذ أن طلب منه أن يلقي شعره قاعداً وكان الشعراء يلقون أشعارهم واقفين بين يدي الأمير، واحتمل أيضاً هذا التمجيد لنفسه ووضعها أحياناً بصف الممدوح إن لم يرفعها عليه. ولربما احتمل على مضض تصرفاته العفوية إذ لم يكن يحس مداراة مجالس الملوك والأمراء، فكانت طبيعته على سجيتها في كثير من الأحيان.

وهذا ملكان يغري حساده به فيستغلونه ليوغروا صدر سيف الدولة عليه حتى أصابوا بعض النجاح، وأحس الشاعر بأن صديقه بدأ يتغير عليه، وكانت الهمسات تنقل إليه عن سيف الدولة بأنه غير راض، وعنه إلى سيف الدولة بأشياء لا ترضي الأمير وبدأت المسافة تتسع بين الشاعر وصديقه الأمير. ولربما كان هذا الاتساع مصطنعاً، إلا أنه اتخذ صورة في ذهن كل منهما، وأحس أبو الطيب بأن السقف الذي أظله أخذ يتصدع، اعتاده قلقه واعتادته ضجراته وظهرت منه مواقف حادة مع حاشية الأمير، وأخذت الشكوى تصل إلى سيف الدولة منه حتى بدأ يشعر بأن فردوسه الذي لاح له بريقه عند سيف الدولة لم يحقق السعادة التي نشدها. وكان موقفه مع ابن خالوية بحضور سيف الدولة واعتداء ابن خالوية عليه ولم يثأر له الأمير أصابته بخيبة أمل، وأحس بجرح لكرامته لم يستطع أن يحتمل فعزم على مغادرته ولم يستطع أن يجرح كبرياءه بتراجعه،

وإنما أراد أن يمضي بعزمه. فكانت مواقف العتاب والعتاب الصريح، ووصل العتاب إلى الفراق. وكان آخر ما أنشده إياه ميميته في سنة 345 هـ ومنها:

لا تطلبنّ كريماً بعد رؤيته   إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره   قد أُفسد القول حتى أُحمد الصمم

ـ البحث عن الأمل:

فارق أبو الطيب سيف الدولة وهو غير كاره له، وإنما كره الجو الذي ملأه حساده ومنافسوه من حاشية سيف الدولة. فأوغروا قلب الأمير، فجعل الشاعر يحس بأن هوة بينه وبين صديقة يملؤها الحسد والكيد، وجعله يشعر بأنه لو أقام هنا فلربما تعرض للموت أو تعرضت كبرياؤه للضيم. فغادر حلباً، وهو يكن لأميرها الحب، لذا كان قد عاتبه وبقي يذكره بالعتاب، ولم يقف منه موقف الساخط المعادي، ولذا بقيت الصلة بينهما بالرسائل التي تبادلاها حين عاد أبو الطيب إلى الكوفة من كافور حتى كادت الصلة تعود بينهما. فارق أبو الطيب حلب إلى مصر وفي قلبه غضب كثير، وكأني به أطال التفكير في محاولة الرجوع إلى حلب ومن ثم يضع خطة لفراقها ثم الرجوع إليها ولكن لا يرجع إليها شاعراً فقط إنما يزورها ويزور أميرها عاملاً حاكماً لولاية يضاهي بها سيف الدولة، ويعقد مجلساً يقابل سيف الدولة. من هنا كانت فكرة الولاية أملاً في رأسه ظل يقوى وأظنه هو أقوى الدوافع. دفع به للتوجه إلى مصر حيث كافور الذي يمتد بعض نفوذه إلى ولايات بلاد الشام.

في مصر واجه بيئة جديدة، ومجتمعاً آخر، وظروفاً اضطرته إلى

أن يتنازل في أول الأمر عما لم يتنازل عنه، وهو عند سيف الدولة. ثم هو عند ملك لا يحبه، ولم يجد فيه البديل الأفضل من سيف الدولة إلا أنه قصده آملاً، ووطن نفسه على مدحه راضياً لما كان يربطه في مدحه من أمل الولاية، وظل صابراً محتملاً كل ذلك. وأخذ يخطط إلى أمله الذي دفعه للمجيء إلى هنا، ويهدأ كلما لاح بريق السعادة في الحصول على أمله، وهو حين يراوده نقيض لما يراه من دهاء هذا الممدوح الجديد ومكره تنعصر نفسه، ويحس بالحسرة على فراقه صديقه القديم. وفي هذه البيئة الجديدة أخذ الشعور بالغربة يقوى في نفسه بل أخذ يشعر بغربتين غربته عن الأهل والأحبة وعما كان يساوره من الحنين إلى الأمير العربي سيف الدولة، ويزداد ألمه حين يرى نفسه بين يدي أسود غير عربي إلا أنه حين يتذكر جرح كبريائه يعقد لسانه ويسكت، وغربته الروحية عمن حوله والتي كان يحس بها في داخله إحساساً يشعره بالتمزق في كثير من الأحيان. وظل على هذا الحال لا تسكته الجائزة، ولا يرضيه العطاء، وظل يدأب لتحقيق ما في ذهنه ويتصور أنه لو حصل عليه لحقق طموحه في مجلس كمجلس سيف الدولة تجتمع فيه الشعراء لمدحه فيستمع لمديحه وإكباره على لسان الشعراء بدلاً من أن يؤكد كبرياءه هو على لسانه، ولربما كان يريد إطفاء غروره بهذا إلا أن سلوكه غير المداري وعفويته التي رأيناها باباً سهلاً لدخول الحساد والكائدين بينه وبين الحاكم الممدوح، ثم حدّته وسرعة غضبه وعدم السيطرة على لسانه، كان كل ذلك يوقعه في مواقف تؤول عليه بصور مختلفة وفق تصورات حساده ومنافسيه. وأكاد أعتقد أنه كان مستعداً للتنازل عن كل جوائزه وهباته لمن كان

يتصور أنه كان يريد أن يتربع على عرش الشعر من أجل جائزة كافور وعطائه، ثم يصوره بصورة تشوه إحساسه وتزور مشاعره. وذلك هو الذي يغيظه ويغضبه ويدفعه إلى التهور أحياناً وإلى المواقف الحادة. كل ذلك يأخذ طابعاً في ذهن الحاكم مغايراً لما في ذهن الشاعر.

هكذا بدأت المسافة تتسع بينه وبين كافور، وكلما اتسعت المسافة كثر في مجالها الحاسدون والواشون، وكلما أحس الشاعر، ولو وهماً، بازورار كافور عنه تيقظت لديه آفاق جديدة لغربته، وثارت نفسه وأحس بالمرارة إحساساً حاداً. كان يحس بالحق، وبأنه لم يطلب فوق حقه، ولم يتصرف بما هو خطأ لأنه لم يصدر منه تجاوز على حق أحد إلا أن هذا التصور البريء في ذهن الشاعر بعيد عن واقع الصورة التي في ذهن حاشية كافور، وما يصل إلى كافور من أقوال عن الشاعر وعادة المتملقين من الوجهاء يتوصلون إلى الحاكم بواسطة حاشيته وإغراء بعض أفرادها بأن يكونوا جسوراً بينهم وبين سيدهم، هذه الجسور قد تقطع عند الحاجة بين الحاكم وبين خصومهم. أما أبو الطيب فلم يكن يحسن هذا اللون من التظاهر ولم يكن يفكر بهذا اللون من التصور، وإنما كان صريحاً بكل شيء في رضاه وسخطه صريحاً بما يرغب دون احتيال ولا محاورة، فما دام يشعر بالحق طالب به دون تأجيل.

هذه الصراحة كثيراً ما أوقعته في مواقف حرجة، عند سيف الدولة، وهنا أيضاً عند كافور، لذا صارت للمتنبي صورة الغول في نفس كافور، وبأنه المخيف الذي سينزوي على ملكه إذا أعطاه

ما يمكنه من ذلك، وهكذا ظل الشاعر يرغب، ويلح في رغبته، وظل كافور يداوره ويحاوره، وهو لون من الصراع الدرامي بين حاكم يحسن الاحتيال والمداورة وشاعر صريح لا يحسن من ذلك شيئاً، حتى وصل الشاعر إلى حالة لم يستطع بعدها أن يبقى صامتاً، وشعر كافور برغبته في مغادرته فظن أن تشديد الرقابة عليه وإغلاق الحدود دونه سيخيفه ويمنعه من عزمه، ويخضعه كما يفعل مع غيره من الشعراء بالترهيب حيناً والذهب حيناً آخر. إلا أن أبا الطيب لم يعقه ذلك كله عن تنفيذ ما عزم عليه بعد أن أحس باليأس من كافور، ولذعه الندم على ما فعل بنفسه في قصده إياه.

وعاودته ضجراته التي أحس بها وهو عند أكثر أصدقائه إخلاصاً وحباً وظل يخطط إلى الهرب، ويصر على تحدي كافور ولو بركوب المخاطر حتى وجد فرصته في عيد الأضحى، وخرج من مصر، وهجا كافوراً أهاجي مُرّة وساخرة.

ـ الاضطراب واليأس:

إن تحدي أبي الطيب لسلطة كافور في هروبه وركوبه كل المخاطر، ثم هذه الطاقة المتفجرة من السخط والغضب في هجائه، كل ذلك يدل على مبلغ اليأس والندم في نفسه، ويبدو أنه كان حائراً حين فارق سيف الدولة، وحاول أن يمنع نفسه من التوجه إلى كافور إلا أنه رجح أمر توجهه إلى مصر بعد إطالة فكر. ويبدو أنه كان قد فكر بهذه النتيجة اليائسة من ملك مصر لذا نراه وكأنه أراد أن يتقدم من نفسه على ارتكابه خطيئة التوجه إليه واحتمالها مدحه، والتقيد بأوامره حيناً. فقد حاول بأي وجه أن يشعر

بالإنتصار على هذه السلطة، نجده تحداه في هروبه، ثم نقرأ هذا الفخر بالشجاعة والفروسية في اقتحام المخاطر في طريقه إلى الكوفة في مقصورته:

ضربت بها التيه ضرب القمار إما لـهـذا وإما لـذا
إذا فزعت قدمتها الجياد وبيض السيوف وسمر القنا
فلما انحنا ركزنا الرماح فوق مكارمنا والعمل
وبتنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أني الفتى

عاد إلى الكوفة وهو في أشدّ الحاجة إلى الاستقرار إلا أنه لم يستطع الإقامة فيها طويلاً، فذهب إلى بغداد حيث مجلس المهلبي الذي يجتمع فيه جماعة من الشعراء والأدباء، وكان المهلبي يطمع بمدح أبي الطيب فلم يحصل إلا على زيارة الشاعر لمجلسه.

سئم أبو الطيب من جو الخلاعة والمجون الذي يحيط بالمهلبي ويظهر أنه كان مذ نزل الكوفة كان يفكر في صديقه الحمداني وبأسباب الصلة به. فالشاعر لم يرد أن يتورط بمدح المهلبي والبويهيين في بغداد لكي يحافظ على العلاقة بينه وبين سيف الدولة لما كان بين سلطة بغداد وحلب من عداء.

ثم أن أبا الطيب في هذه المرحلة التي ينال فيها من الشهرة والمجد لم يجد ما يحققه من مدحه للمهلبي، بل كان يراه أقل منه شأناً وأدباً. وظل صامتاً حتى عن رد الشعراء الذين حرضهم المهلبي عليه فهجوه أقذع الهجاء، فلم يجبهم، وكذلك حرض الحاتمي عليه فكانت تلك المناظرة الحاقدة التي سجلها الحاتمي في

رسالته الموضحة. فكان أبو الطيب وقوراً حيناً وحاداً أحياناً، ويغضي عن كل ذلك أواناً، وكان مكتفياً في لقاء محبي شعره وطالبي أدبه في دار صديقه علي بن حمزة البصري الذي كان قد نزل فيها.

عاد إلى الكوفة بعد أن أقام في بغداد سبعة أشهر، ويظهر أنه أراد أن يبتعد عن هذا الجو الصاخب فيها ليستقر في مكان يفكر فيه بعقد أسباب الصلة بأمير حلب. وفعلاً وصلت إليه هداياه وأرسل إليه شعراً ولم يطق الإقامة في الكوفة لما كان فيها من الحوادث الدموية بسبب هجوم القرامطة عليها، واشترك المتنبي في الدفاع عنها. وعاودته الرغبة إلى الرحيل إذ كان يجد فيه متنفساً عن قلقه، ولما جاءته رغبة ابن العميد من أرجان في زيارته رحل إليه ومنه إلى عضد الدولة في شيراز. وكأن رحلته هذه كانت لقتل الفراغ الذي أحس به بعد طول معاناة ولامتصاص التمزق الذي كان يعانيه، وربما كان في نفسه غرض آخر هو تقوية صلته بعضد الدولة وذوي الجاه كابن العميد ليقوى مركزه في بغداد بل ليكون أقوى من صاحب الوزارة فيها الذي حرض من لديه من الشعراء على هجائه. وكان عضد الدولة يقيم بشيراز ويتطلع لخلافة أبيه للحكم في بغداد، وبحاجة لشاعر كبير يقدمه للناس ويعرفهم بخصاله. وفي طريق عودته إلى بغداد كان مقتله قريباً من دير العاقول 354 هـ 965م وكان مع المتنبي جماعة من أصحابه وابنه محسد وغلامه مفلح اللذان قتلا معه على يد فاتك بن أبي جهل الأسدي وجماعته.

أبو فراس الحمداني

(932 ـ 968م)

هو الشاعر والأمير الحمداني أبو فراس. ولد في الموصل عام 932 حيث كانت أسرته. ولم يكتب له أن يعيش في كنف والده، فقد قتل الأب يوم كان الصبي في الثانية أو الثالثة من عمره، قتله ناصر الدولة ابن أخيه لأنه زاحمه على ولاية الموصل.

نشأ أبو فراس في رعاية ابن عمه سيف الدولة الذي ضمه إلى عائلته وحمله معه إلى بلاطه في حلب حيث اتصل بالعلماء والأدباء فأخذ عنهم. تدرب على الفروسية والقتال، فرافق ابن عمه في غزواته، وحارب الروم، وأخضع القبائل الثائرة، مما جعل سيف الدولة يثق به فيوليه إمارة منبج وهو دون العشرين من عمره. وكانت هذه الإمارة أخطر ثغر من ثغور الدولة الحمدانية وأسهل طريق ينفذ منه البيزنطيون إلى بلاد الشام، فسهر عليها يدفع عنها أطماع الروم، ويرد عنها غارات القبائل التي ثارت على الحمدانيين بفعل دعاية القرامطة.

ولكن النصر الذي حالف أبا فراس في حروبه خانه ذات يوم

فوقع أسيراً بين أيدي الروم الذين ساقوه إلى خرشنة ثم إلى القسطنطينية، وهناك طال أسره.

وكان يأمل أن يسرع ابن عمه إلى افتدائه ولكن أمير حلب أبطأ في ذلك، فضاق صدر الشاعر ونظم في أسره أروع أشعاره التي عرفت بـ«الروميات» وفيها يشكو من إبطاء سيف الدولة في افتدائه، ويتأمل من انصرافه عنه، ويبث حنينه إلى أمه العجوز وأهله وأصدقائه، وإلى منبج ملاعب صباه.

اغتيل في العام 968 بعد استيلائه على حمص بعد وفاة سيف الدولة.

بديع الزمان الهمذاني
(969م - 1008)

يعد بديع الزمان الهمذاني المبتكر الأول لفن المقامة الذي انتشر على نحو واسع كأحد فنون النثر في الأدب العربي، كما يعد الرائد الحقيقي للصحافة، ليس في الأدب العربي فحسب، وإنما كان الصحفي الأول على الإطلاق، فقد كانت رسائله ومقاماته النقدية الإجتماعية هي البدايات الحقيقية الأولى لذلك الفن الذي عُرف فيما بعد بالصحافة.

- الميلاد والنشأة:

ولد بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذاني في همذان (همدان) وسط إيران بالقرب من طهران سنة 969م، لأسرة عربية ذات علم وفضل ومكانة مرموقة، فقد كان أخوه الحسين بن يحيى مفتي همذان.

نشأ بديع الزمان في بيئة علمية خصبة، حيث كانت همذان موطن عدد كبير من العلماء الأعلام الذين تتلمذ على يديهم بديع الزمان، ومنهم أحمد بن فارس اللغوي المعروف، وأبو بكر محمد بن الحسين الفراء اللغوي الشهير.

عندما بلغ بديع الزمان الثانية والعشرين من عمره غادر همذان متوجهاً إلى أصبهان حيث اتصل بالصاحب بن عباد وزير بني بويه.

كانت أصبهان ـ عاصمة بني بويه ـ مدينة جميلة حافلة بالمناظر الساحرة والبساتين البديعة، والقصور الفخمة والطبيعة الفاتنة، ولذلك فقد كانت تجذب إليها الأدباء والشعراء، وكان للصاحب بن عباد دور كبير في تشجيع الأدباء والعلماء وإثراء الحركة الأدبية والعلمية في أصفهان، حتى غدت تلك المدينة، إحدى منارات العلم في ذلك العصر، ومحط أنظار العلماء والأدباء، وكعبة طلاب العلم من كل مكان.

ـ في أصفهان:

أقبل بديع الزمان على مجالس الأدباء والشعراء في أصفهان، وسرعان ما جذب إليه الأنظار ببراعته وقوة حافظته، حتى إنه كان يحفظ وينشد الشعر، لم يسمعه قط ـ وهو أكثر من خمسين بيتاً ـ إلا مرة واحدة، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها ولا يخرم حرفاً، وينظر في الأربع أو الخمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذّها عن ظهر قلب هذا ويسردها سرداً.

كان الهمذاني يميل إلى الإسجاع والإغراب والأحاجي، وكان بارعاً متفرداً في هذا الباب، يروى أنه كان يُقترح عليه عمل قصيدة وإنشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة، وكان ربما كتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخره، ثم هلم جرّاً إلى أوله، ويخرجه كأحسن شيء وأملحه.

عُرف بسرعة بديهته وحضور ذهنه وقدرته الفائقة على النظم والارتجال، لا يكاد يباديه أحد أو يجاريه إنسان، فكان يُقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرجله أسرع من الطرف على ريق لم يبلغه، ونفس لا يقطعه، وكلامه كله عفو الساعة وفيض اليد ومسارقة القلم، ومسابقة اليد للفم، وكان يترجم ما يُقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغربية بالأبيات العربية.

ـ الرحيل إلى نيسابور:

إن بديع الزمان السُّنّي المتعصب لم يستطع الاندماج في مجتمع بني بويه وبلاط الصاحب بن عباد الشيعي، ولم يطل مقام بديع الزمان بأصبهان، فتركها إلى جرحان، حيث أقام في كنف أبي سعيد محمد بن منصور، واتصل بأميرها شمس المعالي قابوس بن وشمكير أمير الدولة الزبادية، وكان أديباً بليغاً، وله معه مراسلات بديعية.

غير أن بديع الزمان لم يلبث أن غادر جرحان لخلاف بينه وبين أبي سعيد، فاتجه إلى نيسابور سنة 992م.

كانت نيسابور أعظم مدن خراسان في ذلك الوقت، وكانت ملتقى العلماء وأعلام الفكر والأدب، وكان العلماء والأدباء كثيراً ما يعرّجون عليها في رحلاتهم بين المشرق والعراق، فيقيمون فيها بعض الوقت.

ذاعت شهرة بديع الزمان في نيسابور بعد مناظرته الشهيرة مع العالم الأديب أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي وإنتصاره عليه

بشكل لفت الأنظار إلى قدراته الأدبية الفذة، فطار بذلك صيته وعلت شهرته.

استطاع بديع الزمان خلال فترة إقامته في نيسابور إملاء عدد كبير من المقامات بلغت أربعمائة مقامة، وقد اتصل خلالها بعدد كبير من أدباء نيسابور وأعلامها مثل: الأديب أبي نصر سهل بن المرزبان، وأبي جعفر الميكالي أحد وجهاء آل ميكال المقدّمين، وقد مدحه بديع الزمان ونال عطاءه، كما كانت له صلة طيبة بواحد من أكبر وجهاء نيسابور وهو أبو الطيب سهل بن محمد الصعلوكي، وكانت له حظوة ومكانة كبيرة عنده.

طاب المقام لبديع الزمان في نيسابور بعدما نال من الشهرة والحظوة، ورغب في الاستقرار فيها، ولكن حساده ومنافسيه سعوا بالوشاية ضده والدسائس عليه حتى أوغروا عليه أبا جعفر الميكالي، والصعلوكي، فحُرِم مما كان ينعم به من الشهرة والجاه والعطاء.

- في ربوع خراسان:

لم يمضِ عام على قدوم الهمذاني إلى نيسابور حتى خرج منها في أوائل سنة 993م إلى سرخس حيث اتصل بالسلطان محمود الغزنوي الذي قربه وأحسن إليه، وأغدق عليه من عطاياه، وهناك تعرف إلى عدد كبير من أعيان سرخس وعلمائها. ولكنه لم يلبث أن شد عصا الترحال إلى بجستان، فلقي ترحيباً كبيراً من أميرها خلف بن أحمد، ووجد في كنفه عيشاً رغداً وحياة ناعمة هانئة، ومكانة كريمة، ولكن دسائس الحساد ومكائد المنافسين سرعان

ما أفسدت ما بينه وبين الأمير، فتغير عليه، وعندئذ رحل إلى بوشينج، وهناك توثقت صلته بالوزير أبي نصر الميكالي، وبعد أن استقر فيها زمناً، رحل إلى هراة.

ـ الاستقرار في هراة:

كان سرور الهمذاني كبيراً بهذه البلدة، وبالرغم مما شهدته تلك المدينة من الاضطرابات ـ نتيجة الحروب الكثيرة التي تعرضت لها، وتغير الولاة عليها، والمحن المختلفة التي أصابتها من غلاء وفقر ومصادرات وأمراض ـ فإن الهمذاني فضل الاستقرار فيها، وعاش فيها حتى توفي.

كان بديع الزمان يرصد كل ما يحدث بها من ظواهر إجتماعية، وأحداث سياسية، ونكبات إقتصادية، ومعارك حربية، ويسجل كل ما يراه من الجوانب السلبية التي سادت نواحي الحياة المختلفة في عصره، حتى غدت رسائله مصدراً مهماً من مصادر التاريخ الإجتماعي لهراة في العقد الأخير من القرن الرابع الهجري.

في هراة استطاع الهمذاني أن يصيب قدراً كبيراً من الثراء، وأن يحقق نجاحاً ملحوظاً في نشاطه التجاري، فتوسعت علاقاته التجارية حتى بلغت مدينة بلخ، وقد ساعده على ذلك زواجه من ابنة أبي علي الحسين الخشنامي ـ أحد أعيان هراة ـ بالإضافة إلى رعاية الوزير أبي نصر الميكالي له، وتوطد علاقته بحاكم هراة أبي عامر عدنان بن محمد الضبي وأبي العباس الفضل بن أحمد الإسفراييني ووزير السلطان محمود الغزنوني.

ـ من أقوال العلماء فيه:

قال عنه الثعالبي: «هو بديع الزمان ومعجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر، وغرة العصور، ومن لم يُدرك قرينه في النثر وملحه، وغرر النظم ونكته، ولم يُر أن أحداً بلغ مبلغه من الأدب وسرّه، وجاء بمثل إعجازه وسمره، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب».

ويصف الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن دست ـ جامع رسائل الهمذاني ـ بقوله: «وكان أبو الفضل طلق البديهة، سمح القريحة، شديد العارضة، زلال الكلام عذبه، فصيح اللسان غضبه، إن دعا الكتابة أجابته عفواً، وأعطته قيادتها صفواً، أو القوافي أتته ملء الصدور على القوافي، ثم كانت له طرق في الفروع هو افترعها، وسننٌ في المعاني هو اخترعها».

ـ رسائل بديع الزمان:

على الرغم من الشهرة الواسعة التي حققها بديع الزمان كأديب ورائد من رواد فن المقامة في الأدب العربي، وشاعر متميز، فإنه لم يترك نتاجاً أدبياً وشعرياً كبيراً، حيث لم يقدم ـ طوال عمره ـ سوى ثلاثة مصنفات هي: الرسائل، والمقامات، والديوان، ولكنه بالرغم من قلة إنتاجه فقد ترك بصمات واضحة على الأدب العربي، وكان واحداً من أبرز رواده، ومن المبدعين القلائل الذين ابتكروا ألواناً من الأدب لم يسبقهم إليها غيرهم.

برع الهمذاني في فن الرسائل، كغيره من كبار أدباء عصره في القرن الرابع الهجري، الذي كان من أزهى عصور النثر الفني

والكتابة الأدبية في تاريخ الأدب العربي، فقد كان القرن الرابع هو العصر الذهبي لكتابة الرسائل، واتسمت الكتابة فيه بالإغراق في ألوان البديع، والولع بالزخارف اللفظية، حتى غدت الرسائل وكأنها نسيج رائع موشّى بالأسجاع، محلّى بالمحسنات البديعية ولآلئ البيان.

انقسمت الرسائل تبعاً لأغراضها وأساليبها إلى نوعين:

الرسائل الديوانية: وهي التي تكتب في شؤون الدولة، وتسجل الأحداث التاريخية أو الأوامر والتوجيهات الرسمية إلى الولاة والأمراء والقواد وكبار الموظفين في الدولة. وكان من أشهر كتاب هذه الرسائل: أبو الفضل بن العميد، والصاحب بن عباد، والوزير المهلبي، والأمير قابوس بن وشمكير.

الرسائل الإخوانية: وهي التي يكتبها الأدباء عامة من غير العاملين في دواوين الدولة، وهي غير محددة بموضوعات معينة، وإنما يكتبها الأدباء في مناسبات خاصة أو مطارحات أدبية ومساجلات بلاغية فيما بينهم.

وكان من أشهر كتاب تلك الرسائل - بالإضافة إلى من سبق -: أبو حيان التوحيدي، وأبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني.

لقد ترك بديع الزمان تراثاً وافراً من الرسائل التي عكست بوضوح انطباعاته النفسية العميقة، وحسه الفني المرهف، ومزاجه الأدبي الرفيع، وكشفت بجلاء عن خلجاته وأحاسيسه وكثير من جوانبه النفسية وحالاته الوجدانية من فرح وسرور، أو تشاؤم

وحزن، أو شكوى ونقمة، وتظهر شجاعته واعتداده بنفسه، فهو لا يبالي في هجومه على من يتعرض لنقدهم، وإظهار الجوانب السلبية التي يراها في أعمالهم وسلوكهم.

تناول الهمذاني في رسائله العديد من الأغراض: كالمدح والهجاء، والشكوى والعتاب، والتهنئة والاعتذار، والاستعطاف والاستجداء، والنصح والإرشاد، والصداقة والإخاء، والفخر والاعتزاز بالنفس.

كما حظيت الحياة العامة والجوانب الإجتماعية ـ وخاصة العيوب والسلبيات التي كانت منتشرة في زمانه ـ بنصيب وافر من رسائله، ولعله في ذلك يكون أول رائد لفن المقالة الصحفية في الأدب العربي، بل ربما كان أول صحفي على الإطلاق عند العرب وغير العرب، فليست رسائله التي تناول فيها المشاكل العامة نقداً وبناءً إلا مقالات صحفية مبكّرة، وإذا كانت ميزات الصحافة الحديثة سرعة انتشار الصحيفة، فإن رسائل بديع الزمان شأنها في ذلك شأن غيرها من رسائل معاصريه، فلقد كانت سرعان ما تصل إلى كل مكان من الأرض الإسلامية، يتلقفها الناس ويقرأونها.

ويعني الهمذاني في رسائله بانتقاء الألفاظ الموسيقية العذبة، كما يحرص على توليد الصور المختلفة في غير تكلف ولا عنت، فهو يردد المعنى الواحد بصور شتى، وصيغ متعددة، كما يحرص على الاقتباس من القرآن الكريم، والشعر العربي، ويهتم بألوان البيان كالاستعارة والتشبيه، كما يولع بالمحسنات البديعية كالسجع والجناس والطباق المقابلة.

ـ مقامات بديع الزمان:

ترجع شهرة بديع الزمان الهمذاني إلى مقاماته الشهيرة التي كان له فضل السبق إليها، فهو أول من ابتكر فكرتها، وأطلق عليها هذا الاسم حتى اشتهر بها، وقد أعجب كثير من الأدباء بهذا اللون الجديد من فنون الأدب، فاقتفوا أثره ونسجوا على منواله.

وأصل المقامة في اللغة: المجلس والجماعة من الناس، وقد أُطلقت على المحاضرة، كما أطلقت على المجالس التي كان يستقبل فيها الخلفاء الأدباء والعلماء.

ويذكر الثعالبي في ترجمته لبديع الزمان أنه أملى أربعمائة مقامة بنيسابور، ولكن الذي وصلنا منها لا يتجاوز اثنتين وخمسين مقامة فقط. وقد اخترع الهمذاني بطلين لمقاماته، سمى أحدهما عيسى بن هشام، والآخر أبا الفتح الإسكندري، وجعل الأول رواية، والثاني بطلاً مغامراً.

ولم يحرص بديع الزمان على أن يظهر أبا الفتح في جميع المقامات، بل كان يقلل من شأن مغامراته أحياناً ويغفل ذكره أحياناً، وشخصية أبي الفتح الإسكندري شخصية مثيرة متعددة الجوانب، تثير العجب وتدعو إلى الإعجاب، فهو يحترف الكُدية (التسول)، ويتميز بالفصاحة في اللسان، والبراعة في الشعر، كما أنه شخصية فكاهية مرحة، يتسم بالذكاء وخفة الظل، محب للمغامرة وارتياد المجهول.

وموضوعات المقامات ـ في معظمها ـ ذات صلة بالناس،

وتتعلق بالحياة اليومية والمشكلات العامة، وتصور أخلاق المعاصرين وأحوال العصر أحسن تصوير.

وتتميز المقامات بكثرة الشواهد الشعرية، وحسن المواءمة بين الشعر والنثر، كما تظهر فيها قدرات الهمذاني البيانية العالية، وبراعته الفائقة في استخدام المحسنات البديعية.

- بديع الزمان شاعراً:

لم يكن الهمذاني وحده من بين أدباء عصره الذي اقتحم ميدان الشعر، فإن كثيراً من معاصريه مارسوا نظم الشعر حتى أصبح ذلك تقليداً متبعاً عند قدامى الكتّاب الذين حافظوا على تلك الظاهرة، وتوارثوها، حتى إننا لنجد أثراً منها لدى كثير من الكتاب في العصر الحديث، مثل عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، ومصطفى صادق الرافعي، وطه حسين.

ويحتل المديح الجانب الأكبر من ديوان الهمذاني، وتتوزع بقية الأغراض في الجزء المتبقي من الديوان. ويتفاوت شعره من حيث الجودة، وأجود شعره في أغراض المدح، فإذا كتب في غيره من الأغراض قل نصيبه من الجودة، وصارت طبيعة الكاتب هي الغالبة عليه.

ومن شعره الجيد في الحكمة:

يا من يطيل بناءه متوقياً ... ريب المنون وصرفه لا تُحْرَجِ
فالموت يفرغ كل قصر شامخٍ ... والموت يفتح كل باب مرْتَجِ

ومن شعره في الوصف، ويتجلى فيه كلفه بالمحسنات البديعية:

خلع الربيع على الربى وربوعها خزاً وبزّا
أوَما ترى الأقطار قد أخذت من الأمطار عِزّا

ومن شعره في مدح السلطان محمود بن سبكتكين:

أطلت شمس محمود على أنجم ساحان
وأمسى آل بهرام عبيداً لابن خاقان
إذا ما ركب الفيل لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطانا على منكب شيطان

وتوفي بديع الزمان الهمذاني في 23 شباط/ فبراير 1008م عن عمر بلغ أربعين عاماً، وتذكر الروايات أنه مات بالسكتة، وعُجّل بدفنه فأفاق في قبره، وسمع صوته بالليل، فنُبش عنه، فوجدوه قابضاً على لحيته، ولكن ابن خلكان يذكر أنه مات مسموماً دون أن يشير إلى من دس له السم، أو أن له أعداء.

السلطان ألب أرسلان السلجوقي
(... ـ 1072م)

تولى ألب أرسلان حكم دولة السلاجقة سنة 455 هـ ـ 1063م خلفاً لعمه طغرل بك الذي أسس الدولة ومد سلطانها تحت بصره حتى غدت أكبر قوة في العالم الإسلامي، وقضى ألب أرسلان السنوات الأولى من حكمه في المحافظة على ممتلكات دولته وتوسيع رقعتها، وتأمين حدودها من غارات الروم.

ثم تطلع إلى ضم المناطق المسيحية المجاورة لدولته، فاتجه صوب الغرب لفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم، وكان أهل هذه البلاد يكثرون من الإغارة على إقليم أذربيجان حتى صاروا مصدر إزعاج وقلق لسكانه، وهو ما دفع بالسلطان السلجوقي إلى ضرورة كبح جماح هؤلاء الغزاة.

ـ مدينة القسطنطينية:

تعد معركة «ملاذكرد» من أيام المسلمين الخالدة، مثلها مثل بدر، واليرموك، والقادسية، وحطين، وعين جالوت، والزلاقة، وغيرها من المعارك الكبرى التي غيّرت وجه التاريخ، وأثّرت في مسيرته. وكان إنتصار المسلمين في ملاذكرد نقطة فاصلة، حيث

قضت على سيطرة دولة الروم على أكثر مناطق آسيا الصغرى وأضعفت قوتها، ولم تعد كما كانت من قبل شوكة في حلق المسلمين، حتى سقطت في النهاية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

كما أنها مهدت للحروب الصليبية بعد ازدياد قوة السلاجقة المسلمين وعجز دولة الروم عن الوقوف في وجه الدولة الفتية، وترتب على ذلك أن الغرب الأوروبي لم يعد يعتمد عليها في حراسة الباب الشرقي لأوروبا ضد هجمات المسلمين، وبدأ يفكر هو في الغزو بنفسه، وأثمر ذلك عن الحملة الصليبية الأولى.

وأزعج ذلك إمبراطور الروم رومانوس ديوجينس، وأدرك أن التوسع السلجوقي لا يقف عند هذا الحد، وأن خطره سيهدد بلاده، فعزم على تحويل أنظار السلاجقة عن بلاده بالإغارة على بلاد الشام الشمالية، فهاجم مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها، غير أن ذلك لم يكن كافياً لدفع خطر السلاجقة عن بلاده، فأعد جيشاً كبيراً لضرب السلاجقة، وتحجيم قوتها وإضعافها.

جهّز الإمبراطور البيزنطي رومانوس جيشاً ضخماً يتكون من مائتي ألف مقاتل من الروم والفرنجة والروس والبلغاريين واليونانيين والفرنسيين وغيرهم، وتحرك بهم من القسطنطينية عاصمة دولته، ممنياً نفسه بنصر حاسم يقضي على خطر السلاجقة، فقد أطمعته قواته الغفيرة وعتاده الكثيف بأن النصر آتٍ لا ريب فيه، واتجه إلى ملاذكرد حيث يعسكر الجيش السلجوقي.

أدرك ألب أرسلان حرج موقفه، فهو أمام جيش بالغ الضخامة كثير العتاد، في حين أن قواته لا تتجاوز أربعين ألفاً، فبادر بالهجوم على مقدمة جيش الروم، ونجح في تحقيق نصر خاطف يحقق له التفاوض العادل مع إمبراطور الروم، لأنه كان يدرك صعوبة أن يدخل معركة ضد جيش الروم، فقواته الصغيرة لا قبل لها بمواجهة غير مضمونة العواقب، فأرسل إلى الإمبراطور مبعوثاً من قبله ليعرض عليه الصلح والهدنة، فأساء الإمبراطور استقبال المبعوث ورفض عرض السلطان، وأشاح بوجهه في غطرسة وكبرياء مطمئناً من الفوز والظفر، ولم ينتظر سماع كلام مبعوث السلطان، وطالبه أن يبلغه بأن الصلح لن يتم إلا في مدينة الري عاصمة السلاجقة.

ـ الاستعداد للقاء:

أيقن السلطان ألاّ مفر من القتال بعد أن فشل الصلح والمهادنة في دفع شبح الحرب، فعمد إلى جنوده يشعل في نفوسهم روح الجهاد وحب الاستشهاد، وأوقد في قلوبهم جذوة الصبر والثبات، ووقف فقيه السلطان وإمامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري يقول للسلطان مقوياً من عزمه: «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة».

وحين دانت ساعة اللقاء في آخر ذي القعدة 463 هـ ـ آب/ أغسطس 1071م صلّى بهم الإمام أبو نصر البخاري، وبكى السلطان

فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، ولبس البياض وتحنط، وقال: إن قتلت فهذا كفني.

ـ ساعة اللقاء في ملاذكرد:

أحسن السلطان ألب أرسلان خطة المعركة، وأوقد الحماسة والحمية في نفوس جنوده، حتى إذا بدأت المعركة أقدموا كالأسود الضواري تفتك بما يقابلها، وهاجموا أعداءهم بجرأة وشجاعة، وأمعنوا فيهم قتلاً وتجريحاً، وما هي إلا ساعة حتى تحقق النصر، وانقشعت غبار المعركة عن جثث الروم تملأ ساحة القتال.

ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيراً في أيدي السلاجقة، وسيق إلى معسكر السلطان ألب أرسلان الذي قال له: «ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني»، فقال: أفعل القبيح. فقال له السلطان: فما تظن أنني أفعل بك، قال: إما أن تقتلني وإما أن تشهر بي في بلاد الشام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك. فقال السلطان: ما عزمت على غير هذا.

ـ إطلاق سراح الإمبراطور:

أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور البيزنطي بعد أن تعهد بدفع فدية كبيرة قدرها مليون ونصف دينار، وأن يطلق كل أسير مسلم في أرض الروم، وأن تعقد معاهدة صلح مدتها خمسون عاماً، يلتزم الروم خلالها بدفع الجزية السنوية، وأن يعترف الروم بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلادهم، وأن يتعهدوا بعدم الاعتداء على ممتلكات السلاجقة.

ثم أعاد السلطان غريمه وأسيره الإمبراطور البيزنطي إلى بلاده، وخلع عليه خلعه جليلة، وخصص له سرادقاً كبيراً، وأعطاه قدراً كبيراً من المال لينفق منه في سفره ثم أفرج عن عدد من ضباطه ليقوموا بخدمته، وأمر عدداً من رجاله بصحبته حتى يصل إلى دياره سالماً.

ولم تكد تصل أخبار الهزيمة إلى القسطنطينية حتى أزال رعاياه اسمه من سجلات الملك، وقالوا إنه سقط من عداد الملوك، وعُيِّن ميخائيل السابع إمبراطوراً، فألقى القبض على رومانوس الرابع الإمبراطور السابق، وسمل عينيه.

ـ نتائج معركة ملاذكرد:

بعد إنتصار المسلمين في هذه المعركة تغيّرت صورة الحياة والحضارة في هذه المنطقة، فاصطبغت بالصبغة الإسلامية بعد انحسار النفوذ البيزنطي تدريجياً عن هذه المنطقة، ودخول سكانها في الإسلام، والتزامهم به في حياتهم وسلوكهم.

وواصل الأتراك السلاجقة، غزوهم لمناطق أخرى بعد ملاذكرد، حتى توغلوا في قلب آسيا الصغرى، ففتحوا قونية وآق، ووصلوا إلى كوتاهية، وأسسوا فرعاً لدولة السلاجقة في هذه المنطقة عرف باسم سلاجقة الروم، ظل حكامه يتناوبون الحكم أكثر من قرنين من الزمان بعد إنتصار السلاجقة في ملاذكرد، وأصبحت هذه المنطقة جزءاً من بلاد المسلمين إلى يومنا هذا.

وكان من ثمار دخول هذه المنطقة في حوزة السلاجقة انتشار

اللغتين العربية والفارسية، وهو ما كان له أثره في مظاهر الحضارة منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا، غير أن هزيمة الروم في موقعة ملاذكرد جعلتهم ينصرفون عن هذا الجزء من آسيا الصغرى، ثم عجزوا عن الاحتفاظ ببقية الأجزاء الأخرى أمام غزوات المسلمين الأتراك من السلاجقة والعثمانيين، وقد توالت هذه الغزوات في القرون الثلاثة التالية لموقعة ملاذكرد، وانتهت بالإطاحة بدولة الروم، والاستيلاء على القسطنطينية عاصمتها، واتخاذها عاصمة للدولة العثمانية، وتسميتها بإسلامبول أو إستانبول.

ولكن الله ﷻ أنزل نصره على المؤمنين وكان هذا النصر أقوى مسمار في نعش الدولة البيزنطية التي طالما حاربت المسلمين، وكان هذا الإنتصار كفيلاً أن يثير أعداء الإسلام ويحرك أحقادهم ودسائسهم للتخلص من هذا الذي صنع النصر، فلم يمض كثيراً على هذا الإنتصار حتى قتل ألب أرسلان على يد أحد الثائرين عليه دون أن تذكر كتب التاريخ دوافع هذا الثائر. وكان ذلك عام 465هـ 1072م، ودّب الصراع فيمن يخلفه، إلى أن وضع نظام الملك نفوذه وقوته إلى جوار ملكشاه أكبر أبناء ألب أرسلان، ليصبح ثالث سلاطين السلاجقة.

ـ مصادر الدراسة:

ـ ابن الأثير: «الكامل في التاريخ»، دار صادر، بيروت.

ـ حسن إبراهيم حسن: «تاريخ الإسلام الديني والسياسي والثقافي»، دار الجيل بيروت، 1991م.

- عبد النعيم محمد حسنين: «إيران والعراق في العصر السلجوقي»، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، 1402هـ - 1982م.

- عصام عبد الرؤوف الفقي: «الدول الإسلامية المستقلة في الشرق»، دار الفكر العربي، القاهرة 1987م.

نظام الملك

(1018 ـ 1092)

قامت دولة السلاجقة في إيران والعراق في القرن الخامس الهجري على يد طغرل بك، وأعادت للخلافة العباسية بعض هيبتها المفقودة، وأرجعت لها جزءاً من نفوذها الغابر، وكان السلاجقة يرون في الخلافة السنّية رمزاً دينياً يعبر عن وحدة المسلمين، فأحاطوها بمظاهر التقدير والتكريم.

وبعد وفاة طغرل بك في 1063م تولى ألب أرسلان ابن أخيه حكم السلاجقة، وكان قبل أن يتولى السلطنة يحكم خراسان وما وراء النهر، ويعاونه وزيره أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي، المشهور بنظام الملك.

ـ بداية ظهور الوزير:

لا تذكر المصادر التاريخية كثيراً عن الحياة الأولى للوزير النابه ونشأته، وليس هناك شك في أنه تلقى تعليماً طيباً، حيث حفظ القرآن الكريم، وتعلم العربية، وألمّ بالفقه والحديث، ودرس الآداب التي تتعلق بأمور السلطنة، وإلى جانب ذلك تحلى بالفطنة والذكاء والحكمة والعقل، والقدرة على تصريف الأمور، والكياسة

وحسن السياسة، وكلها مؤهلات لازمة لمن يتطلع إلى الاتصال بالسلاطين، وتولي المناصب العليا[1].

اتصل نظام الملك بداود بن ميكال بن سلجوق أخي السلطان طغرل بك، وكان يحكم خراسان، فلما عمل معه أُعجب داود بكفاءته وإخلاصه، وألحقه بحاشية ابنه ألب أرسلان، وقال له: «اتخذه والداً، ولا تخالفه فيما يشير به».

ـ تولي الوزارة:

عندما توفي طغرل بك أجلس وزيره عميد الملك الكندري على عرش السلطنة سليمان بن داود ابن أخي السلطان، وولي عهده، وكان طفلاً صغيراً لا يتجاوز أربعة أعوام، ولم يرض الناس بذلك فالتفوا حول ألب أرسلان، وكان قائداً شاباً وسياسياً بارعاً، توفرت فيه صفات القيادة وتولي جسام الأمور، فنجح في دخول الري عاصمة الدولة ومعه وزيره نظام الملك وذلك في كانون الأول/ ديسمبر 1063م واستقبله الكندري وهنأه على السلطنة، وهذا الوزير كان حكيماً عاقلاً، يتمتع بنفاذ البصيرة في الأمور، وبعد النظر، وحسن السياسة، مع رسوخ القدم في العلم والأدب، وكان من أسباب اتساع الدولة وازدهارها[2].

وعقب تولي ألب أرسلان السلطنة أقر الكندري على الوزارة وحاول أن يكسب رضا السلطان أملاً في الاحتفاظ بالوزارة، لكن

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979.
(2) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990م.

ذلك لم يدم طويلاً، فسرعان ما تغير عليه السلطان وأوجس منه خيفة، وكان لنظام الملك يد في هذا التغير والتحريض على عزله من الوزارة، فأقدم السلطان على خلعه في كانون الثاني/ يناير 1064م وسجنه، ثم لم يلبث أن قتله بعد نحو عام.

وبعد عزل الكندري تولى نظام الملك الوزارة، ولم يكن وزيراً لامعاً ومدبراً للأمور فحسب، بل كان راعياً للعلم والأدب، يحفل مجلسه بالعلماء والفقهاء والأدباء.

وظل نظام الملك يعمل مع ألب أرسلان تسعة أعوام ونصف عام وزيراً ومساعداً له، ازدهرت الدولة في أثنائها، وتوطدت دعائمها، وارتفع شأنها، واتسعت حدودها، وتوجت جهودها بالإنتصار على البيزنطيين في معركة ملاذكرد الخالدة في العام 1070م.

وبعد هذه المعركة لم يعش ألب أرسلان طويلاً ليجني ثمار نصره، ويواصل فتوحاته، حيث توفي في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر 1072م.

- نظام الملك وملكشاه:

ظهرت قوة الوزير نظام الملك واتساع نفوذه بعد وفاة ألب أرسلان، فوقف إلى جوار ابنه الأكبر ملكشاه، وكان الصراع قد دب بين أفراد البيت السلجوقي، لكن ملكشاه كان أرجحهم كفة، وأقواهم نفوذاً، فضلاً عن مؤازرة الوزير نظام الملك وتأييده له، فتولى السلطنة، وأسند الوزارة إلى نظام الملك حتى تستقر الأوضاع في الدولة.

كان السلطان الجديد في سن العشرين عندما تولى الحكم، في حين كان الوزير نظام الملك في الخامسة والخمسين من عمره، عالماً ناضجاً، صهرته التجارب والأيام، وخبر الحكام والسلاطين، وهو ما جعل السلطان الجديد يجلّه ويحترمه، ويخاطبه بكل تبجيل ويناديه بالعم، ويلقي إليه بمقاليد الأمور، ويضع فيه ثقته، قائلاً له: «قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد»[1].

وأدت هذه العلاقة الوثيقة بين السلطان ووزيره النابه إلى ازدهار الدولة وبلوغها ذروة المجد فاتسعت حدودها حتى شمل سلطانها بلاد الشام وجزءاً كبيراً من بلاد الروم، ومدت نفوذها إلى كرمان ومنطقة آسيا الصغرى، فأصبحت دولة مترامية الأطراف تمتد من حدود الهند والصين شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن البحر الأسود شمالاً إلى الخليج جنوباً، وصارت أكبر قوة في العالم آنذاك.

ـ المدارس النظامية:

بلغت الوزارة أعلى درجاتها في الفترة التي تولاها نظام الملك في الدولة السلجوقية، فقد كان نافذ الكلمة في كل الأمور، يسيطر على الجيش والولاة، وكان عالماً أريباً له كتاب عظيم في سياسة الملك، اسمه: «سياست نامه» أي كتاب السياسة، ضمنه أفضل النظم لحكم الولايات التي تتكون فيها الدولة، وتصريف الأمور، وسجل فيه أصول الحكم التي تؤدي إلى استقرار البلاد، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العربية.

---

(1) عبد النعيم محمد حسنين، إيران والعراق في العصر السلجوقي، دار الكتاب المصري، القاهرة 1982.

وأسدى الوزير للحضارة الإسلامية ما خلّد ذكره، وفاق كل أعماله في دنيا الحكم والسياسة، بإنشائه عدداً من المدارس في أنحاء الدولة نسبت إليه، فسميت بـ«المدارس النظامية»، وهي تعد أول نوع من المؤسسات العلمية والمدارس التعليمية النظامية ظهرت في تاريخ الإسلام، وقد هيأ لطلابها أسباب العيش والتعليم. وقد خصصت المدارس النظامية لتعليم الفقه والحديث، وكان الطلاب يتناولون فيها الطعام، وتجري على كثير منهم رواتب شهرية.

ومن أهم المدارس التي أنشأها نظام الملك: المدرسة النظامية ببغداد التي بُدئ في بنائها سنة 1065م، وبلغ من اهتمام الخليفة العباسي بها أنه كان يعين الأساتذة فيها بنفسه، وكان يدرّس فيها الفقه والحديث، وما يتصل بهما من علوم، وقد درّس فيها مشاهير الفكر والثقافة مثل حجة الإسلام أبي حامد الغزالي صاحب إحياء علوم الدين، في الوقت الذي كان يدرّس في نظامية نيسابور إمام الحرمين أبو المعالي الجويني.

وقد أسهمت هذه المدارس التي انتشرت في بغداد وأصفهان ونيسابور ومرو في تثبيت قواعد المذهب السني والدفاع عنه ضد مختلف البدع والمذاهب التي انتشرت في ذلك الوقت. وقد بلغ ما ينفقه نظام الملك في كل سنة على أصحاب المدارس والفقهاء والعلماء ثلاثمائة ألف دينار، فلما راجعه ملكشاه في هذا الأمر قال له الوزير العالم: «قد أعطاك الله تعالى وأعطاني بك ما لم يعطه أحداً من خلقه، أفلا نعوضه عن ذلك في حملة دينه وحَفَظة كتابه ثلاثمائة ألف دينار».

- **نهاية نظام الملك:**

كان نظام الملك بعد ما كبرت سنه يستعين بأبنائه وأقاربه في إدارة أقاليم الدولة، وكان لهؤلاء نفوذ كبير في الدولة، استمداداً من نفوذ نظام الملك نفسه، وكان بعضهم يسيء استخدام السلطة ويستغل نفوذه في مآربه الخاصة، وهو ما أعطى الفرصة لحسّاد نظام الملك أن يفسدوا العلاقة بينه وبين السلطان ملكشاه، ونجحت مساعيهم في ذلك، حتى همّ السلطان بعزله، لكنه لم يجرؤ على تنفيذ هذا الأمر، فبعث إليه برسالة تحمل تهديده ووعيده، فما كان من نظام الملك إلا أن قال لمن حملوا له رسالة السلطان: «قولوا للسلطان: إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي، أما يذكر حينما قُتل أبوه، فقمت بتدبير أمره وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم».

ثم لم يلبث أن قُتل الوزير نظام الملك في أصبهان في 14 من تشرين الأول/أكتوبر 1092م على يد أحد غلمان فرقة الباطنية المعروفة بالحشاشين، حيث تقدم إليه وهو في ركب السلطان في صورة سائل أو زاهد، فلما اقترب منه أخرج سكيناً كان يخفيها وطعنه طعنات قاتلة، فسقط صريعاً. وكان نظام الملك شديد الحرب على مذهب الباطنية فأرادوا التخلص منه بالقتل[1].

وبعد وفاة نظام الملك بخمسة وثلاثين يوماً توفي السلطان ملكشاه، في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1092م فانطوت صفحة من أكثر صفحات التاريخ السلجوقي تألقاً وازدهاراً.

---

(1) عصام عبد الرؤوف الفقي، الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، 1987م.

المسترشد بالله

(1093 ـ 1135)

هو المسترشد بالله ابن المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله ابن محمد ابن القائم بأمر الله ابن القادر بأمر الله ابن المتقي لله ابن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله ابن الموفق ابن المتوكل بالله ابن المعتصم بالله ابن الرشيد ابن المهدي ابن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس. وهو الخليفة التاسع والعشرون، ويكنى بأبي منصور، ولد عام 485 هـ 1093م، فترة خلافته كانت من العام 512 هـ وحتى العام 529هـ الموافق 1118 ـ 1135م.

كان المسترشد بالله ذا همة عالية وشهامة زائدة وإقدام ورأي وهيبة شديدة، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب وأحيى رسم الخلافة ونشر عظامها وشيد أركان الشريعة وطرز أكمامها، وباشر الحروب بنفسه وخرج عدة نوب إلى الحلة والموصل وطريق خراسان إلى أن خرج النوبة الأخيرة وكسر جيشه بقرب همذان وأُخذ أسيراً إلى أذربيجان.

وقد سمع الحديث من أبي القاسم بن بيان وعبد الوهاب بن

هبة الله السبتي وروى عنه محمد بن عمر بن مكي الأهوازي ووزيره علي بن طراد وإسماعيل بن طاهر الموصلي ذكر ذلك ابن السمعاني وذكره ابن الصلاح في طبقات الشافعية ناهيك بذلك فقال: هو الذي صنف له أبو بكر الشاشي كتابة العمدة في الفقه وبلقبه اشتهر الكتاب فإنه كان حينئذ يلقب عمدة الدنيا والدين، وذكره ابن السبكي في طبقات الشافعية وقال: كان في أول أمره تنسك ولبس الصوف وانفرد في بيت للعبادة، وكان مولده في يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان سنة أربعمائة وست وثمانين، وخطب له أبوه بولاية العهد ونقش اسمه على السكة في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وكان مليح الخط وما كتب أحد من الخلفاء قبله مثله. يستدرك على كتابه ويصلح أغاليط في كتبهم. وأما شهامته وهيبته وشجاعته وإقدامه فأمر أشهر من الشمس، ولم تزل أيامه مكدرة بكثرة التشويش والمخالفين، وكان يخرج بنفسه لدفع ذلك إلى أن خرج الخرجة الأخيرة إلى العراق وانكسر ورزق الشهادة.

ـ من شعره:

أنا الأشقر المدعو بي في الملاحم ... من يملك الدنيا بغير مزاحم

ستبلغ أرض الروم خيلي وتنتضى ... بأقصى بلاد الصين بيض صوارمي

ومن شعره لما أُسر:

ولا عجبا للأسد إن ظفرت بها ... كلاب الأعادي من فصيح وأعجم

فحربة وحشي سقت حمزة الردى ... وموت علي من حسام ابن ملجم

وله لما كسر وأشير عليه بالهزيمة فلم يفعل وثبت حتى أُسر:

قـالـوا تـقـيـم وقـد أحـا ... ط بـك الـعـدو ولا تـفـر
فـأجـبـتـهـم الـمـرء مـا ... لـم يـتـعـظ بـالـوعـظ غـر
لا نـلـت خـيـراً مـا حـيـي ... ت ولا عـدانـي الـدهـر شـر
إن كـنـت أعـلـم أن غـي ... ر الله يـنـفـع أو يـضـر

قال الذهبي: وقد خطب بالناس يوم عيد أضحى فقال: الله أكبر ما سبحت الأنواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاء وعلت على الأرض السماء الله أكبر ما همى سحاب ولمع سراب وأنجح طلاب وسر قادماً إياب، وذكر خطبة بليغة ثم جلس ثم قام فخطب وقال: اللهم أصلحني في ذريتي وأعني على ما وليتني وأوزعني شكر نعمتك ووفقني وانصرني فلما أنهاها وتهيأ للنزول بدره أبو المظفر الهاشمي فأنشده:

عليك سلام الله يا خير من علا ... على منبر قد حف أعلامه النصر
وأفضل من أم الأنام وعمهم ... بسريته الحسنى وكان له الأمر
وأفضل أهل الأرض شرقاً ومغرباً ... ومن جده من أجله نزل القطر
لقد شنفت أسماعنا منك خطبة ... وموعظة فصل يلين لها الصخر
ملأت بها كل القلوب مهابة ... فقد رجفت من خوف تخويفها مصر
وزدت بها عدنان مجداً مؤثلا ... فأضحى بها بين الأنام لك الفخر
وسدت بني العباس حتى لقد غدا ... يباهي بك السجاد والعالم البحر
فلله عصر أنت فيه إمامنا ... ولله دين أنت فيه لنا الصدر
بقيت على الأيام والملك كلما ... تقادم عصر أنت فيه أتى عصر
وأصبحت بالعيد السعيد مهنأ ... تشرفنا فيه صلاتك والنحر

وقال وزيره جلال الدين الحسن بن علي بن صدقة يمدحه:

وجدت الورى كالماء طعماً ورقة وأن أمير المؤمنين زلالة
وصورت معنى العقل شخصاً مصوراً وأن أمير المؤمنين مثاله
ولولا مكان الدين والشرع والتقى لقلت من الإعظام جل جلاله

وعندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره قتل صاحب مصر الآمر بأحكام الله أبو منصور عن غير عقب وقام بعده ابن عمه الحافظ عبد المجيد بن محمد بن المنتصر.

وممن مات في أيام المسترشد من الأعلام شمس الأئمة أبو الفضل إمام الحنفية وأبو الوفاء بن عقيل الحنبلي وقاضي القضاة أبو الحسن الدامغاني وابن بليمة المقرئ والطغرائي صاحب لامية العجم وأبو علي الصدفي الحافظ وأبو نصر القشيري وابن القطاع اللغوي ومحيي السنة البغوي وابن الفحام المقرئ والحريري صاحب المقامات والميداني صاحب الأمثال وأبو الوليد بن رشد المالكي، والإمام أبو بكر الطرطوشي وأبو الحجاج السرقسطي وابن السيد البطليوسي وأبو علي الفارقي من الشافعية وابن الطراوة النحوي وابن الباذش وظافر الحداد الشاعر وعبد الغفار الفارسي.

ـ المراجع:

1 ـ «موسوعة التاريخ الإسلامي»، تأليف الدكتور أحمد شلبي، ـ الجزء الثالث ـ الخلافة العباسية مع اهتمامات خاص بالعصر العباسي الأول، الطبعة الحادية عشرة 1996 م ـ مكتبة النهضة المصرية.

2 ـ «المصباح المضيء في خلافة المستضيء»، الإمام أبي الفرج عبد الرحمن علي الجوزي البكري الصديقي البغدادي، المتوفي سنة 597 هـ تحقيق د. ناجية عبد الله إبراهيم.

3 ـ «محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة العباسية»، تأليف محمد بك الخضري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 2002م.

عماد الدين زنكي

(1084 ـ 1146)

في خضم الاجتياح الصليبي للمشرق الإسلامي كان المسلمون يتطلعون إلى قائد قوي وزعيم مخلص يلم شعثهم، ويجمع شتاتهم، ويوحد جهودهم، ويسير بهم نحو غايتهم المنشودة وهدفهم الأسمى في طريق الجهاد والتحرير.

إن الأرض التي أنبتت أولئك الأبطال العظام الذين قادوا حركة التاريخ، ورفعوا لواء الإسلام، وتقدموا بالمسلمين نحو الأمجاد والبطولات، لم تجدب عن أن تقدم جيلاً من القادة الأمجاد، يستكملون مسيرة الآباء، ويعيدون مجد الأجداد.

ولم تعقم الأرحام التي أنجبت رهبان الليل وفرسان النهار أن تنجب جيلاً من الأبناء والأحفاد، الذين توارثوا مجد الآباء وشرف الأجداد.

وفي ليل اليأس المطبق وظلام الانكسار الموجع والاستسلام المهين، لاحت بارقة أمل في العيون، ما لبثت أن صارت شعاعاً توهج ليضيء الطريق، فانتبهت النفوس من غفوتها، وأفاقت القلوب من حسرتها، وتلاقت الهمم وتوحدت السواعد، والتف الجميع حول ذلك البطل المرتقب الذي جاء ليحقق الحلم، ويجدد الأمل،

ويمحو شبح الهزيمة، ويعيد العزة والكرامة إلى ملايين المسلمين، ليس في عصره فقط، وإنما لجميع المسلمين عبر العصور والأزمان. وكان ذلك البطل هو عماد الدين زنكي.

ـ أسرة عماد الدين:

وُلد عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان نحو سنة 477هـ ـ 1084م في أسرة تنتمي إلى قبائل «الساب يو» التركمانية، وكان والده آق سنقر مملوكاً للسلطان السلجوقي ملك شاه، وكان مقرباً إليه، ذا حظوة ومكانة لديه، وقد اعتمد عليه في كثير من الأمور فلم يخذله قط، وهو ما جعله ينال ثقته ورضاه، وزاد من منزلته عنده، ورفع من قدره لديه.

واشترك آق سنقر في كثير من معارك السلاجقة فولاه السلطان ملك شاه ولاية حلب، واستطاع آق سنقر ـ خلال تلك الفترة ـ أن ينشر الأمن في البلاد، ويوقف أعمال السلب والنهب التي انتشرت في ذلك الوقت، وألحقت ضرراً بالغاً بالزراعة والتجارة، بعد أن تصدى لنشاط قطاع الطرق واللصوص، وكتب إلى عماله يأمرهم بتتبع المفسدين وتوفير الأمن والحماية للمسافرين.

وكانت العلاقة بين السلطان ملك شاه وبين آق سنقر تقوم على التفاهم المشترك والتقدير المتبادل بينهما.

فلما توفي ملك شاه عام 485هـ ـ 1096م، تولى الحكم من بعده ابنه بريكا روق، فثار عليه عمه تاج الدين تتش، وتصدى له آق سنقر بجيوشه، ولكن تتش تمكن من هزيمة قواته في جمادي

الأولى 487هـ أيار/ مايو 1094م وأسره، وما لبث أن قتله.

وهكذا بذل آق سنقر حياته وفاءً لسلطانه ملك شاه، وحفاظاً على ولده بركيا روق من بعده.

ولم ينس السلطان الجديد تضحية آق سنقر في سبيل عرشه ووفائه له، فوجه جل اهتمامه وعنايته نحو ابنه الوحيد عماد الدين زنكي الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره.

وأقام عماد الدين في حلب في رعاية مماليك أبيه، ثم ما لبث أن انتقل عام 489هـ ـ 1096م إلى الموصل ليحظى برعاية القائد السلجوقي كربوقا، فظل ملازماً له حتى تُوفِّي سنة 495هـ ـ 1101م، فخلفه عليها شمس الدين جكرمش الذي قرّ به وأحبه واتخذه ولداً، وظل عماد الدين ملازماً له حتى تُوفِّي سنة 500هـ ـ 1106م، فتولى الموصل من بعده جاولي سقاو، وتوطدت علاقة عماد الدين بالوالي الجديد، حتى خرج ذلك الوالي على السلطان، فانفصل عماد الدين عنه، وانضم إلى الوالي الجديد مودودو به التونتكين الذي عينه السلطان على الموصل، وكان ذلك مدعاة إلى إكبار السلطان له، وثقته فيه، وزيادة حظوته ومكانته عنده.

اشترك عماد الدين مع مودود في معاركه الكثيرة التي خاضها ضد الصليبيين في الشام والجزيرة، وقد لفت إليه الأنظار بشجاعته الفائقة ومهارته القتالية العالية.

وعندما تولى السلطان السلجوقي محمود ـ بعد وفاة السلطان محمد سنة 511هـ ـ 1117م ـ حدثت عدة محاولات للثورة ضده، ولكن عماد الدين ظل على ولائه للسلطان، فاستطاع أن يحظى بثقته

فيه وتقديره له، كما أثبت جدارته في ولايته الجديدة بواسط، وتمكن من صد هجمات الأعراب الدائمة عليها، ونشر الأمن في ربوعها.

ومع مطلع العام 517هـ ـ 1123م استطاع السلاجقة ـ بفضل الخطة البارعة التي اتبعها عماد الدين ـ أن يلحقوا هزيمة ساحقة بجيوش دبيس الخارج على الخليفة العباسي، وخلّصوا الخلافة من خطر محقق كاد يعصف بها، فانضم دبيس إلى الصليبيين بعد هزيمته، وساهم معهم في حصار حلب طمعاً في الاستيلاء عليها.

ـ الهروب إلى تكريت:

وعندما تدهورت العلاقات بين الخليفة العباسي المسترشد والسلطان السلجوقي محمود في العام 519هـ ـ 1125م كان لعماد الدين دور كبير في إنهاء الصراع بينهما، وتجاوز الأزمة بأمان قبل أن يتفاقم الموقف، وتحدث مواجهة وخيمة العواقب بين الطرفين.

وعندما تُوفّي السلطان محمود في منتصف عام 525هـ ـ 1131م أراد السلطان مسعود بن محمد ـ حاكم أذربيجان ـ الاستيلاء على عرش السلاجقة في العراق، واستطاع استمالة عماد الدين لمساعدته في المطالبة به، ولكن أخاه سلجوق شاه الطامح أيضاً في العرش سبقه إلى الخليفة العباسي ليحظى بموافقته، ودارت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة عماد الدين، وأسر عدد كبير من قواته، وهو ما اضطره إلى اللجوء إلى تكريت، حيث أحسن واليها نجم الدين أيوب استقباله وأكرم وفادته، وساعده حتى تمكن من إعادة تنظيم قواته.

ـ عماد الدين والسلطان مسعود:

واستطاع مسعود أن يصبح سلطاناً على السلاجقة في العراق وبلاد فارس، بعد أن قضى على منافسيه، ورفض عماد الدين الخضوع للسلطان الجديد، فساءت العلاقة بينهما، وفي الوقت نفسه دخل عماد الدين في صراع آخر مع الخليفة العباسي، الذي خرج إليه على رأس ثلاثين ألف مقاتل، وحاصره نحو ثمانين يوماً، ولكن عماد الدين استطاع الصمود والمقاومة حتى عرض عليه الخليفة المسترشد الصلح في مطلع العام 528هـ ـ 1133م، فوافق عماد الدين دون تردد.

ثم ما لبثت أن تحسنت العلاقات بين السلطان مسعود وعماد الدين زنكي، وإن ظل السلطان غير مطمئن لِمَا كان يتمتع به عماد الدين من إستقلال، وما يمتلكه من نفوذ ظل يتسع على مر الأيام.

ـ العالم الإسلامي والحرب الصليبية الأولى:

استطاع الصليبيون ـ بعد حملتهم الصليبية الأولى ـ أن يستولوا على جزء كبير من بلاد الشام والجزيرة خلال الفترة من 489هـ ـ 1069م إلى 498هـ ـ 1105م، وأنشأوا فيها إماراتهم الصليبية الأربع: الرها، وإنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس.

وأصبح الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي يشكل خطراً بالغاً على بقية بلاد المسلمين، خاصة أن العالم الإسلامي ـ في ذلك الوقت ـ كان يعاني حالة من الفوضى والتشتت والضياع، بسبب تنازع الحكام والولاة، والخلاف الدائم بين العباسيين والفاطميين من

جهة، وبين الخلافة العباسية التي بدأ الضعف يدب إليها ومحاولات التمرد والإستقلال عنها التي راحت تتزايد يوماً بعد يوم من جهة أخرى.

وسعى الصليبيون إلى بسط نفوذهم وإحكام سيطرتهم على المزيد من البلاد إليهم، وإنشاء إمارات صليبية جديدة لتكون شوكة في ظهر العالم الإسلامي، تمهيداً للقضاء التام عليه.

ـ الاستعداد للمعركة الكبرى:

لم يشأ عماد الدين أن يدخل في حرب مع الصليبيين منذ البداية، فقد كان يريد أن يوطد دعائم إمارته الجديدة، ويدعم جيشه، ويعزز إمكاناته العسكرية والإقتصادية قبل أن يقدم على خوض غمار المعركة ضد الصليبيين.

وعمل على توحيد الإمارات الصغيرة المتناثرة من حوله تحت لواء واحد، فقد كان خطر تلك الإمارات المتنازعة لا يقل عن خطر الصليبيين المحدق بهم، وذلك بسبب التنازع المستمر بينهم، وغلبة المصالح الخاصة والأهواء على أمرائهم.

ومن ثم فقد عمل على تهيئة الأمة الإسلامية وتوحيدها قبل أن يخوض معركتها المرتقبة.

واستطاع الاستيلاء على حلب، كما هاجم عدداً من المواقع الصليبية المحيطة بها، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها، كما تمكن من الاستيلاء على بعرين التي وجد الصليبيون في استيلائه عليها خطراً يهدد الإمارات الصليبية في المشرق. وحاول

الصليبيون إنقاذ بعرين، ولكن حملتهم التي قادها الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين فشلت في ذلك.

وعمل عماد الدين على تفتيت التحالف الخطير الذي قام بين الصليبيين في الشام والبيزنطيين، واستطاع أن يزرع الشك بين الطرفين ليقضي على التعاون بينهما، كما سعى في الوقت نفسه إلى طلب النجدات العسكرية من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

ـ الطريق إلى الرها:

سعى عماد الدين للاستيلاء على دمشق ليوحد الجبهة الشامية تمهيداً للقائه المرتقب مع الصليبيين، إلا أن أمراءها استنجدوا بالصليبيين، وهو ما اضطره إلى التراجع عنها.

واستطاع أن يدعم موقفه بالاستيلاء على بعض المواقع وعدد من الحصون الخاضعة لإمارة الرها الصليبية، وتمكن بذلك من قطع الاتصال بين أمير الرها وبين حلفائه.

وكانت إمارة الرها واحدة من أهم الإمارات الصليبية في المشرق، وذلك لقوة تحصينها، وقربها من العراق التي تمثل مركز الخلافة الإسلامية، ونظراً لما تسببه من تهديدات وأخطار للمناطق الإسلامية المجاورة لها.

ومن ثم فقد اتجهت نية عماد الدين إلى إسقاطها، وصح عزمه على فتحها، وراح يدرس الموقف بدقة، فأدرك أنه لن يتمكن من فتح الرها إلا إذا استدرج جوسلين ـ أمير الرها ـ وقواته خارجها،

فلجأ إلى حيلة بارعة أتاحت له الوصول إلى مأربه، إذ تظاهر بالخروج إلى آمد لحصارها، وفي الوقت نفسه كان بعض أعوانه يرصدون تحركات أمير الرها، الذي ما إن اطمأن إلى انشغال عماد الدين عنه بحصار آمد حتى خرج بجنوده إلى تل باشر ـ على الضفة الغربية للفرات ـ ليستجم ويتفرغ لملذاته.

وقد كان هذا ما توقعه عماد الدين، فأسرع بالسير إلى الرها في جيش كبير، واستنفر كل من يقدر على القتال من المسلمين لجهاد الصليبيين، فاجتمع حوله حشد هائل من المتطوعين، فحاصر الرها من جميع الجهات، وحاول التفاهم مع أهل الرها بالطرق السلمية، وبذل جهداً كبيراً لإقناعهم بالاستسلام، وتعهد لهم بالأمان، ولكنهم أبوا، فما كان منه إلا أن شدد الحصار عليهم، واستخدم الآلات التي جلبها معه لتدمير أسوار المدينة قبل أن يتمكن الصليبيون من تجميع جيوشهم لإنقاذ المدينة.

ـ حصار الرها وسقوطها:

وبعد 28 يوماً من الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت لقوات عماد الدين في 28 من جمادي الآخرة 539هـ 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1144م، فأصدر عماد الدين أوامره إلى الجند بإيقاف أي أعمال للقتل أو الأسر أو السلب، وإعادة ما استولوا عليه من غنائم وأسلاب، فأعادوا كل ما أخذوه إلى أصحابه.

وبدأ من فوره عملية تجديد وإصلاحات شاملة للمدينة، فأعاد بناء ما تهدم من أسوارها، وتعمير ما ضرب في الحرب أثناء اقتحام

المدينة، وسار في أهلها بالعدل وحسن السيرة، حتى يعموا في ظله بالأمن والعدل، واحتفظوا بكنائسهم وأوديتهم فلم يتعرض لهم في عبادتهم وطقوسهم.

ـ لغز اغتيال عماد الدين:

كان فتح الرها هو أجلّ وأعظم أعمال عماد الدين، ولم يمض عامان على ذلك النصر العظيم، حتى تم اغتياله في 6 من ربيع الآخرة 541هـ 15 أيلول/ سبتمبر 1146م خلال حصاره لقلعة جعبر على يد يرنقش ـ كبير حرسه ـ الذي تسلل إلى مخدعه فذبحه وهو نائم.

ويرى عدد من المؤرخين أن اغتيال عماد الدين جاء لأسباب سياسية أكثر منها شخصية، فقد كان في أوج إنتصاره على الصليبيين، كما حقق إنتصاراً آخر على المستوى الإسلامي بعد أن نجح في توحيد الصفوف وتكوين جبهة إسلامية قوية، ومن ناحية أخرى فقد كانت قلعة جعبر على وشك السقوط بعد أن بلغ حصاره لها مداه، فضلاً عن أن قاتله يرنقش كان من الباطنية، وقد استطاع التستر والانتظار طويلاً، حتى حانت اللحظة المناسبة لتنفيذ جريمته، فاغتال عماد الدين وهو في قمة مجده وإنتصاره.

ـ المصادر:

ـ **«تجارب الأمم»**، أبو علي أحمد بن محمد (ابن مسكويه)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة دون تاريخ.

- **«الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية»**، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (أبو شامة)، تحقيق 1376هـ - 1956م.
- **«شذرات الذهب في أخبار من ذهب»**، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، مكتبة القدسي، القاهرة 1350هـ - 1930م.
- **«عماد الدين زنكي»**، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت 1402هـ - 1982م.
- **«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب»**، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال، جامعة فؤاد الأول، القاهرة 1373هـ - 1953م.
- **«المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»**، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، دار صادر، بيروت دون تاريخ.
- **«نور الدين محمود رائد نصر المسلمين على الصليبيين»**، د. حسين مؤنس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة 1408هـ - 1987م.
- **«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمود (ابن خلكان)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت دون تاريخ.

شهاب الدين الغوري

(... ـ 1206)

يعتبر تاريخ الإسلام في بلاد ما وراء النهر غامضاً لكثير من المسلمين رغم أنه قد بدأ مبكراً في صدر الدعوة عندما دحرت جيوش الصحابة في عهد العمرين إمبراطورية الفرس وأزالوا دولتهم تماماً في عهد عثمان ض، وانساح المسلمون بعدها في بلاد ما وراء النهر ورفعوا الحواجز التاريخية بين الهضبة الإيرانية وبلاد الأتراك إلى بلاد الهند والصين، وظهر خلال تلك الفترة رجال أفذاذ كبار كلهم يضع هدفاً سامياً نصب عينيه ألا وهو خدمة الدين ونشر الإسلام، من هؤلاء الكبار: عبد الرحمن بن ربيعة الملقب بذي النور، وعبيد الله بن أبي بكر، وشريح بن هانئ، وعبد الرحمن بن الأشعث، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم، وغيرهم كثير.

ولما قامت الدولة العباسية قل من يغزو تلك البلاد وانشغل المسلمون بأنفسهم فترة طويلة، حتى ظهرت الدولة الغزنوية وسلطانها محمود بن سبكتكين الذي أعاد للمسلمين ذكريات الجهاد الأولى ودخل بلاد الهند ففتحها وحطم أصنامها ودمر معابدها ونشر الإسلام في مناطق لم تتل فيها قط سورة ولا آية.

وكان صاحب الفضل في تحطيم قوى أمراء الهند، ولكنه ومن جاء بعده من خلفائه لم يستقروا في الهند إنما كانوا يعودون إلى عاصمة بلادهم غزنة ويتركون والياً من طرفهم على تلك البلاد الجديدة، مما لم يرسخ وضع الإسلام بالهند ولم يثبت أقدام المسلمين بها، ومما سمح أيضاً لكفار الهند بالتمرد والثورة مرة بعد مرة، وظل الأمر هكذا حتى ظهر بطلنا الكبير الذي قام بإنشاء أول دولة مسلمة ثابتة مستقرة في الهند وعاش حياته كلها في الجهاد والدعوة، وكان له أعظم الأثر في وضع الإسلام في الهند، حتى أن دولة باكستان المسلمة لما أنجزت مشروعها الجريء والكبير وأنتجت أول صاروخ حربي نووي لم تجد أفضل من بطلنا هذا لتطلق اسمه على صاروخها النووي الشهير غوري اعترافاً منها بعظمة وفضله الشهير، الذي لا يكاد يعرفه أحد من المسلمين.

ـ من هو شهاب الدين؟

هو البطل الشجاع والأمير المحنك أبو المظفر شهاب الدين محمد بن سام الغوري، قائد القبائل الغورية، ويرجع أصل هذه القبائل إلى الجنس التركي وكانت تستوطن جبال الغور وهي بلاد واسعة وباردة وموحشة، تقع بين غزنة وهراة ـ وسط أفغانستان الآن ـ مما جعلت طبيعتهم قوية وصلبة، وقد دخلوا الإسلام على يد السلطان محمود بن سبكتكين وذلك سنة 401 هجرية.

وبعدما حاربهم وعرف قوتهم وشجاعتهم حرص كل الحرص على أن يكونوا من جند الإسلام، فدعاهم للدين فدخلوه أفواجاً، فأقرهم محمود على أملاكهم واستعملهم لنصرة الدين وأرسل إليهم

الدعاة والمعلمين، فحسن إسلامهم وكانوا من أخلص أعوان محمود بن سبكتكين وساعدوه في كثير من الحروب ببلاد الهند.

الدولة الغزنوية أو السبكتكينية التي أصابها الوهن ودب الضعف وحب الدنيا إلى قلوب ملوكها، واختلفوا فيما بينهم واقتتلوا على الدنيا، بعدما قاموا بنصب سوق الجهاد ونشروا الإسلام بالهند لعهود طويلة، مما سمح لكفار الهند أن يرفعوا رؤوسهم مرة أخرى، ويخلعوا الطاعة، ويطردوا المسلمين من بلادهم.

ولما دب الضعف في الدولة الغزنوية استبدلها المولى عز وجل بالدولة الغورية وقائدها الأمير المظفر شهاب الدين الغوري، حيث ورث الغوريون الدولة التي سقطت بالكامل سنة 582 هجرية.

ـ إعادة الأمجاد:

كانت الدولة الغزنوية قد بلغت أوج قوتها واتساعها في عهد سلطانها محمود وولده مسعود وشملت المنطقة الشاسعة من إيران وشمال الهند كله والسند والبنجاب وحوض الجانج حتى البنغال. ولما أصابها الضعف والوهن أخذت أجزاء كثيرة من هذه الدولة في السقوط في يد أعدائها، وانتزعوا الكثير من أملاك الغزنويين حتى داخل إيران مركز دولتهم، وعندها نهض زعيم الغور شهاب الدين الغوري وأخذ في استعادة الأمجاد السابقة.

بدأ شهاب الدين رحلته مبكراً وبدأها كما بدأها من قبل محمود بن سبكتكين ومن نفس النقطة من الملتان وكان هذا الإقليم يقع تحت قبضة القرامطة، وبالفعل استخلص شهاب الدين الملتان

من يد القرامطة سنة 570 هجرية، ثم أعقب ذلك استعادة بيشاور وأخضع حوض السند جميعه رغم الخسائر الفادحة التي تحملها جيشه على يد أهالي الهند وشمال الهند إلى خليج البنغال.

ـ التحالف الهندوسي:

شعر أمراء الهند بخطورة الأمر وعودة التهديد الإسلامي من جديد بعدما ظهر رجل جديد على الساحة وهو شهاب الدين الغوري وقرروا التحالف فيما بينهم فيما عرف بتحالف أمراء منطقة الأنهار الكبرى في شمال شبه الجزيرة الهندية وهذه المنطقة التي تعرف باسم الهندستان وفيها أخصب بلاد الهند وأكثفها سكاناً، وهؤلاء الأمراء دفعهم الحقد على الإسلام وتحريض الكهنة البراهمة وخوفهم على أملاكهم وعروشهم أن يبادئوا المسلمين بالعداوة والقتال مستغلين بعض الأحداث الداخلية في الدولة الغورية وانشغال شهاب الدين بالقضاء على بعض الاضطرابات والفتن الداخلية.

ـ جهاد على كل الجبهات:

كان شهاب الدين الغوري يحلم بأن تكون بلاد الهند كلها مسلمة وأن يستكمل الدور الذي قام به من قبل السلطان محمود بن سبكتكين بل كان شهاب الدين يحب أن يتشبه كثيراً بمحمود بن سبكتكين وظهر هذا جلياً في العديد من المواقف، ولكن الأمور لم تكن مواتية مثلما حدث أيام محمود بن سبكتكين، ذلك لأن شهاب الدين قد اضطر للجهاد على العديد من الجبهات الداخلية

والخارجية وينتقل من الهجوم إلى الدفاع والكر والفر، من الهند إلى خرسان إلى الصين إلى إيران.

لذلك فلقد قضى شهاب الدين حياته كلها لم يعرف بيتاً ولا راحة ولا يلاعب ولداً ولا يهنأ بأسرة واستقرار بل من على ظهر الخيل إلى ظهر الخيل ومن ضرب السيف إلى رمي السهم.

ـ جهاده في الهند:

كان أمراء الهندوس هم العدو الأكبر والأصلي في معارك شهاب الدين الغوري، وكان لقاؤه الأول معهم في غير صالح المسلمين وترك أثراً شديداً على شهاب الدين الغوري، وذلك سنة 583 هجرية عندما دخل المسلمون مدينة شرستي واحتلوها وكانت من أغنى وأكبر مدن الهند، فهجم التحالف الهندوسي بقيادة كبيرهم بريتي والتي تسميه المراجع العربية كولة على المسلمين ودارت رحى معركة من أشد ما لاقى المسلمون من قتال في الهند وانهزم بعض الأمراء الغوريين وفروا من أرض القتال، وظل شهاب الدين يقاتل بنفسه حتى أنه من شدة القتال قتل عدة أفيال بسيفه ورمحه ثم أصيب إصابة بالغة وتكاثر عليه الأعداء ليأخذوه فدافع عنه جنوده وحملوه مصاباً ينزف الدم مسافة أربعين كيلومتراً حتى خافوا موته، ولما عاد إلى لاهور أخذ الأمراء الغورية المنهزمين من أرض المعركة وعلق على كل واحد منهم عليق شعير وقال لهم ما أنتم بأمراء إنما أنتم دواب وألزمهم المشي حتى غزنة.

ظل شهاب الدين يجهز لقتال الهندوس ورد الهزيمة وأخذ العدة اللازمة وجهز جيشاً كبيراً وكان ما زال ناقماً على أمراء الغورية منذ

فرارهم في المعركة السابقة وعزم على ألا يصحبهم معه في القتال ضد الهندوس، فحاول بعض شيوخ القوم استرضاءه عنهم فقال شهاب الدين كلمات تعبر عن النفسية المؤمنة الصادقة التي تستشعر بما عليها من واجبات تجاه نصرة الدين والعمل للإسلام وتظهر مدى قوة قلب هذا البطل الشجاع وحساسيته الدافقة، قال «أعلم أنني منذ هزمني هذا الكافر ما نمت مع زوجتي على فراش ولا غيرت ثياب البياض عني ـ أي ثياب الكفن ـ وأنا سائر إلى عدوي معتمد على ربي عز وجل لا على الغورية ولا على غيرهم، فإن نصرني الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وإن انهزمنا فلا تطلبوني، فلن أنهزم ولو هلكت تحت حوافر الخيل».

بعد هذه الرسالة الجلية اهتزت قلوب الأمراء الغورية وحلفوا جميعاً على القتال حتى الموت وعدم الانهزام مهما حدث في أرض المعركة.

عاد شهاب الدين الغوري إلى الهند بجيش قوامه مائة وعشرين ألف مقاتل بعد عام واحد من الهزيمة السابقة، فبرز له ملك الهند بريتي في جيش قوامه ثلاثمائة ألف مقاتل أو يزيدون. واستخدم شهاب الدين الغوري حيلة حربية ذكية حيث قسم جيشه إلى جزءين وهجم على الهندوس عند الفجر وهم نائمون على شكل قبضة الكماشة فأمضى المسلمون فيهم القتل، وحاول بريتي الفرار فقال له أصحابه «إنك حلفت لنا أنك لا تخلينا وتهرب» فنزل من على فرسه وظل يقاتل حتى وقع أسيراً في يد المسلمين. وحاول بريتي أن يفدي نفسه بأموال طائلة مهولة ولكن شهاب الدين علم أن بقتل

بريتي يسهل سقوط الهند، فرفض قبول الفدية وقتله.

كان هذا النصر إيذاناً بانهيار سلطان الأمراء الهندوس وبداية السلطان الحقيقي للإسلام في منطقة الهندستان، فلقد استولى شهاب الدين الغوري على مدن شرستي، كهرام، هنسى، أجمير وحطم أصنام الهندوكية والبوذية في الهندستان واستعمل أحجارها في بناء المساجد، وعهد الأمير شهاب الدين الغوري إلى مملوكه وقائد جيوشه قطب الدين أيبك بولاية المدن الهندية المفتوحة، وكان قطب الدين أيبك لا يقل شجاعة ولا إخلاصاً عن أستاذه، فثبَّت أقدام المسلمين هناك، واتخذ دهلي عاصمة له وبنى الجامع الشهير قطب منار، كما تصدى قطب الدين لفلول التحالف الهندوسي وانتصر عليهم في معركة حامية الوطيس في سهل جندوار سنة 591 هجرية.

في نفس الوقت الذي كان قطب الدين أيبك يرسخ أقدام الإسلام بالهندستان أرسل شهاب الدين الغوري رجلاً آخر من قادة جيوشه واسمه محمد بن بختيار الخلجي إلى ناحية الشرق حيث منطقة البنغال وهي معقل البوذية في الهند كلها، ففتحها وحطم معابدها وأظهر شعائر الإسلام بها وذلك سنة 599 هجرية وفي نفس السنة استطاع قطب الدين أن يفتح حصن كلنجر أمنع حصون الهند وبسقوطه لم يبق في الهند مكان لم يدخله الإسلام باستثناء صحراء الجنوب.

ـ جهاده ضد الأتراك:

الجنس التركي يشمل كل القبائل الواقعة وسط وشرق الهضبة

الإيرانية حتى أقصى شرق الصين، وأيضاً بلاد القوقاز ومنغوليا، وهذه القبائل كان منها المؤمن ومنها الكافر، وأمثال القبائل المؤمنة السلاجقة والتركمان والغوريين والخورازميين، وأما القبائل التركية الوثنية فكانت تتجمع تحت لواء كبير وتحت أقوى هذه القبائل وهي قبائل القراخطاي وأصلهم في غرب الصين، وكان نهرا سيحون وجيحون هما الحد الفاصل بين هذه القبائل وبلاد الإسلام.

وكانت هذه القبائل شديدة البأس كثيرة الفساد تؤذي جيرانها المسلمين وتفرض عليهم الجزية وتكثر من الإغارة عليهم وكان من الطبيعي أن يتصدى لهم شهاب الدين في هذه البقعة من الأرض وتتجه أنظار المسلمين كلها إليه وبالفعل تصدى لهم شهاب الدين الغوري ومنع تقدمهم وعبورهم لنهر جيحون ولكن الطامة الحقيقية والحقيقة التاريخية الثابتة والمحزنة للقلب حقاً هي أن هذه القبائل إنما تحركت لحرب شهاب الدين بتحريض من الملك خوارزم شاه وكان ملكه متسع للهضبة الإيرانية كلها وقد ورث الرجل ملك دولة السلاجقة ولكنه كان رجلاً لا يبالي إلا بمصالحه الخاصة وأملاكه وأمواله، وكان ملكه المتسع وما ورثه من أملاك السلاجقة دافعاً له لأن يطلب من الخليفة العباسي الناصر بالله منصب السلطنة والخطبة ببغداد، فأرسل الخليفة إلى شهاب الدين الغوري يطلب منه أن يمنع خوارزم شاه من التقدم لحرب الخليفة، وعندها خاف خوارزم شاه من قوة شهاب الدين الغوري، وأرسل إلى ملوك القراخطاي وأغراهم بالهجوم على الدولة الغورية وكان شهاب الدين قد أخذ من قبل بعض بلاد القراخطاي، فقويت عزائمهم على حرب شهاب الدين.

استغل الأعداء خروج شهاب الدين الغوري للغزو في بلاد الهند وهجموا بأعداد كبيرة على بلاد الغور وعظمت المصيبة على المسلمين لغياب شهاب الدين وضخامة العدو، ولكن الله قيض للمسلمين عدة أبطال من أعوان شهاب الدين مثل الأمير محمد بن جربك والحسين بن خرميل وحروش الغوري واجتمع عندهم المجاهدون والمتطوعون من كل مكان وهجموا على جيش القراخطاي وهم نائمون ليلاً ووضعوا فيهم السيف واشتد القتال بين الفريقين واستشهد حروش الغوري وكان شيخاً مسناً فالتهبت مشاعر المسلمين وألقوا السهام والرماح وصار القتال بالسيوف والفؤوس فقط وانتصر المسلمون إنتصاراً هائلاً جعل عقل ملك القراخطاي يطيش وينقلب على خوارزم شاه ويطلب منه دية لكل قتيل عشرة آلاف دينار ذهباً، مما جعل خوارزم شاه يطلب العفو والصفح من شهاب الدين الذي قبل العفو شريطة دخول خوارزم شاه في طاعة الخليفة العباسي فوافق خوارزم الذي كان يغير ولائه ويقلبه حسب هواه وأطماعه، ووقعت كراهيته في قلوب كل المسلمين شرقاً وغرباً، والعجيب أن هذا الرجل عاد وحالف القراخطاي من جديد وأغراهم بشهاب الدين ودلهم على أماكن ضعفه فهزموا شهاب الدين في معركة رهيبة سنة 600 هجرية كاد يقتل فيها شهاب الدين وتنهار دولة الإسلام في الهند بسبب ذلك.

ـ اغتيال شهاب الدين:

تسلل نفر من القراخطاي إلى جيش شهاب الدين الغوري وهو خارج لقتال تلك القبائل، وأظهر هؤلاء أنهم من جملة الجيش حتى

كانت ليلة 1 شعبان سنة 602 هجرية الموافق في 18/ 4/ 1206م، وكان شهاب الدين في خيمته يصلي قيام الليل وحده دخل عليه عدة أنفار وضربوه بالسكاكين حتى قتلوه، فدخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلاً وهو ساجد فأمسكوا بهؤلاء وقتلوهم جميعاً، وهكذا كانت نهاية هذا القائد العظيم.

شجرة الدرّ

(... ـ 1257)

لقي السلطان الصالح أيوب ربَّه في ليلة النصف من شعبان (سنة 647هـ) والقوات الصليبية تزحف جنوباً على شاطئ النيل الشرقي لفرع دمياط، للإجهاز على القوات المصرية الرابضة في المنصورة، وكانت إذاعة خبر موت السلطان في هذا الوقت الحرج كفيلة بأن تضعف معنويات الجند، وتؤثر في سير المعركة.

ويذكر التاريخ أن شجرة الدر وقفت موقفاً رائعاً، تعالت فيه على أحزانها، وقدمت المصالح العليا للبلاد، وأدركت خطورة الموقف العصيب، فأخفت خبر موته، وأمرت بحمل جثته سراً في سفينة إلى قلعة الروضة بالقاهرة، وأمرت الأطباء أن يدخلوا كل يوم إلى حجرة السلطان كعادتهم، وكانت تُدخل الأدوية والطعام غرفته كما لو كان حياً، واستمرت الأوراق الرسمية تخرج كل يوم وعليها علامة السلطان.

وتولت شجرة الدر ترتيب أمور الدولة، وإدارة شؤون الجيش في ميدان القتال، وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى توران شاه ابن الصالح أيوب تحثه على

القدوم ومغادرة حصن كيفا إلى مصر، ليتولى السلطنة بعد أبيه. وفي الفترة ما بين موت السلطان الصالح أيوب، ومجيء ابنه توران شاه في 27 شباط/ فبراير 1250م، وهي فترة تزيد عن ثلاثة أشهر، نجحت شجرة الدر بمهارة فائقة أن تمسك بزمام الأمور، وتقود دفة البلاد وسط الأمواج المتلاطمة التي كادت تعصف بها، ونجح الجيش المصري في رد العدوان الصليبي، وإلحاق خسائر فادحة بالصليبيين، وحفظت السلطنة حتى تسلمها توران شاه الذي قاد البلاد إلى النصر.

ـ التخلص من توران شاه:

بعد النصر تنكر السلطان الجديد لشجرة الدر، وبدلاً من أن يحفظ لها جميلها بعث يتهددها ويطالبها بمال أبيه، فكانت تجيبه بأنها أنفقته في شؤون الحرب، وتدبير أمور الدولة، فلما اشتد عليها ورابها خوف منه ذهبت إلى القدس خوفاً من غدر السلطان وانتقامه.

ولم يكتف توران شاه بذلك، بل امتد حنقه وضيقه ليشمل أمراء المماليك، أصحاب الفضل الأول في تحقيق النصر العظيم، وإلحاق الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة، وبدأ يفكر في التخلص منهم، غير أنهم كانوا أسبق منه في الحركة وأسرع منه في الإعداد، فتخلصوا منه بالقتل.

ـ ولاية شجرة الدر:

وجد المماليك أنفسهم في وضع جديد، فهم اليوم أصحاب

الكلمة الأولى في البلاد، ومقاليد الأمور في أيديهم، ولم يعودوا أداة في يد من يستخدمهم لتحقيق مصلحة أو نيل هدف، وعليهم أن يختاروا سلطاناً للبلاد، وبدلاً من أن يختاروا واحداً منهم لتولي شؤون البلاد اختاروا شجرة الدر لتولي هذا المنصب الرفيع. ويتعجب المرء من اختيارهم هذا، وهم الأبطال الصناديد، والقادة الذين مشى النصر في ركابهم.

ولم تكن شجرة الدر أول امرأة تحكم في العالم الإسلامي، فقد سبق أن تولت رضية الدين سلطنة دلهي، واستمر حكمها أربع سنوات 1236 ـ 1240.

وشجرة الدر من أصل تركي وقيل أرمينية، وكانت جارية اشتراها السلطان الصالح أيوب، وحظيت عنده بمكانة عالية حتى أعتقها وتزوجها وأنجبت منه ولداً اسمه خليل، توفي في أيار/مايو 1250.

أخذت البيعة للسلطانة الجديدة، ونقش اسمها على السكة (النقود) بالعبارة الآتية «المستعصية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين».

ـ تصفية الوجود الصليبي:

وما إن جلست شجرة الدر على عرش الحكم حتى قبضت على زمام الأمور، وأحكمت إدارة شؤون البلاد، وكان أول عمل اهتمت به هو تصفية الوجود الصليبي في البلاد، وإدارة مفاوضات معه، انتهت بالإتفاق مع الملك لويس التاسع الذي كان أسيراً بالمنصورة

على تسليم دمياط، وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى مقابل فدية كبيرة قدرها ثمانمائة ألف دينار، يدفع نصفها قبل رحيله، والباقي بعد وصوله إلى عكا، مع تعهد منه بعدم العودة إلى سواحل الإسلام مرة أخرى.

غير أن الظروف لم تكن مواتية لأن تستمر شجرة الدر في الحكم طويلاً، على الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في إدارة شؤون الدولة، وتقربها إلى العامة، وإغداقها الأموال والإقطاعات على كبار الأمراء، فلقيت معارضة شديدة داخل البلاد وخارجها، وخرج المصريون في مظاهرات غاضبة تستنكر جلوس امرأة على عرش البلاد، وعارض العلماء ولاية المرأة الحكم، وقاد المعارضة العز بن عبد السلام، لمخالفة الشرع في جلوسها على العرش. وفي الوقت نفسه ثارت ثائرة الأيوبيين في الشام لمقتل توران شاه، واغتصاب المماليك للحكم بجلوس شجرة الدر على سُدَّة الحكم، ورفضت الخلافة العباسية في بغداد أن تقر صنيع المماليك، فكتب الخليفة إليهم: إن كان الرجال قد عدموا عندكم فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً.

- تنازل عن العرش:

ولم تجد شجرة الدر إزاء هذه المعارضة الشديدة بداً من التنازل عن العرش للأمير عز الدين أيبك أتابك العسكر، الذي تزوجته، وتلقب باسم الملك المعز، وكانت المدة التي قضتها على عرش البلاد ثمانين يوماً.

وإذا كانت شجرة الدر قد تنازلت عن الحكم والسلطان رسمياً،

وانزوت في بيت زوجها، فإنها مارسته بمشاركة زوجها مسؤولية الحكم، وخضع لسيطرتها، فأرغمته على هجر زوجته الأولى أم ولده عليّ، وحرّمت عليه زيارتها هي وابنها، وبلغ من سيطرتها على أمور السلطان أن قال المؤرخ الكبير ابن تغري بردي: «إنها كانت مستولية على أيبك في جميع أحواله، ليس له معها كلام».

ـ اغتيال شجرة الدر:

انقلب أيبك على شجرة الدر بعدما أحكم قبضته على الحكم في البلاد، وتخلص من منافسيه في الداخل ومناوئيه من الأيوبيين في الخارج، وتمرس بإدارة شؤون البلاد، وبدأ في اتخاذ خطوات للزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فغضبت شجرة الدر لذلك وأسرعت في تدبير مؤامرتها للتخلص من أيبك، فأرسلت إليه تسترضيه وتتلطف معه، وتطلب عفوه، فانخدع أيبك لحيلتها، واستجاب لدعوتها، وذهب إلى القلعة، حيث لقي حتفه هناك في العام 1257.

أشاعت شجرة الدر أن المعز أيبك قد مات فجأة بالليل، ولكن مماليك أيبك لم يصدقوها فقبضوا عليها، وحملوها إلى امرأة عز الدين أيبك التي أمرت جواريها بقتلها بعد أيام قليلة، وألقوا بها من فوق سور القلعة، ودُفنت بعد عدة أيام. . وهكذا انتهت حياتها على هذا النحو بعد أن كانت ملء الأسماع والأبصار، وقد أثنى عليها المؤرخون المعاصرون لدولة المماليك، فيقول ابن تغري بردي عنها: «وكانت خيّرة دَيِّنة، رئيسة عظيمة في النفوس، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البر، معروفة بها».

الملك المظفر سيف الدين قطز

(... - 1260)

الملك المظفر سيف الدين قطز ثاني سلاطين المماليك الأتراك تولى الملك سنة 657 هـ ويعتبر قطز من أبرز ملوك الدولة المملوكية على الرغم من أن فترة حكمه لم تدم سوى عاماً واحداً، لأنه استطاع أن يوقف زحف المغول الذي كاد أن يقضي على الدولة السلامية وهزمهم هزيمة منكرة في معركة عين جالوت ولاحق فلولهم حتى حرر الشام.

- أصله:

تروي المصادر التاريخية أن الاسم الأصلي لسيف الدين قطز هو محمود بن ممدود، وأنه ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه التركي الذي تصدى بعد أبيه لهجمات المغول، وحقق عدة إنتصارات عليهم، واسترد منهم بعض المدن التي استولوا عليها، لكنه لم يجد عوناً من الدولة العباسية، فتركته يصارعهم دون أن تمد إليه يداً، حتى نجحت جحافل المغول سنة 1231م في القضاء على دولته التي كانت تقع في إقليم كرمان الحالي في جنوبي إيران، ثم لقي حتفه وحيداً شريداً على يد أحد الأكراد.

ـ **من الرق إلى الإمارة:**

كان قطز من بين الأطفال الذين حملهم المغول إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق، ومضت حياته مثل غيره من آلاف المماليك الذين حملت مواهب بعضهم إلى القمة وتولي السلطة، أو قد تقصر مواهبهم فتبلغ بهم إلى أمير خمسة، أو تعلو قليلاً فيصبح أمير طبلخانة.

وتقص علينا المصادر التاريخية أن قطز كان مملوكاً في دمشق ضمن مماليك بن الزعيم، ثم انتقل إلى القاهرة، وأصبح من جملة مماليك عز الدين أيبك التركماني، وترقى عنده حتى صار أكبر مماليكه وأحبهم إليه وأقربهم إلى قلبه.

ـ **ظهوره على مسرح الأحداث:**

بعد نهاية الحكم الأيوبي في مصر اتفقت كلمة المماليك على اختيار شجرة الدر سلطانة للبلاد، في سابقة لم تحدث في التاريخ الإسلامي إلا نادراً، غير أن الظروف لم تكن مؤاتية لاستمرارها في السلطنة، على الرغم مما أبدته من مهارة وحزم في إدارة شؤون الدولة، فلم تجد بُداً من التنازل عن الحكم للأمير عز الدين أيبك أتابك العسكر الذي تزوجته وتلقب باسم الملك المعز. ولم تسلس القيادة للسلطان الجديد في ظل ازدياد نفوذ زعيمهم أقطاي الذي تمادى في الاستخفاف بالملك المعز، ولا يظهر في مكان إلا وحوله رجاله ومماليكه في أبهة عظيمة كأنه ملك متوج، وبالغ في تحقيره للسلطان فلا يسميه إلا أيبك، وتطلعت نفسه إلى السلطنة، فاستشعر السلطان الخوف على عرشه

بعد أن اشتد بغي أقطاي وكثرت مظالمه واستهانته بالرعية، فعزم على التخلص منه، وأعد خطة لذلك اشترك في تنفيذها أكبر مماليكه قطز، فكان ذلك أول ظهور له على صفحات التاريخ. ومن تلك اللحظة بدأ يشق طريقه نحو المقدمة.

ـ الطريق إلى السلطنة:

هيأت الأقدار الطريق لقطز لكي يصل إلى الحكم، فلم يكد يهنأ الملك المعز بالتخلص من غريمه أيبك ويقبض على بعض المماليك البحرية ويجبر بعضهم على الفرار من مصر، حتى دب صراع بينه وبين زوجته شجرة الدر، انتهى بمقتلهما، وتولى نور الدين علي بن المعز أيبك السلطنة، لكنه كان صبياً يلهو ولا يصلح لمباشرة الحكم وتحمل المسؤولية. وأصبحت مقاليد البلاد في يد سيف الدين قطز الذي بدأ نجمه في الظهور، وقام بنشر الأمن في البلاد والقضاء على المحاولات الفاشلة للأيوبيين لاسترداد مصر من أيدي المماليك، فزاد ذلك من قوة إحكامه على البلاد. ثم جاءت اللحظة الحاسمة ليقوم قطز بما ادخره له القدر من الشرف العظيم وتخليد اسمه بين كبار القادة والفاتحين، فكانت الأخبار السيئة تتوالى على القاهرة بسقوط بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله، وتحرك جحافل المغول نحو الشام التي تساقطت مدنها الكبرى في يد هولاكو. كانت هذه الأنباء تزيد القلق في مصر التي كانت تخشى عاقبة مصير الشام، في الوقت الذي كان فيه السلطان الصبي غافلاً، يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة، ويلعب بالحمام مع الخدم!.

- **الإجتماع المصيري:**

أفاق الملك الناصر صاحب حلب ودمشق على الحقيقة المرة، وأدرك أهداف المغول، وهو الذي راسلهم ليضع يده في أيديهم ليساعدوه في استرداد مصر، فبعث بابن العديم المؤرخ المعروف إلى مصر ليستنجد بعساكرها. فلما قدم إلى القاهرة عقد مجلساً بالقلعة حضره السلطان الصبي وكبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة وفي مقدمتهم الشيخ العز بن عبد السلام، فسأله الحاضرون من الأمراء عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود، فأجابهم بقوله: «إذا لم يبق شيء في بيت المال، وأنفقتم ما عندكم من الذهب والنفائس، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها - ولم يؤخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء»، واتفق الحاضرون على ضرورة المقاومة والجهاد.

لم يعد أمام قطز بعد أن ازداد خطر المغول، وأصبحوا على مقربة من مصر سوى خلع السلطان الصبي، فانتهز فرصة خروج الأمراء إلى الصيد في منطقة العباسة بالشرقية، وقبض على الملك المنصور واعتقله في القلعة هو وأسرته في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1259م، وأعلن نفسه سلطاناً، وبدأ في ترتيب أوضاع السلطنة، واسترضى كبار الأمراء بأنه لم يقدم على خلع السلطان الصبي إلا لقتال المغول، لأن هذا الأمر لا يصلح بغير سلطان قوي، ومنّاهم بأن الأمر لهم يختارون من يشاؤون بعد تحقيق النصر على العدو، وبدأ في اختيار أركان دولته وتوطيد دعائم حكمه استعداداً للقاء المغول.

ـ قتل رسل المغول:

وبعد توليه السلطنة بقليل جاء رسل المغول يحملون رسائل التهديد والوعيد، ولم يكن أمام قطز إلاّ أحد أمرين: إما التسليم ـ مثلما فعل غيره من حكام الشام ـ أو النهوض بمسؤوليته التاريخية تجاه هذا الخطر الداهم الذي ألقى الفزع والهلع في القلوب، فجمع قطز الأمراء وشاورهم في الأمر فاتفقوا على قتل رسل المغول قطعاً لتردد البعض في الخروج للقتال، وإشعاراً للعدو بالقوة والتصميم على القتال، وبعد قتل الرسل بدأ السلطان في تحليف الأمراء الذين اختارهم، وأمر بأن يخرج الجيش إلى الصالحية، ونودي في القاهرة وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام. وفي هذه الأثناء كان الأمير بيبرس البندقداري قد قدم إلى مصر بعد أن طلب الأمان من الملك المظفر قطز، ووضع نفسه تحت تصرفه في جهاده ضد المغول، فأنزله السلطان بدار الوزارة، وأحسن معاملته، وأقطعه قليوب ومناطق الريف المجاورة لها.

ـ اللقاء الحاسم في عين جالوت:

سار السلطان قطز بجيوشه بعد أن هيأها للجهاد، وبذل الأرواح في سبيل نصرة الله، فوصل غزة، ثم اتخذ طريق الساحل متجهاً نحو بحيرة طبرية، والتقى بالمغول، وكانوا تحت قيادة كيتوبوقا (كتبغا) في معركة فاصلة في صباح يوم الجمعة الموافق في 3 أيلول/سبتمبر 1260 عند عين جالوت من أرض فلسطين بين بيسان ونابلس، وانتصر المسلمون إنتصاراً هائلاً بعد أن تردد النصر بين الفريقين، لكن صيحة السلطان التي عمت أرجاء المكان

«وا إسلاماه» كان لها فعل السحر، فثبتت القلوب وصبر الرجال، حتى جاء النصر وزهق الباطل. وأعاد هذا الظفر الثقة في نفوس المسلمين بعدما ضاعت تحت سنابك الخيل، وظن الناس أن المغول قوم لا يُقهرون، وكانت نقطة تحول في الصراع المغولي - الإسلامي، فلأول مرة منذ وقت طويل يلقى المغول هزيمة ساحقة أوقفت زحفهم، وأنقذت العالم الإسلامي والحضارة الإنسانية من خطر محقق. وكان من شأن هذا النصر أن فر المغول من دمشق وبقية بلاد الشام إلى ما وراء نهر الفرات، ودخل السلطان قطز دمشق في آخر شهر رمضان وأقام بقلعتها، وفي غضون أسابيع قليلة تمكن من السيطرة على سائر بلاد الشام، وأقيمت له الخطبة في مساجد المدن الكبرى حتى حلب ومدن الفرات في أعالي بلاد الشام، وتمكن من إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع البلاد، وبعد أن اطمأن إلى ما فعل قرر العودة إلى مصر في 4 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1260م.

- اغتياله:

لما بلغ السلطان قطز إلى بلدة القصير من أرض الشرقية بمصر بقي فيها مع بعض خواصه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، وضربت للسلطان خيمته، وهناك دبرت مؤامرة لقتله نفذها شركاؤه في النصر، وكان الأمير بيبرس قد بدأ يتنكر للسلطان ويضمر له السوء، وأشعل زملاؤه نار الحقد في قلبه، فعزم على قتل السلطان، ووجد منهم عوناً ومؤازرة، فانتهزوا فرصة تعقب السلطان لأرنب يريد صيده، فابتعد عن حرسه ورجاله، فتعقبه

المتآمرون حتى لم يبق معه غيرهم، وعندئذ تقدم بيبرس ليطلب من السلطان امرأة من سبي المغول فأجابه إلى ما طلب، ثم تقدم بيبرس ليقبِّل يد السلطان شاكراً فضله، وكان ذلك إشارة بينه وبين الأمراء، ولم يكد السلطان قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة، في حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى أجهزوا عليه، وانتهت بذلك حياة بطل معركة عين جالوت.

وذكر المؤرخون أسباباً متعددة لإقدام الأمير بيبرس وزملائه على هذه الفعلة الشنعاء، فيقولون: إن بيبرس طلب من السلطان قطز أن يوليه نيابة حلب فلم يوافق، فأضمر ذلك في نفسه. ويذهب بعضهم إلى أن وعيد السلطان لهم وتهديدهم بعد أن حقق النصر وثبّت أقدامه في السلطة كان سبباً في إضمارهم السوء له وعزمهم على التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم، وأياً ما كانت الأسباب فإن السلطان لقي حتفه بيد الغدر والاغتيال، وقُتل وهو يحمل فوق رأسه أكاليل النصر.

ركن الدين بيبرس
(1223 ـ 1277م)

من أبرز مشاكل أهل المشرق عامة أحادية النظر في تقييم الأشخاص، فإن قبلنا إنساناً جعلناه بريئاً من العيوب، بل ونجعل سيئاته حسنات، وإن كان موقفنا عكس ذلك جعلناه شيطاناً مريداً، ولذا نرى أحد أبرز مفكري الإسلام في القرن العشرين ـ الشيخ محمد عبده ـ يرى أن الشرق لن يصلح من حاله إلا «مستبد عادل»، ويا له من وصف غريب!! وجمع لمتناقضين في الصفات عجيب، وكأنه يصف شخصاً ليس من بني البشر، فإن النفس المستبدة قلما تقبل النصح أو تذعن لحق يخالف مصلحتها، والعادل يبحث عمن يراجعه ويرده للحق، وحتى نقيم البرهان على صدق ما ذهبنا إليه، نعرض لسيرة هذا الملك الذي لم يهزم قط في معركة دخلها وهو بدوره يجمع المتناقضات التي أشار إليها الشيخ محمد عبده.

ركن الدين بيبرس كان مولده بمنطقة القبجاق بجوار نهر الفولجا بوسط آسيا، وكان ذلك ـ على الأرجح ـ حوالي 1223م، وقد أُخذ من بلاده وبيع بدمشق لرجل يسمى العماد الصايغ، ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين والمعروف باسم البندقداري، ومنه أخذ بيبرس

لقب البندقداري ـ من الغريب أن هذا الأمير صار من أتباع بيبرس بعد توليه ملك مصر ـ، وقد قبض الملك نجم الدين أيوب على الأمير علاء الدين وصادر أملاكه وضم إليه مماليكه، فكان منهم بيبرس، وقد عمل بيبرس تحت قيادة الفارس أقطاي ضمن المماليك البحرية في بلاط نجم الدين أيوب. وترجع تسمية المماليك البحرية إلى أن نجم الدين أيوب أخذ منهم فرقة للأسطول فعرفوا باسم البحرية، كما أنه أسكنهم جزيرة الروضة وحشدهم بها.

ظهر نجم بيبرس أثناء الحملة الصليبية السابعة، وبالتحديد في وقعة المنصورة عام 1250م، وفيها استطاع قادة المماليك وعلى رأسهم بيبرس من رد الهجوم الصليبي، وتعقب الصليبيين حتى معسكرهم، ومواصلة الليل بالنهار في القتال، وانتهى الأمر بالقضاء على الحملة، وأسر الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة. وعلى مستوى الصراعات الداخلية اشترك مع قائده أقطاي في قتل توران شاه آخر ملوك بني أيوب، وما لبث أقطاي إلا قليلاً حتى ذاق من نفس الكأس فاغتيل على يد قطز بأمر من أيبك، ففر بيبرس إلى الشام، ثم عاد في سلطنة قطز، وتولى شؤون الجند، واشترك في موقعة عين جالوت عام 1260م وتعقب الجيش المغولي مع طائفة من الجند الأشداء حتى أخرجهم من حلب ودمشق، ودفعه الطمع في طريق العودة إلى مصر إلى قتل قائده الملك المظفر قطز، ودخل القاهرة ليلاً والناس مستعدون لاستقبال القائد المنتصر قطز، وأرسل المنادي مع ضوء النهار ينادي: «ترحموا على الملك المظفر قطز، وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس» فكان بذلك الرابع من الملوك من ذوي الأصل المملوكي، وكان ذلك في العام 1260م.

ـ بيبرس والأوضاع الداخلية:

كان بيبرس أول من استوعب من ملوك المماليك وضعهم، وذلك من حيث إنهم دولة جديدة مغايرة لدولة بني أيوب، ومن ثم شرع في تنظيم شؤون البلاد المختلفة، ومن أبرز الأمور ترتيبه القضاء بحيث يقوم عليه أربعة قضاة ـ قاضٍ لكل مذهب ـ ولكن المشكلة الأساسية التي اتجه إليها بيبرس هي شرعية سلطة المماليك.

بدأ بيبرس بمشكلة المال فبدأ تخفيف الضرائب والمكوس عن الشعب، ومن ثم تقبلته الرعية المهمومة بقوت يومها، ثم نظم أمور المماليك وكان يعاملهم بالرغبة والرهبة، وكان لا يلزمهم أمراً حتى يكون أسبقهم إليه، فنراه يعمل مع أمراء جنده في حفر خندق حول إحدى القلاع في الشام، وعندما يشكو بعض أمرائه يرد عليهم بأن حاله من حالهم.

أما مع العلماء، فقد كان متشدداً، لا يقبل منهم شفاعة أو نصيحة إلا نادراً أو مضطراً، حتى أنه اشتد على الشيخ العز بن عبد السلام، فعزم الشيخ على مغادرة القاهرة، فحمل متاعه على حمار وسار وأهله يقصد الرحيل، فما يمر على بيت ويعلم أهله الخبر حتى يحملوا متاعهم ويسيروا خلفه، حتى بدا الأمر وكأن أهل القاهرة يتجهون للهجرة مع الشيخ!!

فنصح الأمراء بيبرس بضرورة ترضية الشيخ وإلا صار حاكماً على خرائب القاهرة وكلابها، فأرسل في طلبه، فرفض الشيخ، فأسرع إليه وظل به حتى وافق الشيخ على العودة على أن ترفع

المظالم، فأقره بيبرس على ما يريد، وقد أرسل الشيخ النووي من الشام برسالة ينصحه فيها، فاشتد بيبرس عليه في الرد وهدده وسخر منه لقعوده عن الجهاد، فرد عليه الشيخ النووي رداً مفحماً شديداً.

أما المشكلة الكبرى المتمثلة في شرعية السلطة فقد استطاع بيبرس أن يجد لها حلاً عبقرياً، إذ أتى بأحد الغلمان الفارين من آل العباس، وأثبت نسبه، ثم أقامه كخليفة عباسي بالقاهرة، وبايعه هو والأمراء والرعية، ثم حمل هذا الخليفة على أن يفوضه في إدارة كافة شؤون البلاد، وصار الخليفة بلا سلطان، وصار هذا هو النظام المتبع في تولي شؤون البلاد، وصار الدعاء على المنابر للخليفة العباسي والسلطان المملوكي معاً، وضربت العملة كذلك باسميهما معاً. ومما يذكر له أنه أغلق حانات الخمر وحرمها وأغلق بيوت الزنا، وأبطل الضرائب التي كانت تحصل منهم، وفرض لهم من بيت المال ما يسد حاجتهم حتى لا يعودوا لهذه الأعمال.

ـ بيبرس والأوضاع الخارجية:

لقد كان بيبرس قريباً من السلطة فترة من الزمن، كما أن خروجه إلى الشام ـ بعد مقتل قائده أقطاي ـ أضاف لخبرته في الشؤون الخارجية. لم تأخذ بيبرس نشوة النصر في عين جالوت، إذ كان يعلم أن خطر التتار ما زال قائماً في الشام، ويكمن إلى جواره الخطر الصليبي في أرض فلسطين، ولم يكن بيبرس من الحكام الذين يجيدون فناً دون فن، فكما كان فارساً، شجاعاً، مقداماً، سريع الحركة، قوي الشكيمة، كان سياسياً بارعاً في الشؤون الخارجية، إذ يعلم بدخول طائفة من التتار في الإسلام،

وهم يقيمون في موطنه الأصلي بمنطقة القفجاق، وعلى رأسهم الملك بركة خان الذي أشهر إسلامه، وأسلمت معه القبيلة الذهبية من التتار فتزوج من أخت بركة خان وأنجب منها ولي العهد بركة. كما استقدم أحد أقربائه للبلاط السلطاني وقربه منه، مما كان له أثره في قيام تحالف بين بركة خان وخلفائه من بعده وبين الظاهر بيبرس وسلاطين المماليك، وصار ذلك أحد المحاور الثابتة في سياسة المماليك الخارجية، وقد شرع بعد ذلك بيبرس في مهاجمة حصون الصليبيين في سرعة وقوة، فكان لا يسير بسياسة مهاجمة الحصون القريبة دون البعيدة، بل صار ـ أحياناً ـ يهاجم الأبعد دون الأقرب، وذلك حتى يحتاط كل معسكر صليبي لنفسه، فلا يفكروا في مساندة بعضهم بعضاً، ولذلك نرى فتوحاته في فترة حكمه هي: قيسارية، وأرسوف، وصفد، وطبرية، ويافا، والشقيف، وإنطاكية، وبغراس، والقصير، وحصن الأكراد، والقرين، وحصن عكا، وصافيشا، والمرقبة، وحلباء، وبانياس، وطرسوس، وكانت كلها بأيدي الصليبيين، هذا غير المدن والقلاع التي كانت بأيدي التتار. وقد توجه بيبرس في العام 1277 إلى الشام حيث قضى على مشروع التحالف المغولي الصليبي بقيادة أبغا بن هولاكو، وكانت موقعة أبلستين ضد الصليبيين ثم ضد التتار من الوقائع المؤثرة في تاريخ المنطقة، إذ لم تقم للتتار بعدها قائمة، كما تم القضاء على مشروع التحالف المغولي الصليبي إلى الأبد.

ـ وفاة الملك الظاهر:

يروي بيبرس داودار في تاريخه الذي وصف فيه أيام عمله

كأمين للسر بقصر الظاهر بيبرس، أن الملك الظاهر كان يهتم بالنظر في النجوم، وأحوال الفلك، ظناً منه أنها تظهر بعضاً من الغيب، فحدث في عودته من موقعته التي قضى فيها على التحالف المغولي الصليبي، خسف للقمر، فقال المتأولون: هذا نذير بموت رجل جليل القدر، فخاف على نفسه، فأرسل في طلب أحد كبار رجال البيت الأيوبي ويُسمى الملك القاهر بهاء الدين بن المعظم عيسى، وقد كانت تجمع بينهم العداوة، وأراد بيبرس أن يصرف التأويل إلى هذا الرجل، فجاءه الملك القاهر فقدم له بيبرس كأساً مسموماً، فأحس بها الملك القاهر بعد شربها فخرج على الفور ولم يتمها، فأمر بيبرس الساقي أن يصب له شراباً، فأخطأ الساقي وصب له في نفس الكأس المسمومة، فشرب بيبرس السم الذي وضعه بيده، فكان الجزاء من جنس العمل، فأصابته الحمى أياماً، ثم مات متأثراً بها، وقام جنوده بنقله إلى القاهرة، ودخلوا به ليلاً لدفنه، كما دخل هو ليلاً عشية قتله الملك المظفر قطز.

الأمير فخر الدين الثاني الكبير
(1572 - 1635)

- المقدمة:

رغم وفرة المصادر والمراجع التاريخية التي تناولت سيرة حياة الأمير اللبناني فخر الدين المعني الثاني، إلاّ أن معظمها تناول أهم أعماله في لبنان مع لفتةٍ موجزة لاهتماماته بضم فلسطين إلى ممتلكاته، وقليلة جداً تلك المراجع التي تناولت مشاريعه التوسعية بفلسطين مع بعض الإسهاب، والحقيقة أن معظم هذه المراجع كان يعوزها التحليل.

أصبح من الأمور المسلم بها في المصادر التاريخية، أن بلاد الشام كانت تابعة لسلطة السلطان العثماني تبعية اسمية، حيث ترك العثمانيون الحكم في تلك الأنحاء لأصحاب السطوة والنفوذ المنتمين لبيوتات تمتلك الكثير من مقوّمات القوة والزعامة، واكتفوا بتعيين والٍ لإقرار الأمن والنظام في الولايات الثلاث التي أقاموها وهي: دمشق وطرابلس وحلب، إضافة إلى بعض المأمورين[1].

---

(1) البوريني، الحسن بن محمد: تراجم الأعيان من أبناء الزمان. تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، جزءان، دمشق 1959، 1966.

كما أصبح من الأمور المسلّم بها أيضاً، أن العثمانيين ذوي الباع الطويل في المسائل العسكرية وبحكم خبراتهم السابقة في نظم الإدارة، خاصة العسكرية منها في الميدان الأوروبي، وبحكم انشغالهم في الحروب المتتالية في أوروبا وعلى كافة الأصعدة، كانوا أكثر ميلاً لترك أمور الحكم للأُسر الإقطاعية المتواجدة بكثرة في كافة أرجاء بلاد الشام مكتفين باعتراف تلك الأُسر بسيادتهم على المناطق التي يحكمونها، لأنهم في نهاية المطاف يحصلون على مشروعيّة حكمهم من الولاة العثمانيين في دمشق وطرابلس فيما عدا شمال سورية التي بقيت تحت الحكم العثماني المباشر.

ومن هنا فإن مصلحة السلطان العثماني سليم الأول اقتضت بعد استيلائه على دمشق الاعتراف بزعامة الأمراء اللبنانيين مثل الأمير فخر الدين المعني الثاني حاكم جبل الشوف (لبنان)، بعد إشتراكه إلى جانب العثمانيين في موقعة مرج دابق عام 1516 م[1]، وجعله حاكماً على لبنان من يافا إلى طرابلس[2].

ومهما يكن من أمر، يجب أن نضع نصب أعيننا حقيقة لا يمكن تجاهلها، مفادها أن الطائفة الدرزية في لبنان كانت تتمتع بحس سياسي يتسم بالذكاء المطلق نتيجة لتواجدها في منطقة تتقاطع فيها الانتماءات المذهبية والسياسية، فلبنان على صغر مساحته، يضم بين

---

(1) الحتّوني، منصور طنوس: نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية. بدون بيانات نشر، بدون تاريخ.

(2) الخالدي الصفدي، أحمد بن محمد: لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني. نشره: د. أسد رستم وفؤاد افرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 1969.

دفتيه العديد من المذاهب الدينية المختلفة، وكان الدروز تائهين بين الإستقلالية الدينية وانتمائهم الإسلامي.

هذا الحس السياسي، جعل من الدروز ـ إن جاز التعبير ـ أساتذة في المكيافيللية (الانتهازية) على مدار تاريخهم حتى قبل ظهور ساسة البندقية بزمن طويل[1]، وفي حالة الأمير فخر الدين الأول يؤكد حيدر الشهابي صحة هذا الوصف، بأنه لم يشارك منذ الوهلة الأولى في موقعة مرج دابق، بل آثر البقاء على الحياد بين الطرفين المتحاربين ـ أي العثمانيين والمماليك ـ حتى يرى لمن ستكون الغلبة، ثم يدخل القتال إلى جانب الطرف المنتصر، ليبدو في مظهر المسعف له، وبالتالي يحصل على ثمن مساعدته له[2].

ويقول عادل إسماعيل: أنه «كان لدى سليم الأول من الحكمة ما جعله يوافق على أن يحكم الدروز أمراء منهم، فأعطى فخر الدين الأول إمارة الشوف التي بقيت خاضعة لنفوذ المعنيين حتى القرن السابع عشر[3]. والحقيقة أن الحكمة التي دفعت سليماً وما تلاه من سلاطين العثمانيين لجعل حكام لبنان يحكمون مناطقهم، لا يعود في المقام الأول لضعف السلطة العثمانية في توطيد نفوذها في لبنان بقدر ما يعود إلى خشيتها من التورط في

---

(1) الدبس، يوسف (المطران): تاريخ سورية. راجعه وحققه: د. مارون رعد، عشرة أجزاء، ج7، دار نظير عبود، بيروت، بدون تاريخ.
(2) الأمير حيدر أحمد الشهابي: تاريخ الأمير حيدر الشهابي. علق على حواشيه: د. مارون رعد، 4 أجزاء، ج 3، دار نظير عبود، بيروت 1993.
(3) ابن طولون، محمد: مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان. نشره: محمد مصطفى، جزءان، القاهرة 1964.

المستنقع اللبناني الآسن المليء بالتناقضات المذهبية والسياسية، لذا وجد السلطان سليم نفسه في غنى عن هذا التورط الذي قد يبذل من أجله خسائر جسيمة قد تؤثر على موقف دولته في أوروبا».

ويستطرد عادل إسماعيل في القول: «بينما أعطيت بقية المقاطعات السورية واللبنانية في هذا العهد إلى حكام أجانب». لكن هذا القول تعوزه الدقة فيما يخص لبنان وفلسطين باستثناء مناطق سورية الشمالية، فمن المعلوم أن وادي التيم اللبناني كانت تحكمه الأسرة الشهابية، والبقاع يحكمه آل حرفوش الشيعة، وجبل عامل كان يحكمه عدة أسر إقطاعية شيعية. وفي فلسطين كانت الأسر الإقطاعية هي من تتولى إدارة زمامها، وإن كانت مؤيدة ومحالفة للسلطة العثمانية.

ويؤكد البعض صحة هذا الطرح بأنه لم يقع تحت سلطة الحكم العثماني المباشر سوى القليل من مدن الشام وضواحيها، حيث ظل الكثير من المناطق خاصة المناطق الجبلية تحت حكم أمرائها وشيوخها المتوارثين، الذين كانوا كالسابق يعقدون الكونفدراليات فيما بينهم، ويقومون بالحملات مع قواتهم، ويخوضون الحروب ضد بعضهم البعض، كما أن لبنان كان في بداية العهد العثماني لبلاد الشام بمثابة إمارة ذات إستقلال ذاتي تحت سيطرة الأسرة المعنية[1].

وكما الحال مع أمراء لبنان، فإن النهج نفسه اتبعه السلطان سليم الأول مع الزعامات المحلية في فلسطين وهي ذات مرتكزات بدوية وإقطاعية، وقد وازنت السلطات العثمانية فيما بين هذه

---

(1) محمد الأمين المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر. 4 أجزاء، القاهرة 1284هـ 1869م.

الزعامات واستغلتها كأدوات في الحكم، وفي تصريف الشؤون الإدارية المحلية، وكانت فلسطين تتبع إدارياً ولاية دمشق، وقسمت إلى خمسة سناجق أو ألوية هي: القدس وغزة وصفد ونابلس واللجون، إضافة إلى سنجقي عجلون والكرك مع الشوبك في شرقي الأردن[1].

واللافت للنظر، أن العثمانيين قسّموا فلسطين وحدها على صغر مساحتها إلى خمسة سناجق، بينما بقية ولاية الشام كانت تضم على اتساعها أربعة سناجق فقط، وهذا يعود لأهمية موقع فلسطين وحيويته، فهي تربط دمشق بمصر والحجاز، أي أنها محور الطرق الرئيسية وعصبها، فقرب فلسطين من الطريق السلطاني الذي كانت تستخدمه قافلة الحج الشامي المتجهة من دمشق إلى الحجاز، زاد من أهميتها الأمنية بالنسبة لهذه القافلة، لأن عدداً من القبائل الموجودة فيها أو القريبة منها كان يهدد طريق الحج، وكانت هذه القافلة عندما تشعر بخطر تلك القبائل في طريق العودة من الحجاز، تضطر لتحويل طريقها السلطاني إلى غزة، حيث الطريق التجاري بين مصر ودمشق وهو أكثر أمناً، وهو الطريق الذي اصطلح على تسميته «بالطريق الغزاوي»[2].

ولتحقيق الأمن في فلسطين، حرص العثمانيون على الإكثار من ألويتها، نظراً لكثرة الزعماء المحليين فيها، وهم بمعظمهم من

---

(1) محمد بن جمعة المقاري: الباشات والقضاة. جمعها وحققها ونشرها: د. صلاح الدين المنجد، في كتاب: ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق 1949.

(2) د. عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون 1516 ـ 1916. ط1، دمشق 1974.

أصول بدوية وبعضهم من بقايا المماليك، وكان من شأن هذه الألوية إحكام الرقابة على هؤلاء الزعماء، أو تقريبهم من السلطة بتعيينهم حكاماً عليها، ومن أشهر الزعماء المحليين الذين استقطبهم العثمانيون، طراباي ابن قراجا، أحد زعماء نابلس الذي عيّنوه أميراً على منطقة اللجون، وكان استقطاب هؤلاء الزعماء من عوامل الاستقرار البارزة في فلسطين في بداية العهد العثماني، نظراً لخبراتهم بطبيعة المنطقة وظروف سكانها، وتمتعهم بأفضل الأساليب الإدارية الملائمة لطبيعة هؤلاء السكان.

بقي أن نشير إلى مسألة غاية في الأهمية، هي أن الإقطاع في لبنان قد اختلف عن بقية المناطق السورية الأخرى، إذ كان في الغالب ذا طابع طائفي، حيث كان فيها أرسخ جذوراً أقوى من الإقطاع الحكومي[1].

ـ ولادة الأمير فخر الدين وتوليه الإمارة:

ولد الأمير فخر الدين المعني الثاني في العام 1572 في بلدة بعقلين، تولى الإمارة بعد أن قتل العثمانيون أباه قرقماز. اتخذ دير القمر عاصمة لإمارته. وسع إمارته حتى شملت كل لبنان والجليل والكرمل. يعتبر مؤسس لبنان الحديث بفضل سياسة التسامح التي اتبعها. أقام علاقات تجارية مع دول أوروبا. لجأ إلى فلورنسا بعد أن اختلف مع العثمانيين، ولما تحسنت علاقته معهم عاد إلى منصبه حتى أُسر ونُقل إلى الآستانة عاصمة العثمانيين وقتل هناك في العام ـ 1635.

---

(1) د. ياسين سويد: التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين. جزءان، ج1، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1985.

تولى فخر الدين الثاني مقاليد الحكم في جبل لبنان عام 999 هـ - 1590م، وكان عمره وقتذاك ثمانية عشر عاماً[1]، وبذلك فتحت صفحة جديدة من تاريخ لبنان الحديث، فقد اتصف فخر الدين بأنه سياسي ماهر، بارع في حبك الدسائس، كما كانت له عيون في الآستانة وفي قصور الباشوات ودور الأتباع، وبذر الشقاق في صفوف أعدائه، ولإرضاء السلطان العثماني عنه، قام بدفع أموال ضخمة لخزينة الدولة، وتقاسم معه الغنائم الحربية[2].

ولم يتوان فخر الدين بعد ذلك في إعادة بناء موقع أسرته في الشوف بثبات، ومن ثم تمكن من الحصول على قيادة لا ينازعه فيها أحد على كامل جبل لبنان والمقاطعات المجاورة، وإتباعاً لسياسته الحكيمة، فقد اتخذ من الأسرة الشهابية حكام وادي التيم حلفاء مخلصين له.

- طموح الأمير:

مهما يكن من أمر، فثمة أسباب عدة دعت فخر الدين فور توليه مقاليد السلطة للنظر إلى أبعد من إمكانياته المتاحة لديه ولأسرته منها:

- طموحه بإقامة لبنان على نطاق أوسع، وبالتالي قطع أخر صلة له بالدولة العثمانية.

---

(1) د. كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث. ط2، دار النهار للنشر، بيروت 1969.

(2) فائق طهبوب، والدكتور محمد سعيد حمدان، تاريخ العالم الحديث والمعاصر. ط2، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان 1998.

- السير في إمارته نحو التطور والازدهار[1].

- علاقته المتميزة مع المسيحيين خاصة الموارنة منهم، بعدما شعر بعدم ارتياحهم لسياسة آل سيفا تجاههم. وكان ذلك حافزاً له أعطاه القدرة على تحقيق مطامحه في التوسع.

- تجاوزات آل سيفا وانتقاصهم من حقوق أسرته بالاعتداء على ممتلكاتها وإمتيازاتها.

- طموحه بتحقيق أمجاد جده فخر الدين الأول التي لم يستطع استكمالها بسبب مقتله.

- استغلاله لبوادر الضعف والترهل التي بدأت تظهر على جسد الدولة العثمانية خاصة عندما تم السماح لغير الإنكشاريين من الفلاحين والحرفيين بالانخراط في سلك الانكشارية بعد أن كانت حكراً لهم.

كما استفاد فخر الدين كذلك من المواهب التي منحته إياها الطبيعة، فاندفع بخطىً حثيثة نحو الميدان السياسي الذي شغف به، وسرعان ما استطاع أن يحكم بنفسه، فأظهر مقدرة فائقة في تسيير دفة الحكم مستلهماً السياسة والمخططات التي اتبعها وسار عليها أسلافه من الأمراء واتبع منهجها بعدما وجدها ترضي طموحه البعيد المدى[2].

---

(1) د. عادل مناع، تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1700 ـ 1918 (قراءة جديدة). ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1999.

(2) عدنان محمد البخيت، «من تاريخ حيفا العثمانية: دراسة في أحوال الساحل الشامي». مجلة شؤون فلسطينية (94)، أيلول/ سبتمبر 1979.

بعدما استهل فخر الدين الثاني حكمه على جبل لبنان تسلّم من السلطان العثماني سنجقي بيروت وصيدا. وبدأ طموحه السياسي يتّقد في توسيع رقعة إمارته، فساعد العثمانيين في القضاء على عدوه الأمير منصور بن الفريخ حاكم البقاع ونابلس وصفد وعجلون بعدما خشيت السلطات العثمانية، خاصة والي دمشق مراد باشا، من ازدياد قوته ونفوذه، فتم قتله في 13ربيع الأول 1002هـ/ 7كانون الأول (ديسمبر) 1593م.

كما حمل فخر الدين على جاره ووالد زوجته، يوسف باشا سيفا، وبعد معارك عدة أشهرها موقعة نهر الكلب عام 1007هـ/ 1598م تمكن من السيطرة المؤقتة على شمال لبنان، ولم يلبث أن خضع له بنو حرفوش في بعلبك، وزعماء البدو في البقاع وفي المنطقة الجنوبية حتى الجليل، مستغلاً فترة انشغال السلطان أحمد بقتال المجريين في أوروبا والصفويين في بلاد فارس.

ورغم أن العثمانيين لم يتخذوا موقفاً بعينه من فخر الدين بعد تحرشه بيوسف باشا حليفهم الرئيسي في لبنان، إلا أنهم سرعان ما انقلبوا عليه بعد تحالفه مع علي باشا جانبولاد (جنبلاط) أحد أفراد الأسرة الكردية الحاكمة في كِلّس والذي كان قد اغتصب السلطة في حلب عام 1015هـ ـ 1606م، وكان علي باشا هذا مناوئاً ليوسف باشا سيفا منافس فخر الدين، لذلك عندما هُزم ابن جنبلاط من العثمانيين آثر فخر الدين إيجاد تسوية عاجلة مع العثمانيين، غير أن الوقت كان قد أدركه، فالخصومة المحلية بين آل معن وآل سيفا كانت قد كلفت فخر الدين توريط نفسه في الإشتراك في تواطؤ

خطير مع المتمردين على الحكم العثماني، الأمر الذي سيكلفه فيما بعد فقدان إمارته لبعض الوقت.

ـ فلسطين ومشروع فخر الدين الإقليمي التوسعي:

ليس بوسع أيّ من الباحثين قراءة أهمية فلسطين في المخطط التوسعي الذي وضعه الأمير فخر الدين إلاّ من خلال زاوية الصراع القيسي ـ اليمني الذي اشتعلت أواره حتى قبل استيلاء العثمانيين على بلاد الشام، هذا الصراع الذي شمل مساحة واسعة من لبنان وفلسطين، لسيادة النظام القبلي فيهما.

وبناءً عليه، فإن أبرز السمات التي ميّزت المجتمع في المقاطعات اللبنانية في العهد المعني، هي انقسام هذا المجتمع انقساماً حزبياً لا طائفياً، بحيث يلتقي في الحزب القيسي كما في الحزب اليمني أُسر ورجال من جميع الطوائف دون عقد طائفية ولا حساسيات مذهبية، وكانا هما الحزبان الوحيدان اللذان عُرفا في ذلك العهد، وبمعنى آخر كان الحزب الواحد يضم أتباعاً من مذاهب مختلفة، كالسنّة والمتاولة (الشيعة) والموارنة المسيحيين والدروز، وفي الوقت نفسه كان الحزب الآخر يضم أيضاً أتباعاً من المذاهب ذاتها، وخلاصة الأمر أن ولاء الفرد كان للحزب الذي ينضم إليه، وليس للمذهب الديني الذي ينتمي إليه.

أما في فلسطين ونظراً لعدم وجود اختلافات مذهبية عميقة كشأن لبنان، ونظراً لديانة معظم القبائل العربية فيها بالإسلام، خاصة المذهب السنّي، فقد كان الانقسام فيها إلى حزبين اثنين أيضاً

وتحت ذات المسمى، القيسي واليمني، ولكن على أساس الأصول الأولى لتلك القبائل.

ومهما يكن من أمر، فقد استطاع الأمير فخر الدين والمعنيون رغم هذا الانقسام الإجتماعي إلى إثبات نفوذهم في لبنان الجنوبي أولاً، ثم في شمال فلسطين ثانياً، وكان بعض الأمراء المحليين في فلسطين قد استفادوا من انشغال فخر الدين في تقوية نفسه لمواجهة ولاة دمشق المتعاقبين وأعدائه التقليديين آل سيفا، فتنفسوا الصعداء على إثر القضاء على حكم آل فرّيخ الذين سبق أن وسّعوا نفوذهم على حسابهم، وأشهر هؤلاء الأمراء أحمد بن رضوان حاكم غزة الذي توفي عام 1015هـ ـ 1606 ـ 1607م، وحمدان بن قانصوه أمير عجلون والكرك، وطراباي بن قراجا حاكم اللجون الذي خلفه بعد وفاته عام 1010هـ ـ 1601 ـ 1602م، ابنه أحمد، والأمير فرّوخ بن عبد الله حاكم نابلس والقدس.

وكانت إمارة الحج الشامي تنتقل بين هؤلاء الأمراء المحليين، حسب قوتهم ورضى الدولة عنهم، ولكن فيما بعد تعرض هؤلاء الأمراء لضغط فخر الدين وقتاله لهم، بعد أن ازدادت قوته وترسّخ نفوذه، وكان ضغطه يخف عنهم عندما ينشغل بالقتال مع الولاة العثمانيين أو آل سيفا.

غير أن هؤلاء الحكام لم يكونوا على قدر كافٍ من القوة لبسط نفوذهم على مساحات من الأرض، كما كانت سلطاتهم غير ثابتة ومعرضة للتغيير من حين لآخر، بسبب سياسة الباب العالي، وبما

أن جبل لبنان وجنوبه كان يرضخ لنفوذ الأسرة المعنية التي تميّزت بطموحها السياسي الإقليمي على زمن فخر الدين الثاني، فإنه من الطبيعي أن تتعرض فلسطين لتجاذب القوى المحلية والإقليمية، وأن تترك الأسرة المعنية آثارها السياسية على مساحات واسعة من أراضيها، وبخاصة في المناطق الساحلية والشمالية.

ويعزو البعض السبب الذي دعا المعنيين بزعامة فخر الدين للاهتمام بمنطقة شمال فلسطين، إلى وجود عدد من الروابط الإجتماعية والقبلية والطائفية بين المعنيين وبعض الأسر الدرزية الفلسطينية التي تقطن صفد وبعض نواحي الجليل، حيث كان لهذه الروابط دورها وأثرها الخاص في صياغة الطموح المعني في فلسطين، وبالتالي في تشكيل طبيعة العلاقة السياسية التي ربطت ولازالت تربط بين الإقليميين، ويتأكد ذلك إذا علمنا أن زعامة المعنيين في لبنان نفسها كانت مهددة في كثير من الأحيان، بعددٍ من المنافسين الأقوياء سواء كانوا منافسين قبليين أم من الطوائف الدينية الأخرى.

هذا السبب السابق ذكره ليس كافياً لزعيمٍ في حجم فخر الدين للاهتمام بأمور شمال فلسطين، لكي يشنّ عدة حملات متتالية كان هدفها الاستيلاء على كامل فلسطين لا الجزء الشمالي منه فحسب، وبالإمكان إيراد بعض النقاط التي تهدم الفكرة من أساسها:

إن القتال خلال القرون الثلاثة السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر لم تكن لأسباب طائفية، بل حزبية في المقام الأول، متعلقة بالصراع بين الحزبين القيسي واليمني، وبالتالي ليس كل

الدروز من القيسية لكي يناصرهم فخر الدين، فهنالك دروز ينتمون للحزب اليمني كآل علم الدين المنافسين للمعنيين، لذلك كان من الممكن أن يدخل فخر الدين نفسه في صراع مع أسرة درزية مغايرة له في الانتماء الحزبي لو كانت مصالحه تتعارض مع مصالحها.

لا يُعقل أن يرهن فخر الدين مصيره السياسي كله ويضحي بمجمل ما حققه من مكتسبات في لبنان من أجل عدد من الأسر الدرزية التي تسكن منطقة الجليل الفلسطيني، ولا يُعقل أساساً أن يكون قد صاغ مخططاته وطموحاته من أجل تلك الأسر فقط، خاصة إذا ما علمنا أن الطائفة الدرزية في شمال فلسطين لم تكن آنذاك معرضة للخطر أو أية ابتزازات سياسية من الطوائف الأخرى، حيث لم يرد في أيّ من المصادر التاريخية ما أفاد عكس ذلك.

إن العلاقة السياسية التي ربطت بين لبنان وفلسطين في عهد فخر الدين جد مختلفة، ففي لبنان ثائر انفصالي حاول قصارى جهده فصل لبنان عن محيطه العثماني، وفي فلسطين زعامات محلية موالية تماماً للسلطات العثمانية وتأتمر بأمرها. وما محاولة فخر الدين للاستيلاء على فلسطين، إلاّ نوع من الطمع والشبق في الاستحواذ على أملاك الآخرين من أمراء فلسطين المحليين.

ليس من المقبول منطقياً في العُرف السياسي والعسكري أن تكون زعامة أسرة مهددة في كثير من الأحيان بعدد من المنافسين الأقوياء في منطقة ما، أن تدفع عنها هذا التهديد بالتوجه نحو مناطق أخرى للاستيلاء عليها، وفخر الدين ليس ساذجاً إلى هذا الحد ليورط نفسه في مشاكل جديدة، لأنه بذلك يدفع مصيره السياسي

ومستقبل أسرته نحو الهاوية، فالذي يتعرض لمشاكل داخلية في بلده حري به معالجتها والقضاء عليها قبل التوجه للغزو خارجها، وكما ستكشف الدراسة، فإن الأوقات التي جرّد فيها فخر الدين حملاته على فلسطين وشرقي نهر الأردن كانت فيها سلطته قوية بعدما يكون قد انتصر على أحد منافسيه في لبنان أو حتى على والي الشام نفسه، ومع هذا فإن معظم حروبه في فلسطين انتهت بهزيمته.

ومهما يكن من أمر، فأولى اهتمامات فخر الدين لبسط سيادته على فلسطين كانت عقب استيلائه على منطقة البقاع الغنية، مستغلاً فرصة القضاء على حكامها من آل فريخ، فمد نفوذه من البقاع حتى صفد في شمال فلسطين، ويلاحظ هنا أن امتداد نفوذ فخر الدين إلى صفد كان ناجماً عن استيلائه لمنطقة كانت تخضع لنفوذ أسرة إقطاعية آل فريخ كان حكمها يمتد من البقاع إلى صفد ونابلس وعجلون، أو إن جاز التعبير، فقد ورث ممتلكات آل فريخ حتى صفد في المرحلة الأولى، وليس بسبب ارتباطه الطائفي بإخوانه الدروز في شمال فلسطين.

وأدى زوال حكم آل فريخ الذين كانوا يشكّلون قوة عازلة بين ولاة دمشق وفخر الدين وامتداد نفوذ الأخير على البقاع إلى ازدياد الاحتكاك والمنافسة بين الطرفين، خاصة وأن المناطق التي أصبح فخر الدين يسيطر عليها كانت تمر فيها الطرق الرئيسية التي تربط بين دمشق والساحل، وبين دمشق وفلسطين ومصر، وبالتالي تتحكّم في سلامة قافلة الحج الشامي، ومن ثم بدأت المشاحنات والصراعات بين فخر الدين وولاة دمشق.

ورويداً رويداً، رسّخ فخر الدين موقعه السياسي باللعب بمهارة على وتر جشع وخلافات نُخب الحكم العثماني. وكانت سياسة «فرّق تسُد» إحدى السياسات التي مارسها بدقة فائقة، بل وأكثر انتظاماً مما مارسها العثمانيون أنفسهم، حيث كان أعوانه ووكلاؤه في الآستانة يسارعون في إحباط وتفادي أية معارضة من جانب مسؤولي الدولة بالرشاوى الباهظة، كما أنه عمد إلى تكوين جيش خاص من السكّبان المرتزقة، إضافة إلى أتباعه من الدروز والقيسية، وحصّن القلاع في منطقته، وأجرى اتصالات مع آل مديتشي Midici حكّام دوقية توسكانيا Tuscany في فلورنسا الإيطالية للحصول منهم على مساعدة عسكرية وفنية، إضافة إلى تنشيط التبادل التجاري بين إمارته معهم، خاصة تجارة الحرير، التي كانت مزدهرة في منطقة الشوف.

وفي ظل هذه الظروف تعرّض شمال فلسطين عند مطلع القرن السابع عشر لنفوذ الأسرة المعنية إلى حدٍ كبير، فقد كان من أهم أهداف سياسة فخر الدين توسيع مجال نفوذه إلى ما وراء جبل لبنان ليشمل أراضٍ جبلية أخرى، خاصة حوران في سوريا ونابلس وعجلون في فلسطين وشرقي نهر الأردن، وكانت هذه المناطق شأنها شأن لبنان نفسه تسكنها أقوام مضطربة ومتمردة وسلطة العثمانيين عليها هشّة، وتمكن فخر الدين من اصطناع أعوان له بين رؤساء ووجهاء تلك المناطق ودعمهم ضد منافسيهم، مما شكّل تحدٍ مباشر للولاة العثمانيين المتعاقبين في دمشق بعدما أصبح بمقدوره تهديد طريق الحج إلى الحجاز، وقد واصل فخر الدين بوجه عام سياسته الشمالية بثبات بحيث لم يجعل من نفسه شخصاً

غير مرغوب فيه لدى السلطات العثمانية، لكنه تحرّك في الجنوب بصعوبة محاولاً قدر الإمكان عدم الإثارة ولفت الانتباه لما يقوم به من توسّع.

ومهما يكن من أمر، فقد نجح فخر الدين في استرضاء الباب العالي وانتزع ببراعته وحنكته السياسية فرماناً سلطانياً عام 1012هـ ـ 1603م يقضي بتوليه على كل لبنان، وعلى الأجزاء الشمالية من فلسطين وتملكه على بلاد صفد، في مقابل تعهده للباب العالي بتقديم المستحقات المالية المترتبة عليه، بالإضافة إلى وعده للسلطان العثماني بمقاسمته في كل ما يحصل عليه من أموالٍ وغنائمٍ في حروبه المقبلة.

ويرى البعض أن هذا الإتفاق قد أباح لفخر الدين ولو بصورة غير مباشرة بسط نفوذه على القوى المجاورة في فلسطين، حتى وإن كانت هذه القوى معينة من قبل الباب العالي وموالية له، غير أن هذا الرأي ينافي تماماً صحة ما سبق أن ذكرناه آنفاً، من أن تقدم فخر الدين نحو فلسطين واصطناعه للأعوان بين زعمائها، قد أثار حفيظة ولاة دمشق العثمانيين، نظراً للتهديد المباشر الذي سيشكّله فخر الدين في حال نجاحه في مشروعه التوسعي من تهديد لطريق قافلة الحج الشامي، ناهيك عن مصلحة السلطان العثماني في ذاك الوقت، التي تقتضي استقرار الأوضاع الأمنية في منطقة حساسة بالنسبة لإمبراطوريته وتعتبر من أهم مفاصلها الرئيسية، خاصة وأن الصراع العثماني ـ الصفوي مازال مستعراً، من هنا، فإن مصلحة العثمانيين اقتضت دعم أعوانهم في فلسطين

لا إثارة قوى جديدة ضدهم، وهو ما حدث بالفعل كما قررت المصادر التاريخية.

وسرعان ما توترت العلاقات بين فخر الدين والدولة العثمانية بعد صلحها مع النمسا عام 1015هـ - 1606م، وقضائها على تمرد علي باشا جنبلاط - الذي كان متحالفاً مع فخر الدين - في شمال سوريا في العام التالي، فكلّفت ولاة دمشق بالتصدي له خوفاً من استشراء نفوذه، وتهديده للطرق الرئيسية، بالإضافة لخشية الدولة من طعنه لها في الخلف في أثناء انشغالها في حروب الصفويين.

والظاهر أن الأمير أحمد بن طراباي الحارثي حاكم اللجون أقحم نفسه في الصراع الذي دار بين العثمانيين ومعهم يوسف باشا سيفا والي طرابلس وعلي باشا جنبلاط، فبعد هزيمة يوسف باشا أمام قوات ابن جنبلاط قرب حماة 1015هـ - 1606م استقبله الأمير أحمد بكل حفاوة وإكرام، ورفض تسليمه لابن جنبلاط، لأن ابن سيفا كان حليفه الطبيعي تجاه مطامع فخر الدين في الأجزاء الشمالية من سورية الجنوبية، وبصفة خاصة بعدما استولى فخر الدين على سنجق صفد، وأظهر طمعه بسنجق عجلون، إضافة إلى أن هذا التصرف من جانب ابن طراباي كان منسجماً مع ميوله اليمنية مقابل ميول فخر الدين القيسية، وأخيراً موالاته للسلطة العثمانية مقابل تمرد فخر الدين عليها.

وبناءً على ما سبق، فإن الصراع في بلاد الشام عامة وفي لبنان وفلسطين خاصة لم يكن وقتذاك ذا نعرة طائفية بقدر ما كان تنافساً

على الإقطاع والسلطة والنفوذ والمطامع التوسعيّة بين القوى المحلية المنقسمة إلى حزبي القيسية واليمنية.

ويبدو أن الأمير أحمد بن طراباي رغم مناصرته للعثمانيين في حربهم ضد ابن جنبلاط، قد آثر عدم الانضمام إلى حملة مراد باشا والي دمشق على الأخير، معتذراً عن السفر ومكتفياً بإرسال رسول وهدية، بعدما رأى أن لا مصلحة له في حرب بعيدة عن حدوده، خاصة وأن خطر فخر الدين محدق به وأطماعه مجاورة له، بعد أن مدّ الأخير نفوذه على سناجق صيدا وبيروت وغزير.

ولمواجهة الخطر الذي شكله فخر الدين على نفوذ العثمانيين في فلسطين، وللحد من نفوذه المتصاعد، عيّن الباب العالي والياً جديداً على دمشق عام 1018هـ ـ 1609م هو أحمد باشا الحافظ، الذي جعل كل همّه مقاومة فخر الدين، وقد بدأ أحمد باشا عهده بإثارة الأمراء المحليين المعادين لفخر الدين ضده، مع العلم أنه نادراً ما كان يحدث إتفاق وإجماع بين مناوئ فخر الدين المحليين ووالي دمشق والحكومة المركزية في الآستانة، وقد أدّى هذا الإتفاق إلى إمكانية وجود عمل جماعي مؤثر ضد فخر الدين.

عمد أحمد باشا الحافظ إلى تشجيع آل سيفا حكّام طرابلس وأثار الاضطرابات على فخر الدين في منطقتي البقاع وعجلون الخاضعتين لسيطرته ونفوذه، كما حاول القضاء على حلفاء فخر الدين مثل الأمير يونس الحرفوش حاكم بعلبك والأمير أحمد الشهابي حاكم وادي التيم، لكنه فشل في مسعاه بعدما أرسل فخر الدين النجدة لهما. هذا الفشل الذي لقيه أحمد باشا دعاه إلى طلب

مقابلة الصدر الأعظم نصوح باشا في حلب ـ الذي كان بدوره معادياً لفخر الدين ـ والاشتكاء له من تصرفات فخر الدين، وممن رافق الوالي في المقابلة المذكورة الأمير فرّوخ بن عبد الله الذي أنعم عليه نصوح باشا بسنجقية نابلس وعجلون والكرك عوضاً عن حمدان بن قانصوه، كما عزل الصدر الأعظم الشيخ عمرو شيخ عرب المفارجة عن بلاد حوران وأعطاها للشيخ رشيد شيخ عرب السرديّة، ما دعا الزعيمين المعزولين لطلب النجدة والمساعدة من فخر الدين، لكنه تلكّأ في نجدتهما وطلب منهما إمهاله بعض الوقت لتسوية الأمر مع الصدر الأعظم.

ويبدو أن الأمير فخر الدين واجه ضغوطاً من جانب رجال حاشيته، فاضطر لتجريد حملة عسكرية جعل قيادتها لولده الأمير علي ذو الخمسة عشر عاماً؛ فتمكن من إلحاق الهزيمة بفرّوخ وعرب السرديّة في المزيريب بأرض حوران في غرة ربيع الثاني 1022هـ ـ 1613م، ونجح الأمير علي وأعوانه من دخول عين جالوت في بلاد عجلون، فأعاد الأمير حمدان بن قانصوه إلى عمله السابق في سنجقية عجلون[1].

ولما كان الوقت في غير صالح فخر الدين بعدما تكالبت القوى المعادية له لا للحد من نفوذه فحسب، بل للقضاء المبرم عليه وعلى إمارته، فقد أصدرت السلطات العثمانية الأوامر لأحمد باشا الحافظ بالزحف على فخر الدين، وانضم إليه الأمراء المحليون كالأمير فرّوخ، والأمير أحمد بن طراباي، وآل سيفا، ومدّه السلطان بقواتٍ

(1) الخالدي: ص9 ـ 10. والشهابي، ص 818 ـ 820.

من حلب والأناضول، كما أُرسلت مجموعة من السفن الحربية إلى الساحل اللبناني، فاكتسحت القوات العثمانية فخر الدين.

ولما رأى فخر الدين أن لا طاقة له بالتصدّي لقوة والي الشام وحزبه، ورأى شدة حصاره لقلعة الشقيف في جنوب لبنان المحصنة، وإلى إرساله لقوات أخرى ضد الشوف نفسه معقل فخر الدين، إضافة إلى تيقّن الأخير من عجز حلفائه وعدم اكتراثهم به وبمصيره، عند ذاك اضطر إلى التوجه إلى صيدا، ومنها سافر بحراً إلى ليغهورن Leghorn أحد مرافئ دوقية توسكانيا الإيطالية في غرة شعبان 1022هـ/ أيلول ـ سبتمبر 1613م، حيث ظل فيها مدة خمسة أعوام عند أصدقائه من آل مديتشي، وخلفه ابنه الأمير علي في إمارة الشوف بمساعدة عمه الأمير يونس المعني، وبهذا التصرف أنقذ فخر الدين الإمارة المعنية من الانهيار لتبقى تحت تصرف عائلته.

ترتب على فرار فخر الدين إلي إيطاليا أن ولّت الدولة العثمانية على صفد بستانجي حسن باشا، بالإضافة إلى صيدا وبيروت وغزير في جمادى الأول 1023هـ ـ 1614م، كما حاولت الدولة في العام نفسه إجراء تنظيم إداري جديد في ولاية دمشق، فاقتطعت ناحيتي صيدا وبيروت ولواء صفد وشكّلت منهم ولاية جديدة عُرفت باسم «ولاية صيدا»، لكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح، فصرفت الدولة العثمانية النظر عنها وأعادت الولاية الجديدة إلى ما كانت عليه في السابق من حيث تبعيتها لولاية دمشق.

لم يؤدِ اختفاء فخر الدين المؤقت عن الساحة اللبنانية إلى خفت وميض المعنيين السياسي، فقد واصل الأمير علي بن فخر الدين

سياسة والده التوسعية لاستعادة ما تم فقدانه، وانتهز فرصة تعيين والٍ جديد على دمشق نشانجي أحمد باشا عام 1027هـ ـ 1617م، فطلب منه سنجقية صفد كما كانت قبل سفر والده إلى أوروبا، فأصدر نشانجي فرماناً سلطانياً بتقرير سنجق صفد وصيدا وبيروت وغزير للأمير علي[1].

ويبدو أن حكّام فلسطين المحليين قد تنفسوا الصعداء خلال فترة الخمس سنوات التي قضاها فخر الدين في أوروبا، فاستراحوا خلالها من الضغوط التي كان يمارسها عليهم، كما أن ابنه الأمير علي كان مشغولاً بترتيب بيته من الداخل. وعلى أية حال، فخلال الفترة التي أمضاها فخر الدين في أوروبا، كان الوضع في الدولة العثمانية قد بدأ يتغيّر لصالحه، فعدوه اللدود نصوح باشا عُزل عن الصدارة العظمى، وأحمد باشا الحافظ والي دمشق ترك منصبه، والدولة نفسها منهمكة في حروبها مع الصفويين، وبوساطة مستشاره والأمير يونس الحرفوش أمير البقاع حصل من الدولة العثمانية على عفو، وعاد إلى لبنان عام 1027هـ ـ 1618م.

وتجدر الإشارة إلى أن عودة فخر الدين من أوروبا لم تكن مباشرة إلى أحد المرافئ اللبنانية كصيدا أو بيروت، وإنما رست السفينة التي أقلته في مرفأ عكا الفلسطيني، وقد يحتار المرء لهكذا تصرف من جانب فخر الدين، فيقيناً هو يعلم مسبقاً بأن بيروت وصيدا تخضعان لنفوذ ابنه علي، وبالتالي فبإمكانه النزول في إحدى

(1) لمزيد من التفاصيل حول جهود الأمير علي لاسترداد أملاك أبيه فخر الدين. أنظر: الخالدي: ص19 ـ 65. والشهابي: ص823 ـ 851.

هاتين المدينتين، ويرى الباحث أن اختيار فخر الدين لعكا لتكون أول بقعة تطأها قدماه بعد عودته من منفاه الاختياري، لها رمزية خاصة لديه، تبيّن أهمية فلسطين في مشروعه التوسعي سواء كان قبل مغادرته إلى أوروبا أو في مخطّطاته اللاحقة التي نوى أن يشرع في تنفيذها، هذا من جانب، أما من جانب آخر، فهي توضح بجلاء أن عكا وقتذاك كانت تحت سيطرة ابنه الأمير علي، وفخر الدين يقيناً على علمٍ بذلك مسبقاً.

وللتدليل على صحة ما سبق الإشارة إليه، فقد أوردت بعض المصادر التاريخية، أن فخر الدين لما نزل عكا سأل عمن يحكم في تلك المنطقة، فأخبره مستقبلوه بأن ولده عليّاً هو الحاكم فيها، وأنه يقوم الآن بجولة في قرية أبي سنان الفلسطينية ليجمع المال منها، فأرسل فخر الدين في استدعائه.

والحقيقة أنه رغم التأكيد بأن المرفأ الذي نزل فيه فخر الدين هو عكا، لكن من غير المعقول تصديق ما أورده كلٌّ من الخالدي الصفدي وحيدر الشهابي من عدم معرفة فخر الدين لحاكم عكا وقتذاك، الأمر الذي يدعو للحيرة واللبس، فالمنطق يحتم علينا الجزم بمعرفته المسبقة لهذا الحاكم قبل أن تطأ قدماه منطقة نفوذه لسببين اثنين هما:

يُفترض أن عودة فخر الدين من منفاه الاختياري إلى الشرق قد تمت بتنسيق مسبق مع أعوانه وعلى رأسهم ولده عليّاً.

لو لم يكن يعلم أن ابنه عليّاً هو الحاكم الفعلي لعكا، لما أقدم على هذا الأمر خشية وقوعه في أيدي أعدائه من زعماء فلسطين المحليين.

وما أورده الخالدي الصفدي وحيدر الشهابي لا يعدو أكثر من مبالغة لإظهار فخر الدين بمظهر الزعيم القوي الذي لا يخشى بأس أعدائه، والعائد لاسترداد ممتلكاته التي افتقدها من قبل.

ومهما يكن من أمر، فقد بدأ فخر الدين إثر عودته من أوروبا بتوطيد سلطته من جديد، فاهتم بتطوير إقتصاديات بلاده، خاصة في مجال الزراعة، واستخدم عائدات الجمارك في بيروت وصيدا لتمويل جيشه، وعمد بعض مناوئيه إلى استرضائه، فأرسلوا له الهدايا كالأمير أحمد بن طراباي، والأمير أحمد بن حمدان بن قانصوه، والأمير أحمد بن الحرفوش، ويوسف باشا سيفا، وقد قبل فخر الدين جميع الهدايا المقدمة له من الأمراء عدا هدية يوسف باشا التي ردّها عليه، تعبيراً عما يكّن في صدره من عداوة له.

ويؤخذ على فخر الدين أنه بدأ العمل بنشاط وهمّة لتحقيق أهدافه القديمة متبعاً الأسلوب القديم الذي كان قد اتبعه من قبل، ففي غرة رجب 1028هـ ـ 1618م عزل العثمانيون الأمير أحمد بن حمدان بن قانصوه عن سنجق عجلون، كما عزلوا الشيخ عمرو عن مشيخة حوران، وولوا مكانهما ابن قلاوون وهو من أصل تركي والشيخ رشيد، واضطر الأميران المعزولين لطلب النجدة من فخر الدين لإعادتهما إلى منصبيهما السابق، فنجح في استصدار فرمان من الباب العالي بهذا الشأن في شوال من العام نفسه[1].

ويبدو أن الأمير أحمد بن طراباي قد شعر في تلك الأثناء بأن

---

(1) الخالدي: ص84 ـ 87. والشهابي: ص863 ـ 864.

موازين القوى آخذة في التغيير لصالح فخر الدين، فبعد نجاح الأخير في مسعاه السابق بإعادة أعوانه إلى مناصبهم، انتهز فرصة وجود فخر الدين في تل الهريج بالقرب من صفد، وأرسل إليه ابنه الأمير طراباي ومعه هدية قبلها فخر الدين، فازدادت بينهما أواصر الأُلفة والمودة.

وفي عام 1030هـ ـ 1620م وفي أثناء وجود الأمير فرّوخ أمير الحج الشامي في الآستانة بدعوة من السلطان عثمان الثاني، كلّفه السلطان المذكور ببناء قلعة في الطريق الذي تسلكه قافلة الحج يُسمى «المُعظّم»، ورصد لذلك المشروع خمسين ألف غرش، وانتهز فرّوخ باشا تلك المناسبة والتمس من السلطان تعيين الأمير بشير عم الأمير أحمد بن قانصوه حاكماً على سنجق عجلون لكونه أحد مرافقيه وحلفائه، ليساعده في بناء القلعة، وتعيين الشيخ رشيد لمشيخة حوران، فتم له ذلك.

ومرة أخرى استنجد الأمير أحمد بن قانصوه والشيخ عمرو بالأمير فخر الدين لمساعدتهما على العودة إلي منصبيهما، لكنه هذه المرة كان حازماً في رفضه لطلبهما خشية اتهامه بتعطيل بناء القلعة التي أُوكل لفرّوخ باشا بإنجازها من جهة، وللبرود الذي كان قد اكتنف علاقته بالأمير أحمد والشيخ عمرو بسبب قتل فخر الدين لسلطان كتخدا الأمير أحمد، فاضطرا للتوجه إلى بلاد الأمير أحمد بن طراباي حيث توفي الشيخ عمرو في دياره، ثم توجه ابن قانصوه للآستانة في محاولة لاستعادة سنجقه.

وتلاحقت الأحداث فيما بعد بصورة دراماتيكية بين مدٍ وجزر

بين القوى المحلية في إدعاء كلاً منها بملكيتها للسناجق، فالأمير أحمد بن قانصوه نجح في الحصول على قرارٍ بعودته إلى سنجق عجلون، لكن باشا دمشق لم ينفذه لحلول موعد خروج قافلة الحج الشامي، وخشيته من عزل الأمير بشير والشيخ رشيد في ذلك الوقت حتى لا يعطّلا سير القافلة، وهو الموقف نفسه الذي سلكه فخر الدين معه عندما استنجد به، وكان فخر الدين يحاول قدر الإمكان تعطيل تسلّم الأمير أحمد بن قانصوه لسنجق عجلون طمعاً منه بمنحها لابنه الأمير حسين.

توجه الأمير أحمد بن قانصوه إلى ديار الأمير أحمد بن طراباي مرة أخرى طلباً للاستقرار فيها، وخلال إقامته عند ابن طراباي تعرّض لهجومٍ من جانب عمه الأمير بشير، فتضايق ابن طراباي من تلك الفعلة وكتب لفخر الدين ملتمساً منه مساعدة أحمد بن قانصوه في استعادة سنجقه، ويبدو أن فخر الدين قد يئس من وصول فرمان من الآستانة بمنحه سنجقية عجلون لابنه حسين، فخشي من وجود أعداء مجاورين لمناطق نفوذه، وقرّر بالفعل مساعدة أحمد بن قانصوه وجرّد حملة في ذي القعدة 1031هـ ـ 1621م على الأمير بشير، ضمت الأمير قاسم ابن الأمير علي الشهابي، والأمير طراباي ابن الأمير أحمد بن طراباي، فلما سمع الأمير بشير بوصول التحالف المذكور إلى جسر المجامع هرب مع الشيخ رشيد، واستعاد أحمد بن قانصوه سنجقية عجلون الذي قام فيما بعد ـ اعترافاً منه بالجميل ـ بتأجير منطقة الغور الغربي نواحي بيسان للأمير علي بن فخر الدين.

أضحت قوة فخر الدين طاغية لدرجة أن والي دمشق في العام التالي التمس منه تقديم إعانة مالية لقافلة الحج والخروج لملاقاتها في طريق عودتها، كما منحه سنجقية عجلون باسم ابنه الأمير حسين بعد أن كان قد قنط تماماً من حصوله عليها. ويبدو أن الأمير أحمد بن قانصوه قد قبِل هذا الأمر مُكرهاً، وفي ذلك يقول الخالدي الصفدي: «وكان جواب الأمير أحمد السمع والطاعة لله ولرسوله ولولي أمره، ولكن كأنما في قلبه الجمر. وقال: «أنا أولاً وآخراً منك وإليك وبسنجق وغير سنجق محسوب عليك». ثم غادر عجلون وتوجه بأهله إلى بلاد حوران في ضيافة الشيخ حسين بن عمرو».

ولما كان الأمير فرّوخ حاكم نابلس قد تُوفي في مكة أثناء قيادته لقافلة الحج الشامي في 1030هـ ـ 1621م، أصدر الصدر الأعظم مرّه حسين أحكاماً بتعيين محمد بن فرّوخ محل أبيه، لكن مصطفى باشا والي الشام رفض التصديق على تلك الأحكام، ما دعا ابن فرّوخ للتوجه للآستانة للمطالبة بحقه بسنجقية نابلس حتى تمكن من الحصول عليها، لكنه لم يهنأ طويلاً بمنصبه الجديد، فسرعان ما سيحصل الأمير حسين بن فخر الدين على فرمانٍ بتوليه سنجقي نابلس وعجلون. ومرة أخرى توجه ابن فرّوخ للآستانة وحصل من الصدر الأعظم على قرارٍ بتوليه إمارة الحج وتقرير سنجق نابلس عليه، كما تم منح سنجق عجلون للأمير بشير بن قانصوه، وصفد لبوستانجي باشا رغم محاولات فخر الدين الحثيثة للحصول على حكم هذه السناجق.

استمر فخر الدين في مناصرة أعوانه في فلسطين وشرقي نهر الأردن، خاصة وأن الخلافات قد عادت إلى السطح بين الأمير أحمد بن طراباي وفخر الدين عام 1032هـ ـ 1622م عندما ساند الأول الأمير يونس الحرفوش في صراعه ضد فخر الدين، وعندما شعر ابن طراباي بأطماع فخر الدين التوسعيّة، رغم محاولات ابن طراباي الإصلاحية بين الشيخ عاصي أحد مشايخ نابلس ومصطفى كتخدا أحد أعوان فخر الدين، ونجاحه في إيقاف الاقتتال بينهما، كما مدّ ابن طراباي حكمه على بلاد عجلون واربد ونابلس وأعطى الحكم فيها لمشايخ موالين له في المناطق المجاورة، فاضطر فخر الدين لمهاجمة الأراضي الخاضعة لحكم أحمد بن طراباي واستولى على برج حيفا، وأمر بإحراق قرى الكرمل، وإزاء هذا الاجتياح المدمّر رحل ابن طراباي والأمير بشير بن قانصوه باتجاه نهر العوجا على حدود غزّة.

حاول فخر الدين التوغّل جنوباً للحاق بابن طراباي، وتمكن من إحراز نصر مؤقت، إلى أن دارت رحى معركة عنيفة اشترك فيها عرب المفارجة إلى جانب فخر الدين، وعرب السوالمة إلى جانب ابن طراباي، حقق الأخير فيها نصراً مدوّياً، واسترجع وحلفاؤه ما سبق أن فقدوه، بل ولاحقوا فلول جيش فخر الدين، وألحقوا به الكثير من الإصابات رغم محاولات المؤرخ الخالدي الصفدي التقليل من شأن هذا الإنتصار بقوله: «وصارت هزيمة من جانب الحق سبحانه وتعالى، وليس هذا ما يعيب الأمير فخر الدين لأن الحرب سجال تارة وتارة والرجال في الحرب لم تزل غدارة».

وفي الوقت الذي كانت فيه ممتلكات فخر الدين في لبنان مهددة من جانب يوسف باشا سيفا والأمير يونس الحرفوش اللذان بدآ بمهاجمتها مستغلين فرصة عدم وجود فخر الدين فيها، قرر الأخير العودة لمواجهة الموقف الجديد، وفي أثناء ذلك أغار الأمير علي بن طراباي شقيق الأمير أحمد، على ساحل عكا، وفي طريق عودته إلى بلاده مرّ بحيفا واصطدم بأحد أعوان فخر الدين، نصوح بلوكباشي وسكمانيته، فقتله ولجأ أعوانه الباقون إلى برج حيفا ثم فرّوا بحراً إلى عكا، كما تلاحقت اغارات أحمد بن طراباي ضد أتباع فخر الدين، خاصة في قرية كفر كنّا.

تلاحقت الأحداث وبدأت الأمور تتجه نحو أزمة جديدة، فالعداوات القديمة بين فخر الدين والأمير يونس الحرفوش زعيم البقاع اندلعت من جديد، وكان الأمير يونس في وضعٍ سيئ، وتمكن فخر الدين من الاستيلاء على بلدة قب الياس الإستراتيجية التي من خلالها بسط تحكمه على الطريق الرئيسي المهم الذي يربط دمشق ببيروت، علماً بأن الأمير يونس هذا كان حليفاً لفخر الدين من قبل وساعده في العودة إلى لبنان بعد توسطه لدى الباب العالي، ولكنها السياسة بكل تقلباتها.

أدى ازدياد قوة فخر الدين إلى تنبيه مصطفى باشا والي دمشق الذي عمل على التحالف مع الأمير يونس الحرفوش ويوسف باشا سيفا للإطاحة بغريمهم، ومهما يكن من أمر، فقد نجح فخر الدين في بادئ الأمر عن طريق إغداق الرشاوى الباهظة على حاشية الباب العالي في الآستانة، في الحيلولة دون تدخّل الحكومة المركزية،

كما تمكن كذلك من تثبيت امتلاكه لصفد ونابلس وعجلون.

غير أن سياسة الباب العالي المعتدلة تجاه فخر الدين لم تستمر طويلاً لصالحه فقد أعاد الأخير صلاته بحكومة توسكانيا وسمح لتجارها بالنزول في موانيه، وأعاد جيش السكّبان الذي بلغ مائة ألف من شعوب شتى، عندئذ منح الباب العالي الإذن لوالي دمشق وحلفائه بمهاجمة فخر الدين لتحجيم دوره، وفي هذا السياق دارت معركة شهيرة في تاريخ لبنان الحديث، هي موقعة عنجر عام 1033هـ ـ 1623م هُزم خلالها مصطفى باشا وتم أسره، أما حلفاؤه فقد دُحروا وتشتت فلولهم تماماً، ثم أُطلق سراح الباشا ـ بوساطة وفد من علماء دمشق ـ الذي اضطر فيما بعد للاعتراف بسلطة فخر الدين وممتلكاته، وبذلك بلغ نفوذه الذروة.

كانت موقعة عنجر علامة فارقة في تاريخ فخر الدين الثاني، فآل سيفا قبلوا أخيراً الخضوع المطلق لسلطته وتقديم المال إليه بعد استيلائه على عكار وهدم قلعتها، ومدّ نفوذه شمالاً حتى حدود إنطاكية، أما الوضع في فلسطين فكان مختلفاً تماماً، فالأمراء المحليون فيها رفضوا الانصياع والرضوخ لسلطته، فهاجم أحمد بن طراباي في العام نفسه أعوان فخر الدين الذين يتولون السناجق الفلسطينية وشرقي نهر الأردن وحوران، واستولى على ممتلكات الأمير أحمد بن قانصوه حاكم عجلون والشيخ حسين بن عمرو حاكم حوران ومنح سناجقهما للأمير بشير عم أحمد بن قانصوه والشيخ رشيد، غير أن فخر الدين لم يُسلّم للأمر الواقع بل ساعد أعوانه في استرداد أملاكهم فيما بعد.

وتمكن فخر الدين من الحصول على قلعة الصلت (السلط) وعيّن فيها نائباً عنه، كما استولى على نابلس وعزل محمد بن فرّوخ عنها، وبلغ الأمر بفخر الدين مداه بعدما حصل لابنه الأمير منصور على سنجق اللجون بما فيه مدينة جنين مركز آل طراباي الرئيسي، الأمر الذي لم يتقبله الأمير أحمد بن طراباي فكانت ردة فعله أن شكّل تحالفاً من عرب السوالمة وخيالة نابلس وبلاد عجلون والغور بقيادة محمد بن فرّوخ وعرب غزّة الخاضعين لسلطة حسن باشا رضوان حاكم غزّة، لمهاجمة حلفاء فخر الدين من عرب المفارجة، كما هاجم سواحل عكا وأعمل فيها النهب والتخريب، واستمرت المعارك بين الطرفين سجالاً، وأثبتت القبائل العربية بإمرة ابن طراباي ومؤيديه صلابة في المقاومة تجاه فخر الدين وقواته من السكمانية المرتزقة، خاصة في الموقعة التي دارت عند نهر العوجا قرب يافا عام 1033هـ ـ 1623م، التي انتصر فيها ابن طراباي واسترجع مدينة جنين، وألحق الكثير من الخسائر في جيش خصمه، وقد أشار المؤرخ المحبي لهذه الموقعة بقوله: «أشهر وقعاته ـ أي أحمد بن طراباي ـ وقعة يافا، ومعه حسن باشا (رضوان) حاكم غزة، والأمير محمد بن فرّوخ أمير نابلس، فقتل من جماعة معن مقتلة عظيمة».

وتوالت هجمات أحمد بن طراباي على ممتلكات الأمير فخر الدين وتخريبها، واستولى على قرية أبي سنان التابعة لسنجق عكا، وحقق عدة إنتصارات أذهلت فخر الدين وولده الأمير علي، ولما كانت تكاليف القتال باهظة على الطرفين المتحاربين فقررا التعايش وفتح صفحة جديدة من الوفاق السلمي أو ما يُصطلح على تسميته في التاريخ المعاصر بالحرب الباردة، وقامت بين الطرفين مفاوضات

أسفرت عن صلحٍ في شوال من العام نفسه، من أهم شروطه أن تنسحب قوات فخر الدين من حيفا وبرجها بعد هدمه، وأن يمنع ابن طراباي عربانه عن تخريب بلاد صفد التابعة لفخر الدين، كما يتعهد أيضاً بتأمين الطريق بين بلاد صفد وبلاد حارثة، وتخلّى فخر الدين عن جبل نابلس لابن طراباي، واعترف بامتداد حدود سلطته إلى حيفا، وبذلك لم يعُد أي من الطرفين يتعرض للطرف الآخر.

ويبدو أن المتاعب التي واجهت فخر الدين في فلسطين وشرقها قد ازدادت فيما بعد، ففي العام نفسه تعرضت قلعتي الصلت وعجلون لخطر داهم من جانب الأمير بشير بن قانصوه بعدما فرض عليهما حصاراً خانقاً، دعا القائمين على أمرها لتسليمهما له، ولما كان الأمير بشير يدرك أن فخر الدين لن يدعه يهنأ بما حصل عليه من مكاسب أرسل في طلب الصلح معه، وبعد المباحثات التي تمت بين الطرفين، اتفقا على أن يكون الأمير بشير حاكماً على سنجق عجلون نائباً عن الأمير حسين بن فخر الدين.

وبحلول عام 1034هـ ـ 1624م استتب الأمر لفخر الدين في فلسطين وما جاورها بعد تيقنه من استمرار أواصر المودة وعلاقته الحسنة بالأمير أحمد بن طراباي، وبشير بن قانصوه، واحتفاظ ابنه الأمير علي بسنجق صفد الاستراتيجي، ووفاة منافسه التقليدي يوسف باشا سيفا، هذا الأمر جعل العثمانيين في موقفٍ صعب لا قِبل لهم بمواجهته بسبب انشغالهم آنذاك بمحاربة الصفويين، لذلك اضطر السلطان مراد الرابع للاعتراف بسلطة فخر الدين ومنحه

فرماناً ولاه بموجبه على بلاد عربستان من حدود حلب إلى القدس، كما منحه لقب سلطان البر، الذي حمله جدّه فخر الدين الأول من قبل شريطة أن يقوم بتقديم مال الميري لخزينة الدولة، وأن يحافظ على الأمن في منطقته، هذا الفرمان المهم حصل عليه فخر الدين مقابل ما دفعه من ثمن غال ومرتفع.

استمرت سياسة الوفاق بين فخر الدين وأحمد بن طراباي حوالي عشر سنوات، لكن التوتر عاد بينهما عام 1043هـ ـ 1633م عندما حرّض الأمير علي بن فخر الدين عرب الوحيدات ضد آل طراباي، ويبدو أن فخر الدين كان على دراية بما قام به ولده، فرّد آل طراباي بمساعدة الأمير محمد بن فرّوخ بمهاجمة بلاد صفد التابعة للأمير علي ونهبها، وكان والي دمشق أحمد باشا كوجك قد لعب دوراً مشبوهاً في تأجيج التوتر بين القوى المحلية من جديد، مما أدى إلى مقتل الأمير علي بن فخر الدين، والظاهر أن المهمة التي قام بها والي دمشق جاءت كرد فعل من جانب الباب العالي لعدم سماح فخر الدين لفرقة عسكرية عثمانية كانت متجهة لحرب الصفويين عام 1041هـ ـ 1631م من قضاء فصل الشتاء في دياره، بل وصل الأمر لحد طرده لهذه الفرقة بقوة السلاح.

شعر فخر الدين أن ساعة الحسم بينه وبين السلطات العثمانية قد حانت، فبدأ بتعزيز دفاعاته، فبنى حصناً في المنطقة الواقعة بين حلب وإنطاكية، وحُصناً آخر في قب الياس في البقاع، وبانياس في الجنوب، وتدمر ما زال يُعرف باسمه، وإذا كان السلطان مراد الرابع قد اضطر في بداية عهده لمنح فخر الدين سلطات واسعة في بلاد

الشام، لصغر سنه، لكنه عمد فيما بعد إلى إحكام سيطرة الدولة وإبراز هيبتها بعدما بدت عليها بعض الإشارات التي تنمُّ عن تجديد حيويتها، وبعدما خشي من الترتيبات الدفاعية التي قام بها فخر الدين، واستمرار اتصالاته مع الأوروبيين. تلك الأمور مجتمعة دعت السلطان مراد الرابع إلى توجيه أمر لأحمد باشا كوجك عام 1043هـ ـ 1633م بالتوجه لقتال فخر الدين على رأس جيش كبير من جنود الأناضول ومصر، كما أرسل أسطولاً بحرياً لمهاجمة المرافئ والحصون الساحلية، مما أدى لهزيمة فخر الدين واختبائه في قلعة نيحا بضعة أشهر ثم انتقاله إلى كهفٍ حصين قرب جزّين، حتى تمكن العثمانيون أخيراً من إلقاء القبض عليه وإرساله إلى الآستانة أسيراً، ثم قتله في السجن في 13 نيسان/ أبريل 1635م.

أدّى القضاء على فخر الدين وحركته الانفصالية الطموحة لإقامة كيان مستقل عن الدولة العثمانية إلى حدوث فوضى شاملة في لبنان وفلسطين، ففي لبنان تجددت العداوات القديمة بين الأُسر الإقطاعية التي كانت تخضع لسلطة المعنيين، كما عمد العثمانيون إلى فصل صيدا عن دمشق، وجعلوا منها ولاية مستقلة عام 1660 لمراقبة شؤون لبنان، وتم فصل بيروت كذلك وألحقوها بدمشق، ولم يظهر في البيت المعني شخصية قوية من طراز فخر الدين الثاني تواصل سياسته[1]، أما في فلسطين، فقد كان فخر الدين قد أضعف في أثناء فترة حكمه بطريقٍ مباشر أو غير مباشر، الأمراء المحليين فيها، وبعد

---

(1) فيليب حتي، «**مختصر تاريخ لبنان**». ترجمة: فؤاد جرجس نصار، ط1، دار الثقافة، بيروت 1968، ص188.

مقتله كانت بعض هذه الأُسر الحاكمة قد تلاشت على يديه، بينما بعضها الآخر كان في طريقه للانحلال بفعل تأثيره.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأُسر الحاكمة في فلسطين تصرّفت طوال فترة حكم فخر الدين تصرف الندّ له، خاصة الأمير أحمد بن طراباي الذي كانت ممتلكاته مجاورة لمناطق نفوذ فخر الدين من ناحية، ولأنه هو الآخر كانت له مطامحه في السيادة على الجزء الشمالي من فلسطين كله، فكان بذلك شوكة في خاصرة فخر الدين ومنافساً له.

وبمقتل فخر الدين الثاني انتبهت الدولة العثمانية لجنوب الشام ولطريق الحج التي تعطّلت بسببه، فأرسلت حملة بقيادة عبد الله باشا النمر أحد قادة منطقة نابلس، حيث تمكن هو وأولاده وأحفاده فيما بعد من إقامة إمارة مستقرة، موالية للحكم العثماني.

نادر شاه

(1688 - 1747)

ينتمي نادر شاه إلى عشيرة كركلو التي دفعها ضعفها إلى الإتحاد مع قبيلة أفشار التركمانية القوية. وقد ولد في خراسان عام 1688 لأب راعي فقير، كما امتهن هو الرعي، حتى ألقي القبض على أسرته، وتوفت والدته في السجن لدى الأوزبك فاستطاع الفرار وانخرط بالخدمة العسكرية لدى بابا علي بيك أحمدلو أفشار حاكم مدينة أيبورد فكسب وده وتزوج من ابنته.

وقد كان نادر شاه متأثرا بّتيمورلنك، في حبه للحرب والتوسع والتدمير، وبعد وفاة والد زوجته تولى هو حكم أيبورد، ويقال أنه هو من دس له السم فقتله. ودخل في خدمة طهماسب الثاني.

بعد إنتصاراته الكبيرة، واسترجاعه ما فقد في أفغانستان، وما احتلته روسيا، وما احتلته الدولة العثمانية، وما أضافه إلى ما كان في أيام مجد الصفويين، بعد كل ذلك وفي العام 1736، وعندما توفي عباس الثالث آخر شاه لإيران، دعا لإجتماع في مدينة أردبيل لإسناد العرش من قبل أعيان إيران لمن يرونه مناسباً. فأجمع الحاضرون على إسناد العرش لنادر شاه. فتمنع ورفض

أو تظاهر بالرفض لمدة شهر، ثم اشترط أن ينبذ الإيرانيون كل ما جاء به الصفويون، وأضاف مذهباً خامساً إلى المذاهب السنية الأربعة، وهو المذهب الجعفري - نسبة إلى الإمام جعفر الصادق - عليه السلام.

وبعد أن وافق الإيرانيون على طلباته، قبل بمنصب الشاه، وتوج في 8 آذار/مارس عام 1736، وما فتئ يذكر هذا المذهب، حتى في معاهدات الصلح مع العثمانيين التي تكررت مرات ومرات بعد كل معركة بينهم. بل وطالب بتخصيص ركن في الكعبة الشريفة لهذا المذهب، والعثمانيون يرفضون الطلب في كل مرة.

لقد كان السبب وراء إلحاح نادر شاه على ذلك سياسياً، كما هو الحال فيما بعد حكمه، ولتحقيق حلم يتضاد مع الدولة العثمانية، وإحلال دولة إسلامية محلها تسترضي مسلمي الهند وغيرهم ممن لم يرضوا عن حكم العثمانيين.

استمر عهد نادر شاه حتى العام 1747م، وقد اتسمت سنون حكمه بالحروب المتواصلة مما أنهك إقتصاد إيران، الذي دمر نادر شاه النظام الإداري فيه، كما أن اتجاهه لبناء قوة بحرية في الخليج العربي عن طريق شراء سفن جاهزة من الهند والبرتغال وبريطانيا. وقد فشل في نقل أخشاب مازندان من الشمال إلى بوشهر حيث حاول إقامة مكان لبناء السفن.

لقد أنهكت الحروب الشعوب التي كانت تحت حكمه، فكانت مثلاً منطقة خوي في أذربيجان تدفع 3000 تومان سنوياً، وأصبح لزاماً عليها دفع 100 ألف تومان، وكان يلجأ لحبس وتعذيب

الفلاحين ممن لا يستطيعون دفع الضرائب. فقام الكثير من سكان إيران بالهجرة إلى أرض العثمانيين والهند.

وبعد مصادرة أراضي الوقف الشيعي، وممتلكات القزلباش، ثارت عليه الشعوب الإيرانية، ثورة وراء ثورة حتى قتل وهو في طريقه لإخماد ثورة للأكراد في خبوشان أو فوجان حالياً. وقتله اثنان من ضباطه في المعسكر، هما صالح خان كركلو أفشار ومحمد خان قاجار في حزيران/ يونيو عام 1747.

محمد بك أبو الذهب
(... - 1775)

إن محمد بك أبو الذهب هو واحد من المماليك الذين سيطروا على زمام الأمور في مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي. وقد أصبح الساعد الأيمن لعلي بك الكبير وترأس حملة إلى بلاد الشام لمساعدة الشيخ ظاهر العمر في حربه مع والي دمشق العثماني. ولكنه ما لبث أن عاد إلى مصر فألب المماليك على سيده علي بك ونجح في إقصائه وتولى زمام الأمور في مصر ونصب نفسه شيخاً للبلد (سنجق بك القاهرة). واستطاع أن يأسر علي بك الذي التجأ إلى حليفه ظاهر العمر في كمين له قرب العريش.

عرض أبو الذهب على الباب العالي العثماني إعادة مصر إلى الحظيرة العثمانية، وطلب الإذن بالقضاء على ظاهر العمر بحجة خروجه على الدولة وتحالفه مع أعدائها الروس. وأجابته الدولة العثمانية إلى طلبه وثبتته على مصر وأنعمت عليه بلقب باشا.

قاد محمد بك أبو الذهب جيشاً كبيراً إلى فلسطين (1189هـ -

1775م) ففتح يافا عنوة وأعمل السيف في أهلها. وقيل أنه بنى من رؤوس القتلى صوامع على غرار ما كان يفعل تيمورلنك. وقد أثارت فعلته بأهالي يافا الفزع في الشام فتخلى الأمراء عن ظاهر العمر فاضطر إلى ترك عكا والفرار إلى المناطق الجبلية المجاورة. ودانت فلسطين لمحمد بك أبي الذهب، وقدم له الأمراء الطاعة والولاء، ودمر الحصون والقلاع التي بناها ظاهر العمر وأهمها قلعة دير حنا ودير مار الياس.

لم يطل المقام بأبي الذهب في فلسطين فقتل مسموماً قبل أن ينال بغيته من ظاهر العمر فحمله أتباعه إلى مصر ودفنوه فيها، وكان ذلك في العام 1775م.

ثم تولى إبراهيم بك ومراد بك الحكم معاً دون الدخول تحت طاعة الباشا الذي عينه السلطان العثماني، ولكن فوجئا بحملة عسكرية أرسلها عبد الحميد الأول بقيادة حسن باشا الجزايرلي فقاوما هذه الحملة إلا أن حسن باشا انتصر عليهما، وحتى يكسبهما في جانبه أعطاهما حكم المنطقة الواقعة ما بين برديس قرب سوهاج حتى شلال أسوان.

الأمير يوسف الشهابي
(... ـ 1776)

انقرضت الإمارة المعنيّة بوفاة الأمير أحمد بن معن سنة 1697م. وعقد الأمراء والمشايخ مؤتمر السمقانية، حيث تمّ اختيار الأمير بشير بن شهاب من أمراء وادي التيم، وهو ابن أخت الأمير أحمد آخر أمراء آل معن. ثم أرسل قرار السمقانية إلى اسطنبول، بواسطة والي صيدا، فتمت الموافقة على أن تكون الإمارة لحيدر الشهابي إبن إبنة الأمير أحمد بن معن، وحيث أنه صغير السن، فقد تمّ اختيار الأمير بشير ريثما يبلغ أشدّه.

ـ زمن الأمير بشير الشهابي 1697 ـ 1706م:

تولى الأمير بشير الشهابي الأول 1697م نيابة عن الأمير حيدر الشهابي. وفي سنة 1698م تولى قبلان باشا المطرجي ولاية صيدا التي تضم بيروت، ثم ما لبث أن استنجد بالأمير بشير بعد أن عصى عليه الشيخ مشرف بن علي الصغير حاكم بلاد بشارة (جبل عامل). فجمع الأمير بشير ثمانية آلاف رجل، وقبض على الشيخ مشرف، وسلّمه إلى الباشا الذي أعطاه مقابل ذلك ولاية صيدا، من صفد إلى جسر المعاملتين. وأصبحت بيروت تابعة له، وقد أناب عنه

أرسلان باشا. وعندما تُوفي الأمير بشير سنة 1706م، تولى الإمارة حيدر الشهابي.

وفي مستهل حكم الأمير حيدر، تولّى بشير باشا ولاية صيدا التي تضم بيروت. وازداد الصراع بين القيسية واليمنية، فاستطاع الأمير حيدر جمع القيسية في عين داره سنة 1711م، في حين أرسلت اليمنية إلى بشير باشا والي صيدا فحضر إلى حرج بيروت، كما حضر نصوح باشا والي دمشق إلى البقاع. وانتصر الأمير حيدر والقيسية.

وفي سنة 1715م، عزل عثمان باشا عن بيروت. وفي سنة 1717م تُوفي الأمير عبد الله أبي اللمع زوج أخت الأمير حيدر الشهابي، فادعت زوجته بميراثها منه، وأخذت بستان بو كعكة في ساحل بيروت (البوشرية)، وجزيرة إبن معن عند نبع بيروت.

ـ زمن الأمير ملحم الشهابي 1729 ـ 1754م:

وفي سنة 1729 ترك الأمير حيدر الحكم، فخلفه ابنه الأمير ملحم. وإذ ذاك بنى الأمير سليمان اللمعي قيسارية البارود في بيروت.

ودخلت بيروت في حوزة الأمير ملحم منذ سنة 1749م، وجعلها عاصمة شتوية له، وبنى فيها خان الملاحة. كما بنى أخواه الأميران أحمد ومنصور، أبنية وحوانيت وبساتين في بيروت. وبنت زوجة الأمير أحمد القيسارية العتيقة، والبرج المستدير بجانب السور الذي هدم، وبني مكانه مستشفى العساكر السلطانية.

- **زمن الأميران أحمد ومنصور 1754 ـ 1762م:**

تنازل الأمير ملحم عن الإمارة سنة 1754م، فانقطع إلى حياة تدين وأقام في بيروت، وعكف على دراسة الفقه ومعاشرة علماء الإسلام.

وفي سنة 1759م، ازدهر مرفأ بيروت نتيجة الزلزال الذي ضرب صيدا، فانسحب منها التجار الفرنسيون إلى بيروت وطرابلس.

وسنة 1761م تُوفي الأمير ملحم فدفن في جامع الأمير منذر التنوخي.

بنى الأمير منصور طاقة القصر جنوب شرق الكبوجية، والديوان، وميزان الحرير، والقيسارية المعروفة باسمه. وفي سنة 1764م شيدت كاتدرائية القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس. وتولى بيروت محمد باشا عثمان ثم محمد باشا، فدرويش باشا. وعندما احتل الشيخ ظاهر العمر، مرفأ صيدا سنة 1770م، وبرزت مطامعه في التوسع، استرضاه الأمير منصور بالمال لقاء 25 ألف قرش وصرفه عن بيروت. ثم تنازل الأمير منصور عن الحكم لابن أخيه الأمير يوسف.

- **زمن الأمير يوسف الشهابي 1770 ـ 1776م:**

بالرغم من زوال الخطر عن بيروت، فقد وصل إليها أحمد باشا الجزّار على رأس جيش من دمشق، وتسلّم بيروت من الأمير يوسف. ولكن الجزّار أراد الإستقلال في بيروت، فحصّنها ورفض تسليمها. فاتفق الأمير يوسف الشهابي مع ظاهر العمر، والي عكا،

لنجدته بالأسطول الروسي الموجود في قبرص، حتى يسترجع بيروت من الجزّار، وذلك مقابل دفع مبلغ ثلاثمائة ألف قرش لأمير الأسطول كنتوجوني.

وعندما وصل الأسطول الروسي، أرسى سفنه مقابل برج أبي هدير، وأنزل بعض القوات إلى البر، ثم حاصر المدينة براً وبحراً. وقيل إن السفن الروسية أطلقت ستة آلاف قنبلة فدمرت جانباً من بيروت، وتصدعت جدران سورها وتهدمت جوانبه، وأحرقت بعض الأبراج. واستمر الحصار مدة أربعة أشهر، ليل ونهار، مما أدى إلى تضايق أهالي بيروت أثناء الحصار، ونفذ ما عندهم من الزاد، فكانوا يأكلون لحوم الخيل والحمير والكلاب. فاضطر الجزّار إلى التسليم وطلب الأمان عن يد ظاهر العمر، والخروج من بيروت التي دخلها الروس ونهبوها سنة 1773م.

وتسلّم الأمير يوسف الشهابي بيروت، وعاد إليها الأمراء الشهابيون. وغرّم أهلها ثلاثمائة ألف قرش، دفعها لقائد الأسطول الروسي. وكان الفرنسيون يدعون بيروت، قبل نهبها وحرقها، (باريس الموارنة الصغرى).

وبعد ذلك عمَّر الأمير يوسف الشهابي بيروت، وصار ما بينه وبين حضرة أبو الذهب حاكم مصر مكاتبة وهدايا وأرسل لأبي الذهبماية إردب رز وعشر قناطير قهوة وفرو ثمين وسيف مذهب، ومشيت المراكب لبيروت وارتفع اليسق (المنع والحذر).

ـ آل شهاب يتخذون بيروت دار سكن لهم:

بعد انسحاب الجزّار من بيروت خلا فيها الجو للبنانيين ولا سيما أمراء آل شهاب الذين تهافتوا على السكنى فيها واتخاذ القيسريات لهم ولعائلاتهم وأبنائهم وزوجاتهم، ولقد تكاثر بنو شهاب وأهل جبل لبنان في بيروت بعد إخراج الجزّار منها وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من دون هذا الحاكم الذي غادر المدينة في حماية ظاهر العمر ليكون تحت كنفه في فلسطين، ثم عاد الخصم اللدود أحمد باشا الجزّار إلى سابق عزه وسالف مجده بموجب فرمان شاهاني أصدره السلطان عبد الحميد الأول بولاية صيدا، وقد جعل الجزّار من مدينة عكا قاعدة لحكمه، ثم التفت إلى بيروت التي أُخرج منها مقهوراً بحراب القراصنة الروس وقذائف مدافعهم ليسدد حساباته القديمة فيها مع الأمير يوسف الشهابي الذي ما أن علم بعودة الجزّار إلى مكانته لدى البابا العالي حتى بادر إلى اتقاء بأسه بالمال تارة والرجال تارة والوفود المحمّلة بأجود الهدايا على متون الجياد.

ولكن أحقاد الجزّار كانت أقوى من إغراءات الأمير يوسف واسترحاماته فلم ير هذا بدّاً من التضحية بالجاه قبل أن يضطر للتضحية بالحياة فأرسل أحد أنسبائه وهو الأمير بشير بن قاسم إلى عكا قائلاً له: انزل يا إبني إلى عكا وتولّ مكاني، فأجابه الأمير الشهابي الشاب وكأنه يقرأ سطور الواقع الذي تخفيه الأيام بين شفتي حاكم عكا: إني أخاف أن أنزل ابنك وأطلع ابن الجزّار! . . . .

ولم يكذب حدس الأمير بشير لأن الجزّار وجد أن الوقت قد حان للتخلص نهائياً من الأمير يوسف والقضاء على نفوذه وحياته معاً، فخلع رداء الإمارة على عاتق الأمير الشاب الذي لم يكن عمره آنذاك يتجاوز 21 سنة وأوعز إليه بمضايقة نسيبه وإخراجه بالمتابعة والمصادرة وهكذا كان، فلم يلبث الأمير يوسف غير قليل إلا وأصبح في قبضة خصمه اللدود رهين السجن هو ومدبره، وفيما كان الجزّار في الديار المقدسة يؤدي فريضة الحج كتب إلى نائبه في عكا أن يشنق الأمير يوسف ومدبِّره الشيخ غندور الخوري وبينما كان حبل المشنقة يخمد أنفاس الأمير تلاشت أنفاس مدبّره من الخوف.

وخلال الحرب التركية ـ الروسية، تعرضت بيروت للدمار والإحتلال، لفترة قصيرة، وذلك من تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1773 حتى شباط/ فبراير 1773.

ـ تخطيط بيروت:

جدَّد أحمد باشا الجزّار سور بيروت سنة 1791م. وبوفاته سنة 1804م خلفه في حكم عكا، سليمان باشا، ثم عبد الله باشا سنة 1819م الذي استمر حكمه حتى دخول بيروت تحت الحكم المصري سنة 1831م. وسواء في حكم الجزّار أو عبد الله باشا، حيث الضرائب الباهظة والظلم والتعسف، كانت بيروت ملجأ للمظلومين، يجتازون سورها عبر الأبواب.

الجنرال كليبر

(... ـ 1800)

عندما قامت فرنسا بحملتها العسكرية على مصر (1801 ـ 1898) مستهدفة قطع الطريق بين إنكلترا والهند، وجعل مصر مستعمرة فرنسية، لتعوض بها فرنسا عن المستعمرات التي فقدتها مثل الهند وكندا، أثناء حروبها الطويلة في القرن الثامن عشر. وبعد أن استولى نابليون على الإسكندرية واحتل مصر، واستتب الأمر نسبياً بالنسبة له أراد أن يعود إلى بلاده وبالفعل غادر بونابرت مصر سراً في 12 آب/ أغسطس سنة 1899، بعد أن عين قبل رحيله عن مصر الجنرال كليبر قائداً للجيش وحاكماً على مصر.

كان كليبر يرى أن الحملة الفرنسية في مصر مصيرها الفشل، طالما بقيت للإنكليز السيادة في البحر الأبيض المتوسط، ولذلك فقد سارع بمفاوضة الأتراك على جلاء الفرنسيين عن مصر، وبدأ العثمانيون يدخلون مصر، ولكن الحكومة الإنكليزية وقبل أن يصلها نبأ الإتفاق رفضت أن تأذن بجلاء الفرنسيين إلا كأسرى حرب، ورفض كليبر واستعد للمقاومة. وعندما وصل العثمانيون إلى ضواحي القاهرة هزمهم كليبر في عين شمس فاضطروا إلى التقهقر

سريعاً إلى الشام. وبينما كان كليبر منشغلاً بقتال العثمانيين انتهز الفرصة فريق من الجيش العثماني ودخلوا القاهرة وتحصنوا فيها وحرّضوا أهلها ضد الفرنسيين الأمر الذي جعل كليبر يحاصر القاهرة لأكثر من شهر. وعلى الرغم من شدة مقاومة المصريين، فإن الفرنسيين تمكنوا من إخماد ثورتهم وتمكنوا من تدمير أحياء كاملة.. وأحرقوا البيوت.. وفتكوا بعلماء الأزهر.

وكان القائد العام للجيش الفرنسي - أي الجنرال كليبر - يقيم في منزل فخم في حي الأزبكية تحيط به حديقة كبيرة.. وفي صباح يوم السبت 14 حزيران/ يونيو سنة 1800 كان الجنرال كليبر، والمسيو بروتان - كبير المهندسين وأحد أعضاء البعثة العلمية الفرنسية التي قدمت إلى مصر مع الجيش الفرنسي - يتنزهان في الحديقة المشرفة على بركة الأزبكية، وكان كليبر قد تقدم رفيقه قليلاً، فبرز من أحد ممرات الحديقة فتى نحيف القامة متوسط الجسم يرتدي الزي التركي، وتقدم من القائد العام، فأشار إليه بالرجوع وكرر قوله معتقداً أن الغريب يسأله الصدقة، لأنه كان رث الثياب والهيئة، ولكن الفتى تقدم منه وأشار إليه أن له حاجة يلتمس قضاءها، ومد له يده اليسار وكأنه يريد تقبيلها! فمد إليه القائد العام يده، فقبض عليها بيد عصبية قوية، وجرّد بيده اليمنى خنجراً كان يخفيه تحت ثيابه، ثم انقض على الجنرال وطعنه بخنجره عدة طعنات سريعة أصابته في ذراعه وصدره وبطنه، فسقط على الأرض صريعاً وهو يصيح مستغيثاً، فبادر زميله بروتان إلى إغاثته، ولكن المهاجم انقض عليه كذلك وطعنه عدة طعنات ألقته على الأرض فاقداً وعيه، ثم وثب مهرولاً داخل ممرات الحديقة متوارياً عن

الأنظار.

وما كاد المهاجم يختفي حتى حضر الحراس من كل ناحية إلى مكان الاستغاثة، فوجدوا قائدهم صريعاً في ممر الحديقة والدم ينزف من جراحه، ووجدوا زميله بروتان ملقى على بضعة أمتار منه، ولم يروا أثراً للمهاجم، فذعروا واشتد اضطرابهم، وطار الخبر إلى الرؤساء والضباط، فهرولوا من كل صوب، واشتد الضجيج والهرج، وانطلق عشرات الجند إلى الجهات المجاورة يفتشون عن القاتل أو القتلة، واعتقد الرؤساء أن تلك الفعلة إنما هي نتيجة لمؤامرة كبيرة دبرها سكان القاهرة، فأصدروا الأوامر إلى القلاع والحصون بالتأهب، واحتاط الفرنسيون في المدينة واندسوا في شوارعها، ودب الرعب عند سكان القاهرة فأسرعوا إلى الفرار والاختفاء في المنازل والأحياء الداخلية، وأغلق التجار حوانيتهم، فأقفرت الطرق، وساد على المدينة سكون رهيب.

غير أن ذلك الرعب ما لبث أن تبددت سحبه بعد وقت قصير، إذ لم تمض ساعة حتى ظفر بعض الجند الذين انطلقوا في أثر المهاجم فوجدوه متخفياً في البستان المجاور لمنزل القائد العام وراء جدار منهار، فقبضوا عليه، وقُدم للاستجواب في الحال أمام مجلس عسكري.

وكان الجنرال الجريح يعاني من جروح بليغة، حينما تقدم لفحصه كبير الأطباء.. وقد أسلم الروح بعد فحصه ببرهة وجيزة. أما المهندس بروتان فلم تكن جراحه خطرة على الرغم من كثرتها فتم إسعافه.

ظهر من التحقيق الأول أن الشاب المقبوض عليه يدعى سليمان الحلبي وأنه من مواليد مدينة حلب في سوريا وعمره أربعة وعشرون سنة، وأنه قدم إلى القاهرة مع إحدى القوافل ونزل في الجامع الأزهر.

غير أنه أنكر ما نسب إليه من قتل كليبر، والشروع في قتل المهندس بروتان، فتليت عليه الأدلة التي تدينه فأنكرها... فقرر المجلس العسكري إحالته إلى مفرزة التعذيب، وظل يجلد حتى التمس الصفح، ووعد بقول الحقيقة فرفع عنه العذاب، واستجوب ثانية فاعترف أنه قدم إلى القاهرة من غزة منذ واحد وثلاثين يوماً، ولم يكن قدومه مع إحدى القوافل، بل كان على ظهر جمل استحضره خصيصاً لذلك، فقطع المسافة بين غزة والقاهرة في ستة أيام، وأنه جاء إلى القاهرة ليقتل الجنرال كليبر الذي اعتدى على الشعب والعلماء وبيوت الله.

وسُئل: هل حرضه على ذلك أحد في مصر؟ وهل أخبر أحداً بنيته قتل كليبر؟

فأجاب إن أحداً لم يحرضه من مصر، غير أنه تعرف في مكان سكنه في الجامع الأزهر على أربعة أشخاص هم:

- السيد محمد الغزي.
- السيد أحمد الوالي.
- السيد عبد الله الغزي.
- السيد عبد القادر الغزي.

وأطلعهم على مشروعه فنصحوه بالرجوع عنه لاستحالة تنفيذه.

واعترف أيضاً أنه تردد على الجيزة لرؤية القائد العام والاستفهام عنه وعن غدواته وروحاته، فعلم أنه ينزل أحياناً إلى الحديقة، وأنه رآه في هذا الصباح يجتاز النيل في قاربه فلاحقه حتى قتله في الحديقة. . فأصدر القائد العام مينو في الحال أمراً بالقبض على الأربعة المذكورين، فلم تمض ساعة حتى قبض على ثلاثة منهم وأُحضروا في الحال أمام المجلس العسكري وبدئ باستجوابهم. وقد أنكروا أن سليمان الحلبي قد كاشفهم بنيته في قتل الجنرال. . وقد أدى استجوابهم إلى القبض على شخص آخر هو مصطفى أفندي البورصلي، وقدم للاستجواب فقرر ما يلي:

إنه يسمى مصطفى أفندي البورصلي، ومولده في بورصه من ضواحي الأناضول، وعمره واحد وثلاثون سنة وصناعته معلم وسكنه مدينة القاهرة، وأفاد أن سليمان تلميذه منذ ثلاثة أعوام، وأنه قدم إلى القاهرة منذ نحو عشرين يوماً وزاره في منزله للسلام عليه، فاستضافه ليلة واحدة لفقره ولسابق علاقته به، وأن سليمان أخبره أنه حضر ليتقن تعلم القرآن الكريم، ولم يخبره عن سبب آخر لحضوره، ولم يبح له مطلقاً بشيء يتعلق بنيته في ارتكاب الجريمة، وأنه لا يخرج كثيراً من منزله لكبر سنه وضعفه. وقد ووجه الأستاذ بتلميذه فأقر سليمان بكلام الأستاذ.

ولما انتهى التحقيق الأولي أصدر الجنرال مينو في اليوم التالي قراراً بإنشاء محكمة لمحاكمة المتهمين مؤلفة من تسعة أعضاء. . وبعد أن تمت مرافعة المقرر، وقرأت أوراق التحقيق ثانية، أحضر

المتهمون إلى قاعة الجلسة دون أغلال، وسألهم رئيس المحكمة بحضور وكيلهم المترجم عدة أسئلة أخيرة، فلم يغيروا شيئاً من أجوبتهم السابقة، ثم سألهم إن كان لديهم ما يبرّئون به أنفسهم فلم يجيبوا بشيء، فعندئذ أمر الرئيس بإخلاء الجلسة من الحضور، واختلت المحكمة للمداولة، ثم عادت إلى الانعقاد، وأصدرت حكمها بإدانة كل من: سليمان الحلبي، ومحمد الغزي، وعبد الله الغزي، وعبد القادر الغزي، والسيد أحمد الوالي، وبراءة مصطفى أفندي البورصلي وإطلاق سراحه، وقضت على المحكوم عليهم بالعقوبات الآتية:

1 ـ أن تحرق يد سليمان الحلبي اليمنى، ثم يعدم فوق الخازوق، وتترك جثته فوقه حتى تفترسها الجوارح، وأن يكون ذلك خارج البلد فوق التل المعروف بتل العقارب، وأن ينفذ الحكم علناً بعد تشييع القائد العام.

2 ـ أن يعدم عبد القادر الغزي على الخازوق أيضاً وأن تصادر أمواله من عقار منقول لصالح الجمهورية الفرنسية.

3 ـ أن يعدم كل من محمد الغزي، وعبدالله الغزي، وأحمد الوالي بقطع الرأس، ثم توضع رؤوسهم فوق الرماح، وتحرق جثثهم بالنار، وأن يكون ذلك فوق تل العقارب أيضاً وأمام سليمان الحلبي قبل أن ينفذ فيه الحكم.

وقرئ الحكم على المتهمين بواسطة المترجم. . فيكون ما استغرقته هذه القضية من تحقيق ومحاكمة هو أربعة أيام فقط؟

وفي اليوم التالي، تأهب الفرنسيون لدفن قائدهم القتيل،

وشيعوا جنازته في موكب حافل. . ولما ابتدأت الجنازة بالتحرك أطلقت مدافع وبنادق كثيرة، ثم ابتدأ الموكب بالمسير. . . فلما وصلوا إلى تل العقارب بالقرب من القلعة التي بنوها هناك أطلقوا عدة طلقات مدفعية أخرى، وكانوا قد أحضروا سليمان الحلبي وزملاءه فنفذوا فيهم الحكم بحضور الجنود والأهالي، ثم استأنف الموكب سيره حتى وصل إلى باب قصر العيني، وهناك واروا كليبر وهو داخل صندوق رصاصي اللون الثرى، وأحاطوا مكانه بسياج من الخشب، غطوه بالقماش الأبيض وزرعوا حوله أشجار السرو، ونصّب على القبر جنديان مسلحان تناوبان على حراسته ليل نهار.

الفهرس

مركز الشرق الأوسط الثقافي